



أ/ حركة الترجمة

ب/ الطب عند المسلمين

ج/ البيمارستان والصيدلة

د/ تطور علم الرياضيات

هـ/ تطور علمي الفيزياء والكيمياء

و/ تطور علم الفلك

ز/ تطور علم الجغرافيا والرحلات

سادسا/ التاريخ والآداب والفنون

المحور الثالث: الصناعات و الحرف

أولا/ **النقابات المهنية**

ثانيا/ الصناعات الخشبية والنحت على الخشب

ثالثا/ الصناعات الفخارية والخزف

رابعا/ الصناعات المعدنية [الحديد-النحاس - الرصاص]

خامسا/ صناعة الذهب والفضة والحلي

سادسا/ دار السكة وضرب النقود

سابعا/ الصناعات النسيجية [الصوف - القطن - الحرير - الكتان]

ثامنا/ الصناعات الحربية [السفن والأسلحة]

تاسعا/ صناعة الوراقة والنخط

عاشرا/ الفن المعماري والزخرفة الإسلامية ومميزاتها

المحور الرابع: الزراعة وتربية الحيوان

أولا/ تكسير الأرض

ثانيا/ الزراعة طرقها ووسائلها

ثالثا/ الري ووسائله

رابعا/ البساتين والحقول

خامسا/ المحاصيل الزراعية

سادسا/النباتات الصناعية [القطن وقصب السكر]

سابعا/ تربية الحيوان

ثامنا/صناعة الجلود

المحور الخامس: المؤسسات والمرافق الأساسية

أولا/ العواصم والمدن الإسلامية وأهم مرافقها

ثانيا/ القلاع والحصون

ثالثا/المساجد ودورها في المجتمع الإسلامي

رابعا/ المدارس ونظام التعليم

خامسا/ المكتبات والكتب

سادسا/ القصور ومسكن الوزراء

سابعا/ الفنادق

ثامنا/ الحمامات والطهارة في المجتمع المسلم

تاسعا/ الأسواق وكيفية تنظيمها

قائمة مراجع مقياس الحضارة الإسلامية [العلوم والصناعات]

ملاحظة	عنوان الكتاب	اسم المؤلف	المكتبة والرقم
	محاضرات في تاريخ العلوم	التركي	5/001
	منهج البحث العلمي عند العرب	جلال محمد	7/001
	العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية	نادية حسين صقر	10/001
	المكتبات في الحضارة الإسلامية		133/020

	دائرة المعارف الإسلامية في علوم المكتبات		177/020
	موسوعة الحضارة العربية الإسلامية		3/030
	موسوعة النظم والحضارة الإسلامية	شليبي	20/030
	مقالات فلسفية حول القيم والحضارة		26/140
	فلسفة الحضارة	ألبرت أشفينتر	4/170
	العمارة في الحضارة الإسلامية		10/200
	فضل الإسلام على الحضارة الغربية	مونتجومري	30/210
	نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم		90/9/211
	الحضارة الإسلامية [علماء المسلمين وفضلهم في علوم الإحياء - الأرض - الزراعة - الحيوان - الحشرات		94/9/211
	تاريخ النظم والحضارة الإسلامية		0/0/216
	النظم الإسلامية	حسن إبراهيم حسن	63/0/216
	مدخل للنظم	البكري	76/0/216
	ركائز الحضارة في الإسلام		27/0/218
	الدين والحضارة الإنسانية		184/4/218
	الإسلام والحضارة الإنسانية	خفاجي	195/4/218
	الإسلام ومشكلات الحضارة	سيد قطب	208/4/218
	الإسلام والحضارة الإنسانية	العقاد	24/4/218
	فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية	شليبي	307/4/218
	الإسلام في معركة الحضارة	شفيق	398/4/218
	مشكلات الحضارة	مالك بن نبي	460/4/218
	منهج الحضارة الإنسانية في القرآن	البوطي	462/4/218
	وحدة الحضارة		56/4/218
	نحن والحضارة الغربية	المودودي	7/6/218
	الحضارة - المدنية - المصطلح		51/306
	مفتاح العلوم	السكاكي	151/410
	العلوم البحتة في الحضارة العربية	الدفاع	1/500
	العلوم والفنون عند العرب		2/500
	الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى		6/500

	[العلوم العقلية]		
	روائع الحضارة الإسلامية	الدفاع	7/500
	العلوم الرياضية	مذكور	1/510
	مدخل إلى علم الجمال الإسلامي		11/700
	مدخل إلى تخطيط المدن		27/700
	في الأدب والحضارة	الحسناوي	7/800
	مفهوم الحضارة [مالك بن نبي-تويني...]		19/900
	شجرة الحضارة	رالف لنتون	25/900
	الوجيز في قصة الحضارة [نشأة الحضارة]		30/900
	في معركة الحضارة [ماهية الحضارة]		47/900
	في الحضارة الإنسانية [يونان-الإسلام- الغرب]		50/900
	رواد علم الطب	الدفاع	390/920
	أسس مفهوم الحضارة في الإسلام	الخطيب	84/0/956
	محاضرات في تاريخ العلوم		96/0/956
	الإسلام ومستقبل الحضارة	صالح صبحي	104/0/956
	عبقريّة الحضارة العربيّة		121/0/956
	الإنسان والحضارة		162/0/956
	الحضارة العربيّة	جاك ريسلر	167/0/956
	معالم الحضارة الإسلامية	الشكعة	270/0/956
	دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربيّة	سعيد ع الفتاح عاشور	273/0/956
	بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية		274/0/956
	روح الحضارة الإسلامية	محمد الفاضل بن عاشور	284/0/956
	الحضارة العربيّة الإسلاميّة	شوقي أبوخليل	287/0/956
	بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية	سحر السيد ع العزيز سالم	308/0/956
	محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية		309/0/956
	الحضارة الإسلامية	ع الرحمان حبنك الميّداني	339/0/956
	مدخل إلى تاريخ العلوم	حكمة عبد الكريم	345/0/956
	الحضارة الإسلامية عوامل الإزدهار	محمد عاد ع العزيز	349/0/956

	وتداعيات الإنهيار		
	تاريخ الإسلام السياسي والحضاري [ج+ج3]	حسن إبراهيم حسن	
	تاريخ إفريقيا العام مجلد 4		
	مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب	إبراهيم حركات	

مدخل: مفهوم الحضارة ومكوناتها

أولا/ مفهوم الحضارة

أ/تعريف الحضارة

1/المفهوم الشائع

يشاع بين الناس أن مفهوم الحضارة بأنها عبارة عن العلوم والآداب والفنون الجميلة والصنائع والبدايع وأطوار الحياة المدنية والاجتماعية وأسلوب حياتها السياسية<sup>1</sup>.

وهو تعريف ناقص يعرف الحضارة انطلاقا من إحدى مظاهرها ونتائجها، ويتجاهل سائر عناصرها ومكوناتها

كما حاول الكثير أن يعرفها انطلاقا من الواجهة التي يرى من خلالها الحضارة فجاءت مجموعة من التعريفات المختلفة منها:

-الحضارة عرفت بأنها عبارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي<sup>2</sup>

-وعرفت كذلك بأنها ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروفه<sup>3</sup>

-وعرفت بأنها محاولات الإنسان الاستكشاف والاختراع والتفكير والتنظيم والعمل على استغلال الطبيعة للوصول إلى

مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلها،... وأنها تمثل الأفكار والمفاهيم التي يحملها الإنسان عنه وعن الكون

<sup>1</sup> - وهبة الزحيلي: نظام الإسلام، دار قتيبة، ط2، 1413هـ/1993م، ص363

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص363، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج1، ص3

<sup>3</sup> - حسين مؤنس: الحضارة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1419هـ/1998م، ص15

والحياة ويبنى على أساسها حياته في كل مجالاتها<sup>4</sup>، فهي إذن مفهوم واضح في ذهن الإنسان عن الكون والحياة يدفعه إلى التدرج في مدارج الرقي الذاتي والاجتماعي إلى أقصى درجات معطيات الحضارة<sup>5</sup>

وقد اندفع مدلول كلمة حضارة حتى استوعب جميع أشكال التطور والتحول والحداثة والابتكار والتغير إلى الأفضل

ولو نسبيا

فاتضح أن لاختلاف الأمزجة والأهواء والثقافات والعقائد تأثير واضح في تكييف الحضارة سلبا وإيجابا، وهي الآن عند البعض تعني: السير في ركاب الغربيين والإقتداء بهم دون تمييز بين الغث والسمين، عند من شكّل الغرب نزعاتهم عن طريق المعاشة أو التعليم أو التقليد العشوائي... في إباحة الاختلاط بين الجنسين والسّفور وتحرير وتكريم المرأة التي تضيق بتعاليم الإسلام في رأيها ورأي من يظاهاها على ذلك، فالمبيح لذلك والمستسيغ له متحضر متمدن، والمستنكر له متخلف معادٍ للحضارة والمتحضرين<sup>6</sup> في نظر هؤلاء.

كما انحصر ظل الحضارة بمعناها الأكمل والأسمى عن معظم سكان البسيطة، حتى تفوقعت في الماديات بأوسع معانيها<sup>7</sup>، وأصبح على هذا المعنى القاصر من الضروري لكي نتحضر أن نتخلى عن ديننا كما فعلت أوروبا، ونستسلم لمفهوم الوحدة الحضارية أو الحضارة الواحدة، لتجنب الصراع الحضاري<sup>8</sup> الذي هو حتمية لا بد منها، وهو إعلان انتهاء دور قيادة أمة ما للحضارة الإنسانية رغم محاولة تبرير أخطائها وتشبثها، كما انتهى دور الفرس والروم، وقيام الحضارة الإسلامية، ثم انتهاء دور المسلمين وقيام الحضارة الغربية ثم... {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (140)}<sup>9</sup>، والمهم هو عدم توقف الحياة بتوقف الحضارة التي لا يمكن أن تتوقف إلا في نقطة النهاية الحتمية للإنسان من هذا الوجود.

وكل ما تقدم من التعاريف يمثل وجهة نظر خاصة، قاصرة على رأي واضح التعريف، وللووقوف على تعريف متكامل

أو جامع مانع على حد قول أصحاب الحد، يمكن أن نرجع إلى المعنى اللغوي لهذه الكلمة ثم التعريف الاصطلاحي

## 2/ التعريف الشامل:

### - التعريف اللغوي

كلمة الحضارة يعود أصلها إلى الحضور، وهو بمعنى الشهود الذي هو ضد الغيب... ومهما تعددت المشتقات فمعنى الكلمة يدور حول: القرب، الإقامة، الشهود، وفي القاموس المحيط<sup>10</sup>: الحضارة الإقامة في الحضر، وفي المصباح المنير: حضرت مجلس القاضي شهدته، وحضر الغائب حضورا أقدم من غيبته، والحضر خلاف البدو... وحضر أقام بالحضر، وحضر المكان نزل به قال تعالى {كُلُّ شَرِبٍ مُّخْتَصِرٌ (28)}<sup>11</sup> أي يحضره مستحقوه، وتحضر: تخلق بأخلاق أهل الحضر وعاداتهم،

4 - ول ديورانت: قصة الحضارة، ج1+2، ص9

5 - الزحيلي: نظام الإسلام، ص363

6 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص32

7 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص32

8 - البوطي: حوار حول مشكلات حضارية، ص11

9 - [آل عمران: 140]

10 - طبعة الحلبي، ط2، ج2، ص10

11 - [القمر: 28]

وخلاف البادية هي المدن والقرى... والحضارة الإقامة في الحضر كما تطلق الحضارة على العاصمة كما يقال: بغداد حضارة الإسلام في عهد الرشيد.<sup>12</sup>

## 2/إصطلاحا

مصطلح يعني تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما في مكان معين وفي زمن محدود أو أزمنة متعددة ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة.<sup>13</sup>

### ب/عناصر مكوناتها

تتكون الحضارة من عناصر أساسية متكاملة لا بد من توفرها جميعا لقيام حضارة ما وهي<sup>14</sup>:

1/الإنسان: بخصائصه، وما أتى الله الإنسان من العقل الذي اختزن تلك المعلومات ولا حظ الأشياء وتأملها، وتبين الروابط بينها، واكتشف واخترع وفتح للإنسان أبواب السيادة على هذا الكوكب<sup>15</sup>، وكل ما أوتي من قدرات وما رزق من حب الاضطلاع والتنقيب والتفكير في كل شيء، والبحث عن المجهول، ومعرفة سرّ الأشياء وما بداخلها وما يجرّكها<sup>16</sup>، كما أن الحضارة لا يمكن أن تشييدها أمة واحدة فكيف بشخص واحد، فالحضارة تظهر مع الجماعة، والإنسان عند مالك بن نبي يوجد خلف العملية العلمية والصناعية<sup>17</sup>

2/المكان: أو البيئة أو الأرض أو التراب كما يسميه مالك بن نبي موصل عازل، وهو يتدخل بعنصره الأول في نشأة الإنسان العضوية<sup>18</sup>، ويقصد بها موارد الأرض الطبيعية التي تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعة<sup>19</sup>

3/الزمان: وهو عند مالك بن نبي مناط يبرز في جميع العمليات البيولوجية والتكنولوجية<sup>20</sup>، فالثمرات الحضارية تحتاج إلى زمن لكي تنضج، إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة في نفس الوقت، فإن الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان، لأن اكتشاف القوانين واستغلال نواميس الكون، ومعرفة الأشياء وطبائعها يستغرق وقت<sup>21</sup>، ولا تتبين القيمة الحقيقية لأي ثمرة حضارية إلا إذا جربها الإنسان في الاستعمال مرة بعد أخرى، وعرف فائدتها، وتعلم كيف يصنعها إذا أراد، ولا بد أن يتكاثر صنع الشيء ويتراكم حتى يكون له أثر في حياة الإنسان، ويصبح جزءا من هذه الحياة<sup>22</sup>.

12 - عبد المعنم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص33-31

13 - داود خليفة، مطبوعات مقياس العلوم والصناعات

14 - داود خليفة، مطبوعات مقياس العلوم والصناعات

15 - حسين مؤنس: الحضارة، ص17-18

16 - حسين مؤنس: الحضارة، ص29

17 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45

18 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45

19 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامي، ص20

20 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45

21 - حسين مؤنس: الحضارة، ص17

22 - حسين مؤنس: الحضارة، ص15



4/المركب الحضاري: أو الفكرة الدينية كما يسميها مالك بن نبي، وعنده فإن الدين له دور العامل المركب لعناصرها واختفائه يعني تحلل هذه العناصر إلى وضع غير مركب، أي تحلل الحضارة<sup>23</sup>، ولذلك عندما يحلل أسباب قيام الحضارة التي قادتها الأحزاب الشيوعية الملحدة لا تستثنى من هذه القاعدة، فهي عنده نتاج لأزمة في المسيحية، أو أنها من جهة أخرى لم تقم حقيقة في مستواها الإنساني على الأفكار الماركسية الملحدة، بل قامت على تفاني أفراد توجههم فكرة عن التضحية في سبيل المصلحة العامة، فهو يعتبر الشيوعية النظرية قبل كل شيء فكرة ماركس، ولكن هناك شيوعية واقعية هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بنفس القوى الداخلية التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور<sup>24</sup>.

وإذا أخذنا نفس المثال الذي ضربه مالك بن نبي، فإن تفاعل هذه العناصر يشكل لنا العملية الحضارية فكل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية التالية: ناتج حضاري=إنسان+تراب+وقت، فعملية إنتاج المصباح الكهربائي تكون وفق هذه العناصر كما يلي: مصباح=الإنسان+تراب+وقت<sup>25</sup>

### ج/الفرق بين الحضارة والمدنية:

بين الحضارة والمدنية فرق واضح، فإذا كانت المدنية تعني التقدم العلمي والتكنولوجي والرفاهية والرقي الذي وصلت إليه المجتمعات، أما الحضارة فهي لا تعني هذا الجانب فقط، بل إنها تشمل الجانب الروحي العقائدي الفكري التشريعي أيضاً، وبالتالي تشمل نظرة متكاملة منسجمة إلى الكون والإنسان والحياة<sup>26</sup>.

### د/عوامل قيامها وسقوطها

#### 1/العوامل الطبيعية

تتحكم في قيام الحضارة عدة عوامل طبيعية فمنها مثلاً العوامل الجيولوجية، فعصر الجليد أعاق مسارها<sup>27</sup>، والمناخ المناسب وهو يستحث خطاها، ولكنه لا يخلق حضارة خلقاً، ولكنه يستطيع أن يمهد لها الطريق فقط، ويهيئ لها سبيل ازدهارها وتقدمها<sup>28</sup>، وكذلك العوامل الجغرافية من حرارة وبرودة واعتدال وأمطار وأنهار وموانئ... مميزات تجارية طبيعية مؤثرة في خلق المدينة وازدهارها أو ضعفها<sup>29</sup> وانحصارها.

#### 2/العوامل الأخلاقية

فالحضارة لا يمكن قيامها بغير قيم خلقية، لأن الأخلاق تتطلع دائماً إلى الأفضل، ويتعذر حماية المكاسب الحضارية من دون الأخلاق التي تعلم النظام وقواعد السلوك<sup>30</sup>، لا بد أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وفي المثل

23 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45

24 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص47

25 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45

26 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص20

27 - المصدر نفسه، ص23

28 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص23

29 - الزحيلي: نظام الإسلام، ص364

30 - الزحيلي: نظام الإسلام، ص365

الأعلى المنشود، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره، إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، وهو يجعل كذلك حياة الإنسان أشرف وأخصب<sup>31</sup>، والدين دعامة الأخلاق

ووحدة القيم واشتراك مجموعة بشرية فيها، تجعلهم يوجهوا جهودهم نحو غرض واحد... فالعامل الخلقى من أهم الثوابت التي تجمع بينهم وتوحد جهودهم وتدفع بهم نحو غرض مشترك بينهم<sup>32</sup>.

### 3/العوامل الاقتصادية:

وهي أهم العوامل المساعدة على قيام الحضارة، والانتقال من الوسائل البدائية للحياة إلى الزراعة فالصناعة، شرط ضروري للتحضر<sup>33</sup>، فإذا استقر الانسان في مكان يفلح تربته ويحزن فيه زاده أو ما زاد عن حاجته أو يبادل ويصدره، يساعد الإنسان على بناء الدور والمساكن للاستقرار، وبناء المعابد والمدارس للتعليم، ويخترع بعد ذلك الآلات التي تزيد في الإنتاج وتسره<sup>34</sup>.

### 4/العوامل السياسية:

لابد أن يسود الناس نظام سياسي مهما كان نوعه وحال استقراره<sup>35</sup>، وهو ضروري لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والسهر على حفظ النظام وتطبيق القانون الخلقى المتفق عليه.

### هـ/ مظاهر الحضارة

للحضارة مظاهر ترافق مراحل ظهورها وتطورها ولا تكاد تنفصم عنها، وهي مظاهر متفاوتة متمثلة في: المظهر الاقتصادي والموارد الاقتصادية، والمظهر السياسي والنظم السياسية، والمظهر الاجتماعي والمظهر الثقافي المتمثل بوضوح في الثقافة والإنتاج العلمي، والعادات والتقاليد والأخلاق<sup>36</sup>.

### 1/المظهر السياسي:

السياسة في حقيقتها ما هي إلا مشروع لتنظيم التغيرات المتتابة في ظروف الإنسان وأوضاع حياته، وهي تهدف إلى تحديد العلاقة التي تبين وضع الفرد باعتباره غاية كل سياسة، وتعتبره كذلك عاملاً لتحقيق تلك الغاية<sup>37</sup>، ويتجسد المظهر السياسي بوضوح في هيكل الحكم ونوع الحكومة ومؤسساتها<sup>38</sup>.

### 2/المظهر الاقتصادي: ويمثل في موارد الثروة ووسائل الإنتاج وتبادل المنتجات<sup>39</sup>.

### 3/المظهر الاجتماعي: يمتثل في تكون المجتمع ونظمه وخاصة نظام الأسرة وتنظيمها<sup>40</sup>.

31 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص24

32 - غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص161

33 - الزحيلي: نظام الإسلام، ص364

34 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص23

35 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص24

36 - الزحيلي: نظام الإسلام، ص363

37 - مالك بن نبي: وجهة، ص87

38 - ديورانت: قصة الحضارة، ج5، ص10

39 - ديورانت: قصة الحضارة، ج5، ص10

4/المظهر الديني: ويتمثل في المعتقدات الدينية والعبادات<sup>41</sup>

5/المظهر الثقافي: ويمثل في الفلسفة والعلوم والآداب والفنون<sup>42</sup>

و/نقل الحضارات

شُبه سير الحضارة وتداول الأمم على قيادتها، بسير الشمس فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر<sup>43</sup>، فالحضارة لا تموت لكنها تنتقل وتهاجر من بلد إلى بلد، فهي تغير مسكنها وملبسها ولكنها تظل حية، وموت إحدى الحضارات كموت أحد الأفراد، يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى، فالحياة تخلع عنها غشائها القديم وتفاجئ الموت بشباب غضّ جديد<sup>44</sup>.

فما هو التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تنشأ وتزدهر، ثم تضمحل وتفنى، ولكنها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها، فهي كالعديدين في سباق يُسلم كلٌّ منهم مصباح الحياة إلى غيره<sup>45</sup>، وهكذا يتم الاتصال بين الحضارات، وبالتالي تنتقل بعدة طرق منها الفتح أو الغزو أو الهجرة أو السياسة والتجارة والحوار<sup>46</sup>.

ثانياً/ تعريف الحضارة الإسلامية ومميزاتها

أ/تعريف الحضارة الإسلامية

انطلاقاً من التعريف السابق للحضارة يمكن أن نعرف الحضارة الإسلامية على أنها تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة المسلمة التي توجد خلافة الله في الأرض عبر الزمن وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والكون<sup>47</sup>.

ب/أما ضوابطها وشروطها وميزاتها فهي<sup>48</sup>:

1/العقيدة وتوجهاتها الأساسية -الفكرية والروحية والأخلاقية-: المجتمع الإسلامي وحده الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعتبر فيه العقيدة الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، والعربي والرومي والفارسي والحبشي، وسائر أجناس الأرض في أمة واحدة ربها الله<sup>49</sup>.

وحيث تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، ويكون هذا كله صادراً من إله واحد تتمثل فيه السيادة العليا للبشر، وليس صادراً من أرباب أرضية، تتمثل فيها عبودية البشر للبشر... يكون ذلك المجتمع ممثلاً لأعلى ما في الإنسان من خصائص... خصائص الروح والفكرة<sup>50</sup>.

40 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

41 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

42 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

43 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص19

44 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص19، ديورانت: قصة الحضارة، ج8، ص211

45 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص19، ديورانت: قصة الحضارة، ج9، ص312

46 - ديورانت: قصة الحضارة، ج5، ص09، شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص25

47 - داود خليفة، مطبوعات العلوم والصناعات

48 - المصدر نفسه

49 - سعيد حوى: الرسول، ص58

أما حين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي: الجنس واللون والقوم والأرض وما إلى ذلك من الروابط، فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان<sup>51</sup>.

فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر، أما المجتمع الذي يجتمع فيه الناس إلى أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف... المجتمع الجاهلي<sup>52</sup>.

فالإنسان يبقى إنسانا بعد الروح والفكر، ثم هو يملك بمحض إرادته الحرة أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته، ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه، كما أنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في أرض<sup>53</sup>

**2/المبادئ العادلة، والأنظمة المحكمة التي قامت عليها، والانقياد التام لكل أحكامها من طرف أتباعها**

**3/الدولة الأمة بمفهومها ومقوماتها، التي تبنت أفكارها ومبادئها، وكانت ممارسة لها على أرض الواقع**

**4/القيادة المتفتحة التي حظيت بها، ابتداء من قيادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لها، إلى خلفائها الراشدين ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.**

**ج/العوامل التي ساعدت على قيامها:**

**1/البيئة المناسبة:** لم يلبث العرب بعد خروجهم من صحارى جزيرتهم، أن وجدوا أنفسهم أمام ما بصرهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية، وأدركوا تفوقها الثقافي، كما كانوا قد أدركوا تفوقها الحربي، فجدّوا ليكونوا على مستواها من فورهم، ويتطلب استمرار حضارة ذكاء مثقفا<sup>54</sup>

**2/الزمن المناسب:** إن الزمن الذي ظهر فيه العرب من العوامل التمهيديّة في قوتهم، ولد محمد -صلى الله عليه وسلم- في أحسن الأوقات، وقد رأينا أن العالم المسن كان متصدعا فيه من كل جانب، ولم يتوجب على أتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- إلا أن يهزوه ليتساقط<sup>55</sup>، حيث ظهرت حضارتهم في مرحلة ضعف الحضارات وتهاويها أمامهم.

**3/الفكرة الجامعة والمناسبة أو عنصر الأخلاق:** إذا كان ذلك العامل التمهيدي مساعدا على إنشاء دولة جديدة وحضارة جديدة، فلا بد من عوامل أساسية أخرى لإقامتها، حيث اتصف أفراد مجتمعهم على الخصوص بمشاعر وقابليات متماثلة، ووجهوا جهودهم نحو غرض واحد، وهذه المشاعر المتماثلة التي تكونت<sup>56</sup> لديهم ألقت في مجموعها الأخلاق العامة لديهم.

50 - المصدر نفسه، ص 57

51 - المصدر نفسه، ص 57

52 - سعيد حوى: الرسول، ص 58

53 - المصدر نفسه، ص 57-58

54 - غوستاف لبون: حضارة العرب، ص 606

55 - المصدر نفسه، ص 601

56 - غوستاف لبون: حضارة العرب، ص 601

يضاف إليها الذكاء والحماسة والاستعداد الفني والأدبي وما إلى ذلك من الصفات التي لولا وجودها فيهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى درجة الحضارة، فلم تكن جزيرة العرب قبل ظهور محمد-صلى الله عليه وسلم- سوى ميدان حرب دائم واسع، لما تأصل في العرب من الطبايع الحربية، ولما جاء الإسلام وألّف بين قلوب العرب، وجّهوا جميع قوّاتهم إلى البلاد الأجنبية، وكانت طبائعهم الحربية المتأصلة من أسباب انتصاراتهم<sup>57</sup>

1111/العامل الديني: وهو العامل الذي توحدت بفضلها جميع القبائل العربية المنقسمة، وصار العرب أمة واحدة بفضل الإسلام، وأصبح الإسلام مثل العرب الأعلى، واكتسب العرب به الحمية، ما استعدوا معه لفتح العالم لإعلاء لشأنه بقيادة زعمائهم الماهرين<sup>58</sup>، فقد منح هذا الدين ما كانت تحتاج إليه أمم من المثل الأعلى المشترك الذي اكتسبوا به من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله، ويكفي المثل الأعلى أن يكون قويا ليمنح الأمة مشاعر مشتركة وآمالا مشتركة، وإيماننا متينا يندفع به كل واحد من أبنائها في التضحية بنفسه في سبيل نصره، والمثل الأعلى الذي جاء به محمد-صلى الله عليه وسلم- ديني محض، والدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم دين اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية<sup>59</sup>، وتأسست حياة قوامها هو الدين، فهي الحضارة التي بنت صرحها شرائع الله ورسالاته لبنة لبنة<sup>60</sup>، وأن العرب أبدعوا حضارة جديدة بعد أن فتحوا العالم<sup>61</sup>.

## د/الأسس التي قامت عليها

### 1/القرآن الكريم مصدرها وكتابتها الذي يوجهها

**1/عصمة مصدرها:** لم تستطع أي حركة أو جماعة أو مجموعة أن تضمن لمصدرها ومنهجها العصمة من تطرق الباطل إليها، وضمن الله تعالى ذلك لكتابه [ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ]<sup>62</sup>، ولذلك نذب المسلمون إلى التمسك به أمنين من الزلل والخطأ روى الترمذي من حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّيَّ تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا<sup>63</sup>، وتجلي ذلك في مظهرين اثنين:

-**الأول:** صدق القرآن الكريم وثباته وثبوتة : عصمته من التحريف والتبديل، وتعاصبه على أن يزداد عليه أو ينتقص منه، ومطابقة كل حقيقة فيه لواقع المخاطبين به، ويتناول ألفاظه ومضامينه، ونعني بثباته أن تنال منه الأيام ولا يبلى على الدهر

57 - المصدر نفسه، ص603-604

58 - المصدر نفسه، ص08

59 - المصدر نفسه، ص604

60 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج، ص28

61 - غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص606

62 - سورة فصلت، الآية42

63 - كتاب المناقب عن رسول الله، باب مناقب أهل بيت النبي، قَالَ الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ عَرِيضٌ

ولا تتغير معطياته ومدلولاته، كما يحدث من البشر وتصانيفهم ومؤلفاتهم، وكذلك ثبوت حقائقه لا يبدها عرف ولا ينصرف عنها من فقهاء وآمن بها، وكذلك استحالة تطرق الشك إليه، نقلا متواترا<sup>64</sup>.

يضاف إليه إجماع من يتعبد لهم على استحالة تعارض ما يرد فيه من حقائق علمية مع ما يكشف العلم من حقائق ومبتكرات ميقون بها، فالمتتبع للحقائق العلمية التي وردت فيه يرى يقينا استحالة صدورها أو صدور مثلها من البشر جميعا مهما أوتوا من العلم ووسائله وأسبابه<sup>65</sup>، لتوافقها التام مع المعطيات العلمية الحديثة<sup>66</sup>.

**-والثاني:** الحقيقة الأخرى وهي شمول القرآن واتساع مضامين آياته البيئات لكل ما يمنح المؤمنين به الحياة الطيبة، واستيعابه لجميع القضايا الكلية التي صلح ويصلح بها أمر البشر ماضيا وحاضرا ومستقبلا<sup>67</sup> قال تعالى: [وَمَا مِنْ ذَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ]<sup>68</sup>، ولا تعني شمول الجزئيات... كأدوات الصناعات والحرفيين والمهنيين في كل قطاع

**2/المرونة والتطور واستيعاب الجديد:** فالحضارة المستلهمة أسبابها من القرآن الكريم موسومة بالتطور في إطار ما تسمح به مدلولات ألفاظه، وهذا التطور الواعي يُعدّ أول أسس الحضارة المستمدة من الذكر الحكيم، ولم يجعل سبحانه وتعالى كتابه الخاتم وقفا على زمان أو طائفة أو طبقة أو بيئة، كما أن القرآن استوعب الناس كلهم في خطابه العامي والعالم والمتخصص<sup>69</sup>... والأخذ على الناس باليسر مما يطبقون، والتماس الرفق بالمسلمين فيما استطاعوا وما استنبطوا من أحكام وقوانين، ولم يكلفه شططا ولا عبثا<sup>70</sup>.

**11/عقل صريح وفهم صحيح:** العقل أول ما تتسم به حركة البشر منذ بدء الخلق، وقد عول عليه القرآن الكريم في شؤونه ودعي إلى الاحتكام إليه قال تعالى [وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ]<sup>71</sup>، وهو يعيب صراحة على من لم يستخدم عقله ويتدبر في آياته، وقال: [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ]<sup>72</sup>، فهذه الآيات يستوعب معانيها العقل المتذكر وحده، سواء الآيات البيئات الناطقة للقراءة المباشرة والفهم، أو الآيات المبتوثة في الأنفس والآفاق التي تدعوا للنظر والاتعاظ والاستنباط<sup>73</sup>، ويكفي تشبيعا على الغافلين قوله تعالى على لسانهم [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ]<sup>74</sup>، ولذلك كان الفاعل لعقله أصلا وعدم المستعمل له في ميزان الشرع سيان، ولا أدل على ذلك أكثر من قول الله عز وجل [أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

64 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص 54

65 - المصدر نفسه، ص 57

66 - موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص 86، 265

67 - عبد المنعم عبد الشفيق: المصدر السابق، ص 57-58

68 - سورة الأنعام، الآية (38)

69 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص 34، 36-37

70 - المصدر نفسه، ص 34، 36

71 - سورة ياسين، الآية (68)

72 - سورة البقرة، الآية (269)

73 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص 42

74 - سورة الملك، الآية (10)

أَضَلُّ سَبِيلًا<sup>75</sup>، وقوله تعالى [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ]<sup>76</sup>.

ولذلك جعل العلماء للعقل مكانة خاصة؛ إذ هو مناط التكليف، ويسقط التكليف على فاقده، لذلك كان التكليف الشرعي بالأحكام الشرعية أن يخرج الإنسان (من حيز الطفولية)<sup>77</sup>، فالطفل (كالبهيمة لا تكليف عليه، إذ لا تمييز عنده)<sup>78</sup>، ومن لا يميز فهو (خلو من العلم بالجملة معدود من الحيوانات لاحق بمبدئه في التكوين)<sup>79</sup>، وحتى وإن خرج من حيز الطفولية وكان فاقداً لعقله كالمجنون<sup>80</sup> فلا تكليف عليه.

111/علم راسخ: نريد أن نتحدث عن حضارة لها علم ينتفع به، لا جهالة فيها ولا فساد، لذلك نرى في نصوص القرآن الآيات البيّنات تركي العلم وأهله، وتندد بالجهل والجاهلين<sup>81</sup> قال تعالى: [لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ]<sup>82</sup>، علم ضروري للاستخلاف، علم شامل غير قاصر، علم نافع غير ضار، علم للعمل لا لحو الأموية، وإذا لم يتمكن من الوصول إلى العلم بحيلته، فعليه أن يسترشد بغيره، قال تعالى [وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ]<sup>83</sup>.

إن العلم يسوق أهله إلى الحق سوقاً مقنعا بلا غبار ولا غشاوة<sup>84</sup> قال تعالى: [وَمَنْ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ]<sup>85</sup>، وهكذا تأخذ الآيات البيّنات بيد أتباعها لتسوقهم إلى الحق سوقاً، فطائفة العلماء العاملين وحدهم هم الذين عصمهم الله من الزيف والوقوع فيما حرم، وقادهم إلى الإيمان الصحيح<sup>86</sup> قال تعالى: [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ]<sup>87</sup>، وكيف لا يؤتمنون على ذلك وقد جعل الله تعالى صدورهم أوعية لعلمه [بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ]<sup>88</sup>، فإن كان الله قد آمنهم على دينه فكيف للناس أن لا يقتدوا بهم ولا يسلموا لهم فيما اختصهم الله به وأتمهم عليه، ولا سيما وقد نص على ذلك في كثير من النصوص روى الترمذي من حديث أبي الدرداء قال فإني سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيْسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ

75 - سورة الفرقان، الآية(44)

76 - سورة الأعراف، الآية(179)

77 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص54

78 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

79 - ابن خلدون: المقدمة، ص599

80 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص54

81 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص49

82 - سورة آل عمران، الآية (164)

83 - سورة الأنبياء، الآية (7)

84 - عبد المنعم عبد الشفيق: نماذج من الحضارة القرآنية، ص49

85 - سورة فاطر، الآية(28)

86 - عبد المنعم عبد الشفيق: المصدر السابق، ص50

87 - سورة الزمر، الآية9

88 - سورة العنكبوت، الآية(49)

كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ<sup>89</sup>، ولذلك جعل من أكبر علامات الفساد والسقوط الانهيار أن يترك الناس العلم فينقطع العلماء فيبحث الناس عن عالم يسوده فلا يجدون فماذا يفعلون حينها ما رواه البخاري من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا<sup>90</sup>، وعندها تحل الكارثة ويسند الأمر لغير أهله وتضيع الأمانة روى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أُعْرَابِيٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ أَيْنَ أَرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ<sup>91</sup>، وعندها فقط تفقد هذه الأمة الريادة والسيادة لأنها سودت عليها أهل السوء المفسدون من حيث لا يعلمون، وينتشر فسادهم في الأرض، وتتجلى أخطر مظاهره فيما رواه البخاري من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُنْبِتَ الْجُهْلُ وَيُشْرَبَ الْحُمْرُ وَيُظْهَرَ الرَّثَا<sup>92</sup>

1111/لسان فصيح: لا بد من لسان تعبر به الحضارة عن منجزاتها وإبداعاتها، وتدفع وتدافع به عن نفسها، وتسجل به أحرفها وإنتاجها في كل مجال ويسجل وقائعها ومراحل تطورها، وكل آدابها وأشعارها وفنونها وعاداتها وتقاليدها، وقيمها وأخلاقها، فاللسان بمثابة المحامي والمدافع عن كيان الأمة وحضارتها، واللسان العربي اللسان الناطق والمفصح عن كينونتها ومبادئها، لسان تقرأ به وترجم به لمن يقرأ.

وإذا كان إدراك الشريعة ذاتها متوقف على معرفة اللغة، فإن اللسان الذي جاءت به الشريعة يصبح إذا أخذنا بقاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)<sup>93</sup> واجبا، وإذا توسعنا في الأخذ بهذه القاعدة وجدنا أن اللغة العربية تحتل مرتبة الواجب، ليس من جهتها الذاتية ولكن باعتبار أن معرفة الواجب متوقف عليها على الأقل .

بل هناك اعتبار آخر أهم منه، وهو ثبوت الشريعة الإسلامية في حد ذاتها، لأن الأصل الذي تبنى عليه؛ وهو القرآن والسنة، جاءا بلغة العرب (فاللغة بها جاءت شريعتنا فإذا بطلت اللغة بطلت الشريعة)<sup>94</sup>، كما جعل البعض معرفة الشريعة كلها؛ متوقف على معرفة علوم اللغة (ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن يتقدمه العلوم اللسانية؛ لأنه متوقف عليها وهي أصناف: علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب)<sup>95</sup>.

وكما أن بعض المذاهب، كالمذهب الظاهري يعول كثيرا على اللغة؛ بل ويؤكد على أن المعنى المقصود شرعا هو نفسه المعنى المقصود في اللغة؛ لا يجوز تعدية الحكم إلى معنى آخر غير مقصود لغة، كما لا يجوز صرف اللفظ عن معناه الحقيقي

89 - كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة

90 - كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم

91 - كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه

92 - كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل

93 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 206

94 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 183

95 - ابن خلدون: المقدمة، ص 550



إلى معنى مجازي، أو أنه يرمز إلى معنى آخر لا يدل عليه ظاهر اللفظ قال ابن حزم في الوحي (وكل ما فيه من خبر عن نبي... فهو حق على ظاهره لا رمز في شيء منه)<sup>96</sup>.

فقد تطرف ابن حزم في مذهبه فجعل اللغة ذاتها حماً شرعياً لا يجوز تحديه أو تجاوزه أو تأويله، وهذا نظراً لأهمية اللغة في الحضارة الإسلامية التي هي المفصح عن مكوّناتها ومكوّناتها وأحكامها وسائر ما يتعلق بها. **الخلق قويم:** كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، وسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يجتهدون في نشره في العالم، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرًا، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما نذر وجوده في دعاة الديانات الجديدة: أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا كما رأينا أهل سورية ومصر وإسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين قوانينهم ومعتقداتهم غير فاضلين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب إذا قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم، وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم في سهولة واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب من مسرح العالم، ونعدّ من الواضح خاصة أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والإغريق والرومان أن يقبلوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها، وأن يقيموا حضارتهم مقامها<sup>97</sup>.

#### د/تأثيرها وانحطاطها وسبيل النهوض بها

الكاتب الفرنسي موسيو ليون روش السياسي الذي أقام في بلاد المسلمين 30 سنة، وتعلم في أثنائها اللغة العربية وفنونها، وقرأ العلوم الإسلامية، وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس والآستانة ومصر والحجاز، وضع كتاب عنوانه (ثلاثون عاماً في الإسلام)، وقد عريت جريدة اللواء المصرية عنه (في عدد 1506 الصادر في 22 ج 2) الجملة الآتية، قال المؤلف: (اعتنقت دين الإسلام زمنًا طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر دسيسة من قبيل فرنسا، وقد نجحت في الحيلة فوثق بي الأمير وثوقاً تاماً، واتخذني له سكرتيراً، فوجدت هذا الدين الذي يعييه الكثيرون أفضل دين عرفته، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته فيه مشروعاً، بل إني عدت إلى الشريعة التي يسميها جول سيمون الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت أخذاً عن الشريعة الإسلامية، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب، فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوءاً، ثم هو لا يستحل المحرم في طلب الرزق، ولذلك كان أقل مالاً من الإسرائيليين، ومن بعض المسيحيين، ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين يشغلان العالم طراً، الأولى في قول القرآن: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (الحجرات: 10) فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية، والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال، وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً، وهذا دواء الفوضوية، همت بحب فتاة جزائرية اسمها خديجة وشغفت هي بي حباً، إني كلما تذكرت هذا الحديث أذوب أسفاً،

96 - ابن حزم: المحلى، ج 1، ص 22

97 - غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 605

تبادلنا الغرام وتشاكينا الهيام وهي لا تعرف من أمري إلا أني مسلم، وكان حبي لها حباً جرى مجرى دمي في مفاصلي، فأردت أن أتخذها زوجة، وأن أرحل بها إلى فرنسا حين قضاء مهمتي فأطلعتها على شيء من سري، وأسفاه، إنها حين علمت بذلك نهضت من جنبي مصفرة الوجه مطرقة الرأس، وقالت: الوداع الوداع، إني أحبك فلا أستحل إفشاء سرك، ثم إني أحب قومي فلا أستحل أن أبقى بينهم عارفة بأمر يسوءهم، ولذلك لا ينبغي لي أن أعيش فالوداع، ثم طعنت فؤادها بخنجر فسقطت ميتة وإني لا أنساها ما دمت حيّاً، ذلك من تأثير هذا الدين الكريم، إنه دين المحامد والفضائل، ولو أنه وجد رجالاً يعلمونه الناس حق العلم، ويفسرونه تمام التفسير؛ لكان المسلمون أرقى العالمين وأسبقهم في كل الميادين، ولكن وُجدَ بينهم - ويا للأسف - شيوخ يحرفون كلمه، ويمسخون جماله ويدخلون إليه ما ليس منه، وإني تمكنت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والإسكندرية ومكة فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين، وبأن لا ينزعوا إلى ثورة، وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس، ومنهم من أفتى بأن فرنسا دولة إسلامية أكثر من الدولة العثمانية، وكل ذلك لم يكلفني غير بعض الآنية من الذهب، مثل هؤلاء الشيوخ الذين يحسبون هذا الدين ملكاً لهم لا ينبغي لغيرهم شرحه وتفسيره، مثل هؤلاء الشيوخ الذين يقاومون المصلحين، ويعدون كل تأويل غير تأويلهم كفرًا وإلحادًا، مثل هؤلاء الشيوخ هم علة تأخر الإسلام والمسلمين، سمعت في الجزائر وتونس أن الشيخ محمد عبده المصري يفسر القرآن تفسيرًا منطبقًا على العلم والمدنية والإنسانية، فوجدت كثيرًا من الشيوخ الجامدين يرون في ذلك بدعة، ويقولون: ما أتى بمثل هذا أحد من الأولين، فكأنهم يرون هذا الدين متاعًا لا يخص غير الرازي والجمل والسيوطي وغيرهم من المفسرين السابقين ولا يخص سواهم من العلماء المجتهدين، إنه إذا منَّ الله على الإسلام بشيوخ عقلاء مثل الشيخ محمد عبده وغيره من المصلحين، كان خير دين أخرج للناس، وكان المسلمون أرقى العالمين<sup>98</sup>

المحور الأول: العلوم ومناهجها في الحضارة الإسلامية

أولاً: تعريف العلم وبيان مكانته في الإسلام

أ/ معنى العلم في اللغة والاصطلاح

1- معنى العلم في اللغة

2- معنى العلم في الاصطلاح

ب/ عناية القرآن والسنة بالعلم والتعلم

**ثانياً: حكم تعلم العلم وفضله**

أ/ حكم العلم

ب/ فضل العلم

ثالثاً: أقسام العلم وأنواع العلوم

أ/ أقسام العلم عند العلماء

ب/ أقسام العلم عند المتكلمين المغاربة [ابن تومرت]

أولاً: تعريف العلم وبيان مكانته في الإسلام

أ/ معنى العلم في اللغة والاصطلاح

1- معنى العلم في اللغة: العلم (عَلِمَ، عَلِمًا وَعَلْمٌ هو نفسه)<sup>99</sup>، والعلم بكسر العين المهملة وسكون اللام له عدة معان في اللغة: فيعرف العلم بنقيضه فيقال: (العلم نقيض الجهل)<sup>100</sup>، وهذا تعريف قاصر عن الوصول إلى جوهر المعنى ويؤدي بنا إلى عكس القضية عندما نعرف الجهل بأنه (نقيض العلم)<sup>101</sup>، وهذا يدخلنا في حلقة مفرغة فلا نحن عرفنا العلم ولا نحن عرفنا الجهل.

كما يعرف العلم بمرادفاته المختلفة: منها المعرفة: فيقال (عَلِمْتُ الشَّيْءَ أَعْلَمُهُ عَلِمًا: عَرَفْتَهُ)<sup>102</sup>، وحسب صاحب القاموس (عَلِمَهُ كَسَمِعَهُ علماً بالكسر: عَرَفَهُ)<sup>103</sup>، كما يطلق بمعنى الشعور (عَلِمَ بالشَّيْءِ: شَعَرَ، يقال ما عَلِمْتُ بخبر قدومه: أي ما شَعَرْتُ)<sup>104</sup>، ويطلق العلم كذلك بمعنى الإتيان فيقال: (عَلِمَ الأمرُ وتَعَلَّمَ: أتقنه)<sup>105</sup>، ويأتي كذلك بمعنى الخبرة، فيقال: (عَلِمَ الرجل: خَبِرَهُ)<sup>106</sup>.

99 - جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب المحيط، تح: يوسف خياط، دار لسان العرب بيروت لبنان، المجلد الثاني [ز-ف] مادة علم، ص 870

100 - المصدر نفسه، المجلد الثاني، نفس الصفحة.

101 - المصدر نفسه، المجلد الأول [أ-ز]، مادة جهل، ص 524

102 - المصدر نفسه، المجلد الثاني، مادة علم، ص 870

103 - الفيروز أبادي محمد الدين بن يعقوب الشيرازي: القاموس المحيط، ط 3، 1301هـ، المطبعة الميرية بولاق مصر، ج 4، مادة علم، ص 151

104 - ابن منظور: المصدر السابق، المجلد الثاني، مادة علم، ص 870-880

105 - المصدر نفسه، المجلد الثاني، مادة علم، ص 871

106 - المصدر نفسه، المجلد الثاني، نفس الصفحة.

أما التعليم فهو تفعيل للجدر (علم)، يقال (عَلَّمَهُ الْعِلْمَ تَعْلِيمًا، وَأَعْلَمَهُ إِيَّاهُ فَتَعَلَّمَهُ)<sup>107</sup>، ولهذا كان العلم والتعلم لازمان متلازمان في المعنى والجوهر، حتى أنّهما قد يستعملان كمترادفين كما رأينا من قبل في معنى الإتقان. ومما سبق عرضه نستنتج مدى الثراء اللغوي الذي يتميز به مصطلح العلم، حيث وجدناه قابلاً لمعاني عديدة؛ منها ما هو وجداني يتعلق بباطن الإنسان، كما هو الحال في معنى الشعور، ومنها ما يتعلق بالممارسة الحسية كما هو الحال في الإتقان والخبرة، أو الممارسة العقلية والمتمثلة في المعرفة، وربما كان هذا الثراء اللغوي هو أول مبرر لكثرة وتنوع التعاريف الاصطلاحية للعلم.

## 2- معنى العلم في الاصطلاح

إذا بحثنا عن معنى العلم عند مختلف علماء الإسلام وعلى اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، نجد أنّهم قد اختلفوا حول (تصور ماهية العلم المطلق هل هو ضروري يعسر تعريفه، أو نظري يعسر تعريفه، أو نظري غير عسير التعريف، والأول مذهب الإمام الرّازي<sup>108</sup> [544-604هـ/1149-1207م]، والثاني رأي إمام الحرمين<sup>109</sup> [419-478هـ/128-1085م] والغزالي<sup>110</sup> [450-505هـ/1058-1111م])<sup>111</sup> والثالث هو ما رجّحه حاجي خليفة، الذي جمع له خمسة عشر تعريفاً<sup>112</sup>، لم يحصل إجماعاً على أي واحد منها، فقد كان لكل عالم منهم معنى أو تعريفاً يتماشى والاتجاه الذي ينتمي إليه.

فمن الفقهاء الإمام مالك [93-179هـ/711-795م]<sup>113</sup> الذي عرّف العلم تعريفاً وجدانياً فقال بأنّه (نور يقذفه الله في القلب)<sup>114</sup>، وربما أخذ هذا المفهوم من أحاديث رواها في الموطأ، منها ما نسب إلى لقمان الحكيم في وصاياه لولده: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإنّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء»<sup>115</sup>.

107 - الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج4، مادة علم، ص151

108 - الرّازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري [544-604هـ/1149-1207م] أنظر ترجمته في التفسير الكبير، ج2، ص(ا-د)

109 - الحويني أبو المعلي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد [419-478هـ/128-1085م]، عبد الرحيم الأسنوي جمال الدين: طبقات الشافعية، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، ج1، ص197-198.

110 - الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الطوسي [450-505هـ/1058-1111م]: أنظر ترجمته في: مقدمة الجزء الأول من كتابه إحياء علوم الدين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1358هـ/1939م، ج1، ص3-5

111 - حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، 1402هـ/1982م، المجلد1، ص03

112 - المصدر نفسه، ص03 - 04

113 - الإمام مالك بن أنس-رضي الله عنه-[93-179هـ/711-795م]، أنظر: موطأ الإمام مالك، رواية يحيى موطأ الإمام مالك (رواية يحيى بن يحيى)، منشورات دار الكتب، الجزائر، بلا: تا، ص3-7، والقاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ودار مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، بلا: تا، المجلد الأول، ج1، ص110-129، وطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط، تح محمد بن تاويت الطنجي، بلا: تا، ج1، ص36-45، ومحمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي القاهرة، بلا: تا، المصدر السابق، ص366-373.

114 - محمد إسماعيل إبراهيم: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، ط2، بلا: تا، ص294

115 - مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك ( برواية يحيى بن يحيى الليثي)، منشورات دار الكتب الجزائر، بلا: تا، ص570

ومن المتكلمين عرفه المعتزلة<sup>116</sup> بقولهم: (هو الاعتقاد المقتضي سكون النفس، وربما قالوا: العلم يقتضي سكون النفس)<sup>117</sup>، وهذا طبعاً موافق تماماً لمذهبهم في عدم التفرقة بين العلم والإيمان.

أما من الأشاعرة<sup>118</sup> فقد عرف العلم شيخها أبو الحسن الأشعري<sup>119</sup> [324هـ/935م] بأنه (ما أوجب محله عالماً)<sup>120</sup>، وقال في موضع آخر (العلم ما يعلم به، وربما قال: ما يصير الذات به عالماً)<sup>121</sup>.

وإلى نفس المعنى يذهب تلامذته وعلى رأسهم الباقلاني<sup>122</sup> [403هـ/1013م] والجويني؛ حين يعرفان العلم على أنه (معرفة المعلوم على ما هو به)<sup>123</sup>، وحتى عندما يستبدل الغزالي مصطلح المعلوم بمصطلح (الشيء) في قوله: (العلم هو معرفة الشيء على ما هو به)<sup>124</sup>، فهو لا يخرج عن التعريف الأشعري العام للعلم والذي يتعلق بالمعرفة، غير أن الغزالي الذي لم يلتزم مذهبا بعينه نجد له تعريفاً آخر للعلم متقارباً مع تعريف الإمام مالك السابق الذكر فيقول بأنه (ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث)<sup>125</sup>، وهو نفس المعنى الذي تأثر به المهدي بن تومرت عندما حاول أن يعطي تعريفاً للعلم، حيث تعرض له في أكثر من موضع، بتعاريف متقاربة جداً؛ وجدنا أن الاختلاف بينها لفظياً فحسب، فعرف العلم من خلال التفرقة بينه وبين نقيضه وهو الجهل فقال: (العلم نور في القلب يتميز به الحقائق والخصائص، والجهل ظلام في القلب تلتبس به الحقائق والخصائص)<sup>126</sup>، ويقول في موضع آخر (أما معنى العلم وحقيقته فهو وضوح الحقائق في النفس)<sup>127</sup>.

وبتعبير قريب من هذا يقول الرّازي عند حديثه عن النفس الإنسانية: (وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي، وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى)<sup>128</sup>، ولتبين حقيقته أكثر، استدل بنصوص من الكتاب والسنة منها قوله تعالى: [بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ]<sup>129</sup>، وهي نفس الآية التي يستدل بها بعض المتكلمين في تحديد

116 - المعتزلة فرقة نشأت في العصر الأموي، وظهرت ظهوراً ما في العصر العباسي، وقيل أن أصل تسميتهم من فرقة إعتزلت الحسن بن علي ومعاوية -رضي الله عنهما- جميعاً، وقيل أن أصلهم من واصل بن عطاء لما اعتزل حلقة الحسن البصري شيخه، بعد اختلافه معه في مسألة مرتكب الكبيرة، محمد أبو زهرة: المصدر السابق، ص118.

117 - الرّازي: التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت، 1324هـ، ج1، ص275.

118 - الأشاعرة: نسبة إلى مؤسس مذهبهم الإعتقادي، وهم أصحاب وأتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي: طبقات الشافعية، ج1، ص47.

119 - الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل [260-324هـ/935-873م]، أنظر: عبد الرحيم الأسنوي: طبقات الشافعية، ج1، ص47.

120 - أبو المعالي عبد الملك الجويني: كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تح: أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ص33.

121 - الرّازي: التفسير الكبير، ج1، ص274.

122 - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني [403هـ/1013م] أنظر: إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، دار المعارف، القاهرة، سنة 1982م، ج2، ص51.

123 - الباقلاني: كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تح: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1407هـ/1987م، ص25، والجويني الإرشاد إلى قواطع الأدلة، ص35.

124 - الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، بلا: تا، ج1، ص29.

125 - المصدر نفسه، المكتبة البهائية، مطبعة الحلبي مصر، 1358هـ/1993م، ج1، ص08.

126 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص30.

127 - المصدر نفسه، ص42.

128 - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/1978م، ج5، ص419.

129 - سورة العنكبوت، الآية49.

محل العلم على أنه في القلب<sup>130</sup>، كما استدلل بقوله تعالى: [بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ]<sup>131</sup> لتبيين حقيقة الجهل على أنه (التباس الحقائق في النفس)<sup>132</sup>، وفي الآيتين يخبر تعالى عن وُضوح الحقائق في صدور العلماء، والتباسها على المكذبين بالبعث الجاهلين به وبما يتعلق به.

كما جمع بين العلم والهداية في موضع آخر لأنه كما يقول: (العلم نور من عند الله يهدي به من يشاء)<sup>133</sup>، بدليل قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا]<sup>134</sup>، وقوله كذلك: [وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا]<sup>135</sup>، وقد أكثر من التأكيد على هذه المعاني القرآنية، وإيراد ما يبينها ويشرحها أكثر من السنة النبوية المطهرة، منها قوله -صلى الله عليه وسلم- في دعائه المأثور «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي لساني نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا...»<sup>136</sup>، ولهذا كان يؤكد دائماً على أنّ (الظلمات هي الجهل والعلم هو النور)<sup>137</sup>، وهو في كل هذا يوافق تماماً ما ذهب إليه الإمام مالك، الذي عرّف العلم تعريفاً وجدانياً فقال بأنه (نور يقذفه الله في القلب)<sup>138</sup>.

أما الفلاسفة فقد عرفوه بتعاريف كثيرة جداً ومتنوعة؛ منهم إخوان الصفا الذين قالوا: (إنّ العلم هو تصور النفس رسوم المعلومات في ذاتها)<sup>139</sup>، كما نقلت عنهم مجموعة من التعاريف الفلسفية للعلم نذكر منها ما يلي: (العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع)<sup>140</sup>، و(العلم صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات)<sup>141</sup>، و(العلم عبارة عن إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول)<sup>142</sup> وغيرها كثير، ويفهم كذلك من الفيلسوف ابن رشد<sup>143</sup> [520-595هـ/1126-1198م] الذي عاش عصر الموحدين وفي بلاطهم، تعريفاً مقارناً للمتكلمين في قوله (والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه)<sup>144</sup>، ثم يفصل المقصود بالموجودات في موضع آخر فيقول (إن كان فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع)<sup>145</sup>.

130 - التازي: المصدر السابق، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/1978م، ج1، ص182

131 - سورة ق، الآية15.

132 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص42

133 - ابن تومرت: أعز ما يطلب ص273

134 - سورة النساء، الآية173-174

135 - سورة الشورى، الآية49

136 - أخرجه: الحاكم في المستدرک على الصحيحين، بهذه الصيغة، و من حديث ابن عباس أخرجه: البخاري في: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا اتبه بالليل، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، والنسائي، كتاب التطبيق، باب الدعاء في السجود، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في صلاة الليل، وأحمد، كتاب مسند بني هاشم، باب بداية مسند عبد الله بن العباس

137 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص274

138 - محمد إسماعيل إبراهيم: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، ط: 2، بلا: تا، ص294

139 - إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، دار بيروت للطباعة والنشر، 1403هـ/1983م، ص61-62

140 - الجرجاني علي بن محمد السيد الشريف: التعريفات، تح: عبد المنعم الحنفي، دار الرشد، القاهرة، ص176

141 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

142 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

143 - ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد [520-595هـ/1126-1198م]، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص554، وابن الأبار

التكملة، ج2، ص554، وابن سعيد: المغرب، ج1، ص104، ومحمد بن محمد مخلوف: شجرة النور، ص146.

144 - فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، تح: أبو عمران الشيخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص52

145 - المصدر نفسه، ص24.

فدل تعريفه للعلم من جهتين؛ من جهة البحث في الوجود ذاته، أو في دلالة هذا الموجود على خالقه، فيكون العلم عنده البحث في الوجود ودلالته؛ وهو موضوع الفلسفة - البحث في الوجود بما هو موجود-.

بينما يذهب الرّازي الفيلسوف المتكلم، وبعد أن يعرض لكل التعاريف التي وضعت للعلم؛ ويقوم بنقدها، ويُبين عجز أيّ واحد منها عن أن يكون محل اتفاق بين أهل العلم مع كثرتها، فيقول: (أنّ اختلاف النَّاس على تحديد معنى متفق عليه لأمرٍ ما يرجع لإحدى أمرين: إما لخفاء المطلوب؛ والعلم ليس من هذا القبيل، أو لبلوغه في الجلاء إلى حيث لا يوجد أعرف منه ليُجعل معرفاً له؛ والعجز عن تعريف العلم من هذا الباب)<sup>146</sup>، كما يقول.

إذا فحسب ما ذهب إليه الرّازي فإنّ العلم من المصطلحات البديهية التي لا تحتاج إلى تعريف، ويعلل مذهبه هذا بقوله: (كل أحد يعلم بالضرورة وجود نفسه، وأنّه يعلم أنّه ليس على السماء ولا في لجة البحر، والعلم الضروري بكونه عالماً بهذه الأشياء على اتصاف ذاته بهذه العلوم، والعالم بانتساب شيء إلى شيء عالم لا محالة بكلا الطرفين، فلما كان العلم الضروري بهذه المنسوبة حاصلًا كان العلم الضروري لماهية العلم حاصلًا، وإذا كان كذلك كان تعريفه ممتنعاً)<sup>147</sup>.

بعد أن عرضنا للمعاني اللغوية للعلم، ورأينا ثرائها وتنوعها، ثمّ عرضنا للتعاريف الاصطلاحية له؛ والتي كانت أكثر تنوعاً وأشدّ تبايناً بحسب مذاهب واتجاهات أصحابها؛ نخلص إلى النتيجة التي خلص إليها الرّازي، أولاً للأسباب التي قدمها وبرهن عليها، وثانياً أننا إذا حاولنا استخراج تعريفاً جامعاً من بين التعاريف السابقة؛ لما استطعنا أن نجعله محل اتفاق، بل كل ما يمكننا الوصول إليه هو إضافة تعريفاً جديداً إلى قائمة تعاريف العلم الكثيرة والمتنوعة، ونحن في غنى عن ذلك.

#### ب/ عناية القرآن والسنة بالعلم والتعلم :

لم تعرف البشرية ديناً مثل الإسلام عني بالعلم أبلغ العناية وأتمها: دعوة إليه وترغيباً فيه، وتعظيماً لقدره، وتنويهاً بأهله، وحثاً على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبياناً لأدابه، وتوضيحاً لآثاره، وترهيباً من القعود عنه، أو الاضرار عن أصحابه، أو المخالفة لهديته، أو الاضرار بأهله<sup>148</sup>.

إنّ المتصفح لكتاب الله من أول ما نزل إلى آخر ما نزل منه، لا يخفى عليه مدى العناية التي أولاها الباري عز وجل للعلم والتعلم وما يتعلق بهما، سواء باستعمال كلمة علم ومشتقاتها، أو باستعمال مرادفاتهما مثل: العقل، والفكر، والنظر، والبرهان، أو الحكمة، فكلمة "علم" وحدها نكرة ومعرفة ذكرت ثمانين مرة، أما مشتقاتها: يعلمون وعليم... الخ؛ فقد ذكرت مئات ومئات من المرات<sup>149</sup>، وكذلك الحال في باقي المصطلحات.

وأول ما نزل من القرآن قوله تعالى: \*اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ\*<sup>150</sup>، فكان أول خطاب إلهي وأول تكليف للبشر، كان تكليفاً بالقراءة (اقرأ)، وكأنّه تعالى قال: (اعلم أو تعلّم)، ولهذا كان طلب العلم؛ والذي لا يكون إلا بالتعلم أول تكليف من الله لعباده، وأول واجب على الإنسان في ملة الإسلام في بعض المذاهب<sup>151</sup>.

146 - الرّازي: التفسير الكبير، ج 1، ص 276

147 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

148 - يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 6، 1415هـ/1995م، ص 03

149 - محمد إسماعيل إبراهيم: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ص 71-72

150 - سورة العلق، الآيات من: I إلى 5

151 - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت: أعز ما يطلب،، تح: عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985م، ص 211

وقوله تعالى: \*فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ\*<sup>152</sup>، فمعناه أنه لما كان العلم بالله وتوحيده أسبق من الاستغفار الذي يكون من الخطأ؛ والخطأ يكون في القول والعمل بغير علم، فكان (العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعْتَبَرَانِ إِلَّا بِهِ، فهو متقدم عليهما لأنه مُصَحِّحٌ لِلْعَمَلِ)<sup>153</sup>، وفي الآية السابقة نفسها عناية بوسائل العلم والتعليم، وأولها طبعاً (القلم)، حين قال تعالى: \*عَلَّمَ بِالْقَلَمِ\*<sup>154</sup>، وهي ذات الوسيلة التي أقسم بها في قوله تعالى: \*ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ\*<sup>155</sup>.

وكما اعتنى القرآن بالعلم والتعلم ووسائلهما، كانت عنايته موجهة كذلك للقائمين عليهما وهم العلماء، ومما جاء في فضل العلماء ومكانتهم: قوله تعالى: \*إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ\*<sup>156</sup>، وقال كذلك: \*قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ\*<sup>157</sup>، وقال أيضاً: \*يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ\*<sup>158</sup>، وقيل في تفسير هذه الآية: (واعلم أن الله تعالى ذكر الدرجات لأربعة أصناف: للمؤمنين،... للمجاهدين،... للصلحين،... وللعلماء،... ثم فضّل العلماء على جميع الأصناف بدرجات، فوجب أن يكون العلماء أفضل الناس)<sup>159</sup>، فإذا كانت هذه مكانة العلم والعلماء في القرآن الكريم؛ فالسنة النبوية الشريفة قد سلكت كذلك نفس المنحى وأعطت للعلم والتعليم والقائمين بهم أعظم درجة وأكبر شرف، ولذلك (إذا طالعت كتب الحديث النبوي، وجدت في جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب؛ كتاباً حافلاً بموضوعه "العلم")<sup>160</sup>، فوجدنا أن الأحاديث الشريفة تجعل من « طلب العلم فريضة على كل مسلم»<sup>161</sup> ومسلمة، وتحث المسلمين كافة على السعي وراءه « من المهدي إلى اللحد»<sup>162</sup>، والرحيل في طلبه أينما وجد وحيشما كان، ثم تجعل العالم أفضل درجة عند الله من العابد وذلك لأن « العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»<sup>163</sup>.

ومن خلال هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نجد أنّها لم تطلب نوعاً محدداً من العلم، بل جعلت من (لفظ العلم مطلق وغير مقيد بعلم معين)<sup>164</sup>، وذلك لأنّ القرآن لم يستعمل لفظة العلم بالمعنى الذي نستعمله في مثل (قولنا "علم النحو"، "علم الفقه"... وما يقابل كلمة (scienc)، وإنما استعملها على ما يظهر بمعنى المعرفة بأوسع معانيها... وهو بهذا يطلق حتى على المعارف الدنيوية)<sup>165</sup>، وكذلك الحال في نصوص السنة النبوية الشريفة، لذلك لا يفرق الإسلام (بين علوم

152 - سورة محمد، الآية 20

153 - أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا: تا، ج 1، ص 186

154 - سورة العلق، الآية 4

155 - سورة القلم، الآية 1 و 2

156 - سورة فاطر، الآية 28

157 - سورة الزمر، الآية 10

158 - سورة المجادلة، الآية 11

159 - الرازي: التفسير الكبير، ج 1، ص 260

160 - يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ص 04

161 - أخرجه علاء الدين المتقي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج 10، ص 130، رقم الحديث 28651

162 - أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني: سنن ابن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بلا: تا، ج 1، ص 81

163 - المصدر نفسه، ج 1، ص 81

164 - محمد عبد الرحمن مرحبا: الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، تقديم: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 3، 1981م، ص 60

165 - أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 11، 1979م، ص 144



الدين وعلوم الدنيا فكلها علوم يدعو الإسلام إليها ويحث عليها<sup>166</sup>، اللهم إلا أن يكون علماً ضاراً غير نافع فهو محرماً في الإسلام، كتعلم السحر وتعليمه<sup>167</sup>.

### ثانياً: حكم تعلم العلم وفضله

أ/ **حكم طلب العلم:** لا يختلف العلماء في وجوب العلم بصفة عامة، فهو واجب عند الجميع<sup>168</sup>، وذلك استناداً إلى نصوص من الكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله تعالى: [وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ]<sup>169</sup>، وهذا على مذهب من قال بأن الآية في العلم وليس في الجهاد، أو من جمع بينهما باعتبار أن الخروج لطلب العلم كالخروج في الجهاد، لقوله -صلى الله عليه وسلم-: «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع<sup>170</sup>».

أما من السنة فقوله -صلى الله عليه وسلم-: «طلب العلم فريضة على كل مسلم<sup>171</sup>»، وفي هذا المجال قال: (إنّ الله تبارك وتعالى لما أوجب على عباده العلم وعظم من شأنه وحرمته وشرف قدره ومنزلته ووعد أهله الثواب الجزيل، والأجر العظيم، وجب على الإنسان الاعتناء به، حتى يعرف حقيقته)<sup>172</sup>.

فإذا كان طلب العلم بإطلاق فرض واجب على كل مسلم، فهل يجب عليه من هذا المنطلق طلب كل العلوم وتحصيلها؟ وأتى له ذلك؛ وهو الكائن الضعيف ذو القدرات المحدودة! في حين أنّ العلم لا يحده حد ولا يجمعه فرد، ومن هنا وقع الخلاف بين العلماء حول تعيين أولى العلوم بالتعلم، حيث جعل كل عالم منهم العلم الذي يختص به هو الأوجب، وحسب الغزالي [450-505هـ/1058-1111م] فقد (تفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، فقال المتكلمون: هو علم الكلام؛ إذ به يدرك التوحيد، ويعلم به ذات الله وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه؛ إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام... وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة؛ إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها...)<sup>173</sup>.

ولعل الحق في ذلك أن ينظر إلى الشرع ذاته وما طلبه من المكلفين، إذ (أنّه لا يفترض على كل مسلم ومسلمة طلب كل علم، وإنما يفترض طلب علم الحال كما يقال: أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال)<sup>174</sup>، وبشرح هذا المعنى (يفترض على المسلم طلب ما يقع له في حاله في أي حال كان، فإنّه لا بد له من الصلاة، فيفترض عليه علم ما يقع له في صلاته بقدر ما يؤدي به فرض الصلاة، ويجب عليه بقدر ما يؤدي به إقامة الواجب)<sup>175</sup>، وهو ذات المعنى الذي

166 - محمد عبد الرحمن مرجبا: الموجز، ص60

167 - ومثال ذلك تعلم السحر وتعليمه، راجع: محمد علي الصابوني: روائع البيان، تفسير آيات الأحكام من القرآن، مكتبة رحاب الجزائر، ط4،

1410هـ/1990م، ج1، ص63-88

168 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص235

169 - سورة التوبة، الآية 123

170 - أخرجه الترمذي في السنن، من حديث أنس بن مالك، كتاب العلم عن رسول الله، باب فضل طلب العلم، رقم 2571.

171 - أخرجه: علاء الدين المنقي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج10، ص130، رقم الحديث 28651، وابن ماجه من حديث أنس بن مالك، كتاب

المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم 220، وفيه زيادة (ووضع العلم عند غير أهله، كمقلد الخنازير الجوهر وللؤلؤة والذهب).

172 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص41

173 - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، ص14

174 - الزرنوجي برهان الدين: تعليم المتعلم في طريق التعلم، تح: صلاح محمود الخيمي، ونذير حمدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط2، 1407هـ/1987م،

ص29

175 - المصدر نفسه، ص30

أشار إليه عندما قال: (وفيه<sup>176</sup> وجوب السؤال عن ما يلزم من الدين، وفيه وجوب البيان والمباشرة في الفور، فإن قيل لم اقتصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- على هذه الأشياء في تعليم هذا الرجل وترك غيرها لم يبينها له؟ وهذا يدل أن ما عدا ما ذكره -صلى الله عليه وسلم- ليس بواجب، قيل يجوز أن يكون -صلى الله عليه وسلم- علم أنّ الرجل كان عالماً بما لم يبينه له؛ وأنته لم يجهل إلا ما بينه له)<sup>177</sup>، فكان العلم الواجب على كل مسلم هو العلم الذي لا يصح أداء الواجب إلاّ به، وذلك لأنّه (ما يتوصل به إلى إقامة الواجب يكون واجباً)<sup>178</sup>، والواجب هو ما تصح به العبادة وتسلم به العقيدة.

ولهذا لا يجعل ابن تومرت العلم أول الواجبات الشرعية، بل يُوجب قبله الإيمان والتوحيد، ويجعل العلم وسيلة لصحته، فلا تصح عبادة إلاّ بالإيمان؛ فكان وجوب العلم يحتل المرتبة الثالثة في سلسلة الواجبات الشرعية من هذه الناحية، يقول في جوابه على مسترشد يريد معرفة الواجبات وكيفية وجوبها: (سأل فقال: ما لذي يجب علي؟ فقيل له: عبادة رب العالمين، فقال: ما الدليل على ذلك؟ قيل له: قوله تبارك وتعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي]<sup>179</sup>، ثمّ يقال له ولا تصح العبادة إلاّ بالإيمان والإخلاص، ولا يصح الإيمان والإخلاص إلاّ بالعلم...)<sup>180</sup>.

فالعلم وسيلة وطريق؛ موصل إلى الإيمان والإخلاص؛ الذي لا يصح إلاّ به، ومن ثمّ كان العلم واجباً لكونه وسيلة لمعرفة المعبود، ومن ثمّ كان العلم طريقاً موصلاً لمعرفة الواجب، ولا يصح واجب العبادة إلاّ به لأنّه حسب القاعدة الأصولية (مالا يتوصل إلى الواجب إلاّ به فهو واجب)<sup>181</sup>، أو كما قال في موضع آخر: (إنّ الله تعالى لما أوجب علينا أحكام الشريعة؛ وجب علينا العلم بها)<sup>182</sup>.

فالعلم من هذه الناحية ليس واجباً لذاته؛ وإنما لكونه وسيلة لمعرفة الواجب؛ وشرطاً لصحة العبادة التي لا تصح إلاّ به، ومن جهة ثانية فإن العلم قسم من أقسام العبادة التي جعلها (ثلاثة أقسام: العلم بالله، والعلم بالرسول، والعلم بما جاءت به الرسل، فأول واجب منها على المكلف العلم بالله سبحانه، إذ لا تصح العبادة إلاّ بعد معرفة المعبود)<sup>183</sup>.

فوجوب العلم عنده من ناحيتين، من ناحية كونه شرطاً في صحة العبادة ووسيلة لمعرفة الواجب فيكون الواجب رقم ثلاثة، ومن ناحية أخرى فهو أول قسم من أقسام العبادة، فيكون من هذه الناحية أول واجب، باعتبار أن العلم قسم من أقسام العبادة، والتوحيد أول أقسام العلم وأول أقسام العبادة، فيحتل المرتبة الأولى فيها جميعاً، وبهذا كان أول العلم وجوباً هو علم التوحيد، وخاصة إذا تعلق الأمر بمعرفة المعبود لتوحيده وإفراده بالعبادة.

غير أنه لا يكتف في وجوب العلم بهذه المقدمات النظرية، بل يتبع وجوب العلم واجبات أخرى لا يتحصل الطالب على العلم من دونها، وهي كل ما يتوصل به إلى العلم (ولا يصح لك العلم إلاّ بالطلب، ولا يصح لك الطلب إلاّ

176 - حديث المساء في صلواته، عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل المسجد، فدخل رجل فضلي، فسلم على النبي -صلى الله عليه وسلم- فرد وقال: إرجع فصل فإنك لم تصل، فرجع يصلي كما صلى، ثمّ جاء فسلم على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إرجع فصل فإنك لم تصل ثلاثاً، فقال والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني... أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم: 715.

177 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 84

178 - الزرنوجي: تعليم المتعلم، ص 30

179 - سورة الأنبياء الآية 25

180 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 205

181 - المصدر نفسه، ص 206

182 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 41

183 - المصدر نفسه، ص 21

بالإرادة...)<sup>184</sup>، كما يوجب على الطالب للعلم أخذه من منابعه الصافية، وجوب الهجرة إلى العالم الذي يؤخذ منه العلم الصحيح (فما عذر من سمع بقيام المهدي في التخلف عنه؟ ولو كان ببلاد الصين والهند، حتى يلحق به ويلتجأ إليه، وينجو في سفينة من الغرق العام)<sup>185</sup>.

ب/ **فضل العلم** : إذا كان العلم أهم جزء من دعوة المهدي ورسالته، فلا بد من إظهار فضل ومكانة هذا العلم في حياة الناس وحتى في آخرتهم، ذلك أنه في إبراز فضل العلم إبرازاً لفضل دعوته ومكانتها وفائدتها، وقد اعتمد في إثبات فضل العلم على براهين، وهي كما يقول: (على ثلاثة أقسام: من الكتاب والمعاني والحس)<sup>186</sup>.

. **من الكتاب**: أما من نصوص الكتاب؛ فقد أورد عدة نصوص قرآنية في امتداح أهل العلم وفي الرفع من شأنهم، قال تعالى: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ]<sup>187</sup>، ثم قال في تفسير هذه الآية: (فبدأ بنفسه، وثنى بملائكته، وثالث بأولى العلم من عباده، فسواهم بنفسه وملائكته بواو التشريك تشريفاً وتعظيماً، فلا فضل أعظم من هذا، قال تبارك وتعالى: [شَهِدَ اللَّهُ] والشهادة لا تكون إلا بالعلم)<sup>188</sup>، ثم أورد من التصوص ما يدل على الزهد في الدنيا، وأتبع ذلك بنص يُرغب في شيء واحد منها؛ وهو طلب العلم [وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا]<sup>189</sup>، فإن الله عز وجل لم يأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم<sup>190</sup>، كما أورد قصة موسى مع الخضر -عليهما السلام- والتي تحث على تحمل الصعاب والمشاق في سبيل العلم، ثم كيف أنّ العلم يرفع شأن صاحبه أمام من هم أعلى منه درجة كما هو الحال مع الخضر حين: [قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا]<sup>191</sup>، قال قتادة: (لو اكتفى أحد من العلم لاكتفى موسى -عليه السلام- ولم يقل [هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ]...) <sup>192</sup>، كما أورد نصوصاً غيرها يمتدح أصحابها أنفسهم بعلمهم، من بينها ما جاء في قصة الهدهد مع سليمان -عليه السلام- [فَقَالَ أَحْطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ]<sup>193</sup>.

. **من المعاني**: وهنا يقارن بين وصف القرآن للدنيا ومتاعها بالزوال والفناء والهوان قال تعالى: [قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا]<sup>194</sup>؛ وبين تحافت الناس عليها وتنافسهم على متاعها؛ على الرغم من قلته وهوانه إذا ما قورن بقيمة العلم وخيره الكثير [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا]<sup>195</sup>، قال الرّازي في تفسيرهما: (إن الله تعالى ما أعطى من العلم إلا قليلاً... وسمى الدنيا بأسرها قليلاً... فما أسماء قليل لا يمكننا أن ندرك كميته، فما ظنك بما سماه كثيراً)<sup>196</sup>، ثم قال في معنى الحكمة<sup>197</sup>: (إن الله تعالى سمى العلم بالحكمة وأعظم أمر الحكمة)<sup>198</sup>، فإذا كان هذا

184 - المصدر نفسه، ص 205

185 - المصدر نفسه، ص 256

186 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 179

187 - سورة آل عمران، الآية 18

188 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 179

189 - سورة طه الآية 111

190 - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج 1، ص 115، والرّازي: التفسير الكبير، ج 1، ص 260

191 - سورة الكهف، الآية 65

192 - الرّازي: المصدر السابق، ج 1، ص 265

193 - سورة النمل، الآية 22

194 - سورة النساء، الآية 76

195 - سورة البقرة، الآية 269

196 - التفسير الكبير، ج 1، ص 260.

القليل الفاني يتنافس الناس والعقلاء فيه هذا التنافس؛ ويقتتلون عليه هذا القتال ويطلبونه هذا الطلب، فهذا المعنى الذي شرّفه الله وعظمه، وجعله خيراً كثيراً، أولى بالتنافس فيه وشدة الحرص عليه والطلب له، إذ فيه عز الدنيا والآخرة<sup>199</sup>.

. من الحس: وقد أعطى مثالا محسوسا من واقع الناس وحياتهم، ثم دَعَمه بدليل من القرآن فيقول: (فإنّ الصنائع كلها التي جعل الله فيها قوام النفوس والأديان، من بناء وحرارة وحياطة و... لو جهل الناس ذلك كله لاختل أمرهم ومعاشهم وانعدمت المنافع وهلك الجميع، ثم رأينا هذا العالم بالصنعة يكسب منها الخير، ويجلب بها منافع كثيرة، والجاهل بها لا يجلب منفعة... وضاع واحتاج واختل أمر عيشه ودينه، فلا يستوي من علم شيئا مع من جهله)<sup>200</sup>، قال تعالى: [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ]<sup>201</sup>، وقد فرق بين سبع نفر في كتابه: بين الخبيث والطيب، وفرق بين الأعمى والبصير، وفرق بين النور والظلمة، وفرق بين الجنة والنار، وبين الظل والحرور، وإذا تأملت وجدت كل ذلك مأخوذ من الفرق بين العالم والجاهل<sup>202</sup>، والمثال فيه حكم فقهي، بحيث (إذا كان الكلب معلماً، ثم صاد صيداً وجرحه وقتله، وأدركه الصائد ميتاً فهو حلال)<sup>203</sup>، فالكلب (أخس الأشياء لقدارته وسوء حالته؛ فإذا اتصف بعلم الاصطياد شرّفه الشرع وعظمه وجعل صيده حينئذ قوام الأجساد ومحترماً عن الفساد)<sup>204</sup>.

## ثانياً: نظرية المعرفة بين الفلاسفة والمتكلمين وأهل التصوف

إن مسألة طرق المعرفة؛ والقوى العارفة، من أكبر المشاكل التي واجهت الفكر الإنساني، وقد ظلت حولها المعارك الطاحنة بين المفكرين عبر العصور<sup>205</sup>، لذلك كانت لهم فيها انقسامات، ومذاهب وآراء واتجاهات مختلفة ومتنوعة

## أ/ طرق العلم وأدوات المعرفة عند فلاسفة اليونان

**1/ الاتجاه الأول:** وهو الاتجاه الذي يعتد بالحس وحده كطريق للعلم والمعرفة، ويمثله المذهب المادي البحث الذي (لا يؤمن البتة بما بعد الطبيعة، ويرى أن الإنسان دائر لا يخلد منه شيء، كانت المعرفة الحسية عنده كل شيء)<sup>206</sup>، وأن الوجود كله منحصر فيما وقعت عليه الحواس<sup>207</sup> فقط، فلا طريق عندهم للمعرفة إلاّ فيما يأتي الإنسان عن طريق (تلك الحواس وحدها؛ كما عند هيرقليطس<sup>208</sup> 209).

197 - جاء في القرآن الكريم ذكر الحكمة بمعنى العلم في عدة آيات منها قوله تعالى: \*وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ\* سورة البقرة الآية 129 وقوله: \*وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا\* سورة مريم، الآية 12 وقوله: \*وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ\* سورة لقمان، الآية 12، التازي: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

198 - التازي: التفسير الكبير، ج 1، ص 260

199 - ابن تومرت: أعزما يطلب، ص 180

200 - المصدر نفسه، ص 180-181

201 - سورة الزمر، الآية 9

202 - التازي: التفسير الكبير، ج 1، ص 260

203 - المصدر نفسه، ج 1، ص 361

204 - القرابي شهاب الدين أحمد بن إدريس: الذخيرة، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1994م، ج 1، ص 45

205 - محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بلا: تا، ص 208.

206 - المصدر نفسه، ص 220

207 - ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن خلدون [732-808هـ/1332-

1406م]: المقدمة، دار الفكر بيروت، ط 3، 1417هـ/1996م، ص 618

208 - هيرقليطس: من مفكري يونان الكبار الذين جمعوا بين حدة الملاحظة وعمق التفكير، ظهر بعد حكماء ايونيا الثلاثة في أفسس حوالي سنة 501ق.م.

أنظر: حنا الفاحوري وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1982م، ج 1، ص 46

209 - محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص 20

**2/الاتجاه الثاني:** وهو المذهب المناقض للأول، ولا يعتبر الحس طريقاً موصلاً للعلم والمعرفة، وتمثله بعض المدارس الفلسفية اليونانية القديمة التي (لم تعر الطبيعة أدنى اهتمام، وقد حاولت بناء صرح الفلسفة على الفكر المجرد؛ والبراهين المبنية على معطيات العقل النظري)<sup>210</sup> وبدرجة أقل أفلاطون<sup>211</sup> الذي جعل من المعرفة (أقرب إلى أن تكون تذكراً منها إلى أن تكون إدراكاً حسيماً)<sup>212</sup> وأن القوة العارفة هي (البصيرة كما يرى أفلاطون)<sup>213</sup>.

**3/الاتجاه الثالث:** وهو من أوائل المذاهب التي عدت طرق العلم والمعرفة، وذلك أن الآراء تنشأ متضاربة، ثم يأتي الرأي الوسط، لمحاولة الجمع بينها، وذلك قصد التوفيق، والذي توسط بين الاتجاه المادي الحسي، والاتجاه الروحي، فنشأ الاتجاه الثالث، فجعل أن للمعرفة أكثر من طريق، وهي: (العقل والحواس كما يرى أرسطو)<sup>214</sup>، حيث جعل (للمعرفة وسائل وأدوات أساسها الحس وتاجها العقل)<sup>215</sup>.

**ب/ طرق العلم وأدوات المعرفة عند فلاسفة المسلمين:** جعل فلاسفة المسلمين للعلم والمعرفة طرقاً متعددة، وأول من مثل هذا الاتجاه الفارابي<sup>216</sup> وابن سينا<sup>217</sup>، حيث جعل أول طرق العلم (ما يصل إلى الإنسان عن طريق أدوات الحس التي تنطبع من المحسات في الحواس ثم يفعل العقل فيها فعله من التخزين والموازنة والتوفيق والتجريد، وثانيها: ما يصل عن طريق الفكر البحث الذي لا تتدخل فيه الحواس أدنى تدخل، وثالثها: ما يأتي الإنسان عن طريق التنسك الذي يرتفع بصاحبه عن علائق الحس وغواشي المادة)<sup>218</sup>، وهي عند ابن الطفيل<sup>219</sup> الضرب الثالث، وتكون طريقة الوصول إليها بأن (يلازم الفكرة في ذلك الموجود، الواجب الوجود، ثم يقطع علائق المحسوسات، ويغمض عينيه، ويسد أذنيه، ويضرب جهده عن تتبع الخيال، ويروم بمبلغ طاقته أن لا يفكر في شيء سواه، ولا يشرك به أحداً، ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه،

210 - حنا الفاخوري: المصدر السابق، ج1، ص49

211 - أفلاطون: فيلسوف يوناني ولد في أثينا سنة: 427 ق.م، من أسرة عريقة في النسب حيث كان أبوه من كبار الحكماء في عصره، لازم سقراط 18 عاماً، فتح أكاديمية بأثينا عام 387 ق.م، من أشهر مؤلفاته الجمهورية، توفي سنة 348 ق.م، أنظر: حنا الفاخوري: المصدر نفسه، ص65-66، ومحمد عبد الرحمن مرجبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 1983، ص112

212 - حنا الفاخوري: المصدر نفسه، ص68

213 - محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص20

214 - أرسطو طاليس: ولد في استاجيرة سنة 384 ق.م من أسرة اشتهرت بالطب، التحق بالأكاديمية التي أسسها أفلاطون فتلمذ على يديه مدة 20 سنة، من أشهر مؤلفاته: كتاب ما بعد الطبيعة وكتاب السياسة، توفي سنة 322 ق.م، أنظر: مصطفى غالب: أرسطو، دار مكتبة الهلال بيروت، 1405 هـ/ 1985 م، ص15، وحنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص80-81، ومحمد مرجبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص151-155.

215 - محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص20

216 - الفارابي: هو أبو نصر محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، ولد بتركستان بآسيا الوسطى حوالي 259 هـ/ 872 م، رحل إلى بغداد طالباً للعلم ودرس بها علوم مختلفة على جهاذة العلماء، ومنها بقي ينتقل حتى استقر بالشام سنة 330 هـ/ 941 م، من أشهر مؤلفاته: المدينة الفاضلة، وتوفي سنة 339 هـ/ 950 م، أنظر:

كتاب الفارابي أبو نصر محمد بن أوزلغ بن طرخان: المدينة الفاضلة، منشورات الأنيس، موفم للنشر، 1987 م، مقدمة عبد الرحمن بوزيدة، ص7-8

217 - ابن سينا: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا، ولد سنة 370 هـ/ 980 م، ببوخارى من أبوين إسماعيليين (من الشيعة)، تبحر في مختلف العلوم وبخاصة منها اليونانية على يد كبار العلماء في عصره بمناطق مختلفة من البلاد الإسلامية، من أشهر مؤلفاته: الشفاء والنجاة، توفي سنة

428 هـ/ 1036 م، أنظر: مصطفى غالب: ابن سينا دار مكتبة الهلال، بيروت، 1405 هـ/ 1985 م، ص17-25

218 - محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص232

219 - أبو بكر بن الطفيل [494-579 هـ/ 1100-1193 م] أنظر ابن صاحب الصلاة: أبو مروان عبد الملك بن محمد [594 هـ/ 1198 م]: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تح: عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت، ط1، (1383 هـ/ 1964 م)، ص410، وعمر بن حمادي:

الفقهاء، في عصر المرابطين، رسالة ماجستير (شهادة التعمق في البحث)، تاريخ وسيط، جامعة تونس، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 1987 م، ص630

والاستحثاث فيها، فكان إذا اشتد في الاستدارة على نفسه غابت عنه جميع المحسوسات، وضعف الخيال وسائر القوى الجسمانية؛ التي تحتاج إلى الآلات الجسمانية، وقوى فعل ذاته - التي هي بريئة من الجسم - فكانت في بعض الأوقات فكرته قد تخلص عن الشغوب، ويشاهد بما الموجود الواجب الوجود...<sup>220</sup>، وعنده أن شيخه قد بلغها (وهذه المرتبة التي أشار إليها أبو بكر<sup>221</sup>، ينتهي إليها بطرق العلم النظري، والبحث الفكري، ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها)<sup>222</sup>.

والمعرفة التنسكية لها طريقتان، طريق ديني بمعنى طريق العبادة، وطريق فلسفي بمعنى عقلي، إذ فهي تنتج عن إتباع عقيدة دينية صادقة صادرة عن إيمان راسخ، أو عن معرفة فلسفية وصلت إلى الحق الأسمى<sup>223</sup>، فمن يتبع طريق العقيدة الدينية فهو المتصوف، ومن يتبع طريق الفلسفة العقلية فهو الفيلسوف، ويتجلى هذا الفارق بوضوح بين الغزالي [450-505هـ/1058-1111م]<sup>224</sup> وابن سينا [370-428هـ/980-1036م]، فهذا الأخير وبناءً على تجربة خاصة به في المعرفة العقلية الفلسفية (أراد أن يجتاز حدود العقل الذي وقف عند المعرفة المنطقية وإن كان قد نجح فيها نجاحاً باهراً وأن ينغمس بكل كيانه في بحار ذلك العرفان التنسكي الذي لا تتناول هامة المنطق إليه)<sup>225</sup>.

ولم يقف عند هذا الحد؛ بل تجرأ بعض الفلاسفة على الوحي الإلهي وكذا على مقام النبوة، فلم يجعلوه معجزة كما أراد الله عز وجل لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وجعلوا الوحي مجرد طريق من طرق العلم فقط، حيث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يتبع طريق الفضيلة والرياضة والتنسك (والتي تستطيع أن تكشف للنفس أسرار الكون، وبأن الإلهام الذي يخص الله به الأخيار من عباده هو أحد وسائل المعرفة البشرية وبأن النبوة مكتسبة يفوز بها كل من توفرت فيه شروطها)<sup>226</sup>، وينسب ذلك للفيلسوف أبو نصر الفارابي [259-339هـ/872-950م] وهو (ما صرح به من سوء معتقده في النبوة<sup>227</sup>، وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة، وتفضيله الفلسفة عليها)<sup>228</sup>، ويلزم على قولهم باكتسابها تجويز نبي بعد سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أو معه، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة<sup>229</sup>.

ولم يكتف الفلاسفة بذلك بل تطاولوا حتى ادعوا الوحي لأنفسهم، وبذلك صار لا فرق بين العقل والوحي، ومعنى ذلك أن الوحي الإلهي الذي جاء به النبي لا يكاد يختلف عن الوحي الفلسفي لذا الفيلسوف بحجة أنهما (يتفرعان عن أصل واحد هو العقل الفعال، والفرق بين الوحي النبوي والوحي الفلسفي؛ أن الفيلسوف يبحث في المعقولات المجردة دون الحس،

220 - رسالة حي بن يقضان، تح: عبد الملك السليماني وآخرون، الدراسات الأدبية، دار الفكر، ط3، 1970م، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل، ج3، ص 105

221 - هو الفيلسوف أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ [533هـ/1138م] القاضي عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض السبتي [476-544هـ/1083-1149م]: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ودار مكتبة الفكر طرابلس، بلا: تا، المجلد الثاني، ج4، ص827، وابن سعيد علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك [610-685هـ/1213-1286م]: المغرب في حلي المغرب، تح: شوقي ضيف، مصر، ط4، ص260، وعمر رضا كحالة: أدب المغاربة، ص61

222 - أبو بكر بن الطفيل: رسالة حي بن يقضان، ج3، ص87.

223 - محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص265

224 - الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الطوسي [450-505هـ/1058-1111م]: أنظر ترجمته في: مقدمة الجزء الأول من كتابه إحياء علوم الدين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1358هـ/1939م، ج1، ص3-5

225 - محمد غلاب: المصدر السابق، ص263

226 - المصدر نفسه، ص262.

227 - قال ابن خلدون في مدارك الأنبياء: ولا يلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تنزيله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك، المقدمة، ص609

228 - أبو بكر بن الطفيل: رسالة حي بن يقضان، ج3، ص93

229 - طه الدسوقي: نظرية النبوة في الإسلام، دار الهدى، السيدة زينب مصر، 1401هـ/1981م، ص07

لكن النبي يفضي على هذه المعقولات، لكن بالصورة المحاكية لها وبتشابيه ورموز إذا أخذت على ظاهرها ناقضت الحقائق العقلية<sup>230</sup>، وعلى هذا، وعند الموازنة بينهما، تكون النبوة المتسنية بالحس أدنى درجة من الفلسفة، فما كان منه إلا (تفضيله الفلسفة عليها)<sup>231</sup>، وبالتالي يصبح تأويل الوحي بما يوافق العقل جائزاً بل واجباً، ويصبح العقل (أصلاً؛ والنصوص الصحيحة الصريحة تعرض عليها فتارة يعمل بمضمونها وتارة تحرف عن مواضعه لتوافق العقول)<sup>232</sup>، والعودة إلى الفيلسوف في فهم ما أشكل من الوحي، كما أشار إلى ذلك ابن الطفيل في قصته الرمزية، التي قارن فيها بين الفيلسوف المتأمل بعقله، والعالم بالشرعية المتبع لوحي نبيه-صلى الله عليه وسلم-، (وعند ذلك، نظر إلى حي بن يقضان؛ بعين التعظيم والتوقير، وتحقق أنه عنده من أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالتزم خدمته والإقتداء به، والأخذ بإشاراته فيما تعارض عنده، من الأعمال الشرعية؛ التي كان تعلمها في ملته)<sup>233</sup>.

## ج/ طرق العلم وأدوات المعرفة عند أهل التصوف

ازداد الفلاسفة إعجاباً بأنفسهم إلى حد الغرور، فبعد إن ارتقوا بأنفسهم إلى مقام النبوة وتناولوا على مجتمعهم، لزم وضع حد لتهافتهم، وتولى هذه المهمة الإمام الغزالي [450- 505هـ/1058-1111م]، وقد سلك في البداية نفس منهجهم وكاد ينجر وراءهم، ومر بتجربة تخطب فيها بين مذاهب شتى<sup>234</sup> في طرق العلم، ووقف على جميعها، وانتهى إلى التشكيك في نتائجها فشكك في أول الأمر في المعرفة الحسية<sup>235</sup>، ثم شكك في المعرفة العقلية و(جعل الإدراك العقلي متولداً من الإدراك الحسي ومسنداً إليه)<sup>236</sup>، وجعل للعلم طريقين: كما قسم القوى المدركة على هذا الأساس إلى قسمين، قوى (مدركة من ظاهر، ومدركة من باطن)<sup>237</sup>، فكان الطريق الأول طريق حسي<sup>238</sup>؛ يحصل معرفة بظواهر الأشياء، وهو طريق الفلاسفة (وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء، وفيه ترسخ أقدامهم)<sup>239</sup>، وطريق غير حسي، وهو طريق الأولياء والأنبياء، لأنه يتم بوجود إلهي وكمال فطري<sup>240</sup>، وأعلن تهافت الفلاسفة، وذلك لأن معارفهم محصلة من طريق الحس، للتقليل من شأنها ووضع حد لغرورهم، وبالتالي النيل من مقامهم والحط من مكانتهم العلمية، وتقديم فئة أخرى بدلهم سالكا في ذلك نفس خطواتهم، ولجأ مضطراً إلى أهل التصوف والكشف، وأعلن أن الطريق الموصل إلى العلم اليقيني الذي لا مجال فيه للشك والارتياب؛ هو طريق الإلهام الذي ينقسم عنده (إلى قسمين: إلهام يدري

230 - أحمد فؤاد كامل: مقارنة بين فلاسفة المغرب والمشرق العربيين، منشورات جمعية ميزات الفكر، دار كريمة ديس للطباعة تطوان المغرب، ط1، 1961م، ص50

231 - أبو بكر بن الطفيل: رسالة حي بن يقضان، ج3، ص93.

232 - ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي [852هـ/1448م]: فتح الباري، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، (ج 13/ 352)، والقاضي عماد الدين أبو حسن عبد

الجبار بن أحمد بن عبد الجبار: متشابه القرآن، تح: عدنان محمد زرزور، دار التراث، القاهرة، بلاتا، ص38-41

233 - رسالة حي بن يقضان، ج3، ص125.

234 - مما قال فيه الفلاسفة (وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهي بحسب مخاطبته للجمهور، تربط في موضع، وتحل في آخر، وتكفر بأشياء ثم تتحلها) ابن الطفيل: المصدر السابق، ج3، ص93، بينما ينقل عن ابن العربي أنه قال فيه: شيخنا أبو حامد، دخل في بطون الفلاسفة، ثم لما أراد أن يخرج منهم؛ فما قدر ابن تيمية: درأ تعارض العقل والنقل، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، ج1، ص8، وقال فيه ابن رشد الحفيد (أنه لم يلزم مذهباً من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشاعرة أشعري ومع الصوفية صوفي ومع الفلاسفة فيلسوف، وحتى أنه كما قيل: يوم يمان إذا لقيت ذا يمن:: وإن لقيت معدياً فعدنان) فصل المقال، ص51.

235 - مصطفى غالب: الغزالي، دار مكتبة الهلال بيروت، 1405هـ/1976م، ص44-45

236 - بن عاشور محمد الفاضل: المحاضرات المغربية، تح: عبد الكريم محمد، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، ص169

237 - أنظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الأوقاف بيروت، ط4، 1980، ص41

238 - المصدر نفسه، ص41-44

239 - ابن خلدون: المقدمة، ص122-123

240 - حمانه بخاري: التعليم عند الغزالي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987م، ص73

الإنسان كيفية حصوله ومصدره، ويقف على السبب الذي منه استفاد منه ذلك العلم؛ ويسمى إلهاماً وكشفاً ونفثاً في الروح، وهذا النوع من الإلهام يختص به الأولياء والأصفياء، أما النوع الثاني من الإلهام فهو الوحي الذي هو خاصية الأنبياء وحدهم<sup>241</sup>، فاختار الغزالي إذن طريق الكشف<sup>242</sup> كأفضل طريق للعلم والمعرفة، وكما جعل ابن سينا من الفلاسفة في درجة تقارب درجة النبوة؛ بالمثل جعل الغزالي من المتصوفة في أعلى الدرجات حيث صنفهم بعد الأنبياء مباشرة<sup>243</sup>، ولا بد للمتعلم أن يكون له منهم شيخاً يكون معلماً له (ولا بد للسالك من شيخ يؤدبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى، إن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله، وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- أن يكون عالماً، ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة، وإني أبين لك بعض علاماته، على سبيل الإجمال، حتى لا يدعي كل أحد أنه مرشد، فنقول: من يعرض عن حب الدنيا؛ وحب الجاه، وكان تابعا لشخص بصير، تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين-صلى الله عليه وسلم-<sup>244</sup>، ولا يمكن ذلك إلا أن يكون ذلك الشيخ من أهل الزهد والتصوف.

وبهذا فُتح المجال أمام بعض المتصوفة الذين بدؤوا بالكشف وانتهى بهم الأمر فيما بعد، حتى تناولوا على الوحي وصرحوا بما عجز على التصريح به الكثير من فرق أهل الأهواء والبدع، فذهب (قوم من الزنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هدم الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية يختص بها العامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة لهم إلى تلك النصوص...فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية؛ فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات)<sup>245</sup>، هذا في مجال الشريعة، أما في مجال العقيدة فإن اُخرافهم كان أخطر وأشد، حيث انتهى ببعضهم إلى القول بالحلل والإتحاد<sup>246</sup> أو بوحدة الوجود وعلى رأسهم ابن عربي<sup>247</sup> [638هـ/1240م].

241 - المصدر نفسه، ص73

242 - أنظر شروط حصول الكشف الخمسة عند الغزالي: وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور [أحدها لنقصان صورته... والثاني لخبثه...، والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها... والرابع الحجاب مرسل بين المرآة والصورة، والخامس الجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة... فكذاك القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيه حقيقة الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عنها لهذه الأسباب الخمسة...، معارج القدس، ص93-95

243 - وهذا طبعاً في انتظار ابن رشد الذي أعاد الفلاسفة إلى أعلى الدرجات الاجتماعية والعلمية (إذا كان العدل في أفضل أصناف الموجودات أن يعرفها على كنهها؛ من كان معدا لمعرفتها على كنهها وهم أفضل الناس)، فصل المقال، ص52، ويصفهم بقوله: برهانيون فلاسفة أدلة صحيحة وعقول ذكية، انظر: أحمد فؤاد كامل: مقارنة بين فلاسفة المغرب والمشرق، ص52.

244 - الغزالي: رسالة أبيها الولد، تح: عبد الملك السليمان وآخرون: الدراسات الأدبية، دار الفكر، ط3، 1970م، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل، ج3، ص150-

245 - القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي القاهرة، 1387هـ/1967م، ج11، ص40

246 - أصل القول به عند طوائف من الشيعة يسمون الغلاة، تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية الأئمة: إما على أنهم بشر على اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاته البشرية وهو قول النصارى في عيسى-صلوات الله عليه- ولقد حرق علي بالنار من ذهب فيه إلى ذلك، ابن خلدون المقدمة، ص248، وذكر طائفة باسمه يقولون بالحلل وجاء الإسماعيلية منه يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلل، المصدر نفسه، ص402، ثم انتقل هذا القول محاكاة إلى مذهب من الصوفية المتكلمين في الكشف وفي ما وراء الحس وظهر من الكثير منهم القول على الإطلاق بالحلل والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم، المصدر نفسه، ص402، وأهل التصوف الذين وضعوا دعائم نظرية الاتحاد والفناء التي تعد غاية الوصول إلى الله، وأظهروا هذا القول "إما بمعنى الحلل فيها، أو بمعنى أنه هو عينها وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً" في القرن الثالث الهجري المحاسبي [242هـ/856م]، وذي النون المصري [240هـ/854م]، والبسطامي [260هـ/873م]، المصدر نفسه، ص218. ثم يأتي بعدهم الخلاج [309هـ/921م] ليقول بحلول اللاهوت في الناسوت، وقوله أنا الحق، مذكور إبراهيم: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، دار المعارف، القاهرة، سنة 1982م، ج2، ص69، ثم يأتي القرن السادس والسابع "بالسهوردي المقتول [586هـ/1190م]، ومحي الدين بن عربي [638هـ/1240م]، ثم ابن سبعين [668هـ/1269م] القائل بالوحدة المطلقة"، حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية، ج1، ص310، وللمزيد انظر المصدر نفسه، ص309-311، وابن خلدون: المقدمة، ص619، وفليب حتي وآخرون: تاريخ العرب مطول، دار الكشاف، ط4، 1965م، ج2، ص524.



ومن جهة ثالثة ارتكب أهل التصوف جناية في حق التعليم بما فيهم الغزالي، سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد (حينما زعموا لهم أن المعرفة لا تكتسب بالجهد والبحث والملاحظة والتجارب؛ بل هي نوع من المعجزات)<sup>248</sup>. ولكي يوضع حد لمثل هذه الانحرافات و المزالق الخطيرة؛ لابد من وضع منهج علمي وتعليمي قائماً على قواعد سليمة وطرق صحيحة للعلم والمعرفة، ثم قادراً على إخراج وإقصاء الطرق غير العلمية الموصلة إلى تلك النتائج الوخيمة، وبذلك فقط يتم وضع حد للتلاعب بعقول الأجيال لأغراض أحياناً تربوية حسنة، وأحياناً أخرى سياسية خبيثة، وهذا عين ما قصد إليه ابن تومرت، عندما وضع منهج علمي وتعليمي متميز، كان بمثابة ثورة على كل المناهج القائمة في عصره، وخاصة المنهج الكشفي، فكان الغزالي جزء مقصود، ولم تشفع له أستاذه له، لأن الخطأ جسيم وخطير، فأعلن أن للعلم ثلاث<sup>5</sup> طرق فقط لا أثر فيها لما ادعاه الغزالي .

### د/ طرق العلم وأدوات المعرفة عند المتكلمين

جعلوا للعلم والمعرفة طرقاً ثلاثة<sup>249</sup>، كلها صحيحة وموصلة في مجالها إلى علم يقيني غير ظني، لا يجوز إنقاص واحد منها ولا الزيادة عليها، ولا حتى الخلط بينها، وكانت له مناظرة في هذه المسألة مع فقهاء المرابطين بأغمات (فكان مما سألهم عنه-رضه- أن قال لهم: طرق العلم هل هي منحصرة أم لا؟ فأجاب مقدمهم... أن قال: نعم منحصرة في الكتاب والسنة والمعاني التي نبهت عليها، فقال الإمام المهدي: إنما سئلت عن طرق العلم هل هي منحصرة أم لا، فلم تذكر إلا واحداً منها، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال، فلم يفهم عنه وعجز عن الجواب...)<sup>250</sup>.

وهذا ما يؤكد الصراع حول طرق العلم والمعرفة، وقد تجلّى لنا هنا في هذه المناظرة؛ مع فريق من علماء المرابطين لا يعرفون ولا يعترفون إلا بطريق واحد للعلم والمعرفة وهو الوحي وما نبه عليه فقط، فانحصر بالتالي عندهم فيما أتى من هذا الطريق فقط، بمعنى الكتاب وهو القرآن والسنة، والمعاني التي نبهت عليها بمعنى الفقه أو القياس أو ما أخذ من طريقه . فحصر العلم في طريق واحد قصور كبير عما سواه؛ فأخذ يبين طرق العلم وحصرتها في طرق ثلاث<sup>251</sup> هي: (الحس والعقل والسمع)<sup>252</sup>، والدليل الذي اعتمده لتحديد هذه الطرق الثلاثة، هو قوله تعالى: \* وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا \*<sup>253</sup>، ويعلق بقوله: (فهذه قسمة منحصرة فيما يسأل عنه مما شاهده ببصره، أو سمعه بسمعه، أو أدركه بعقله، فكل علم داخل فيها وعنهما يكون)<sup>254</sup>.

247 - من قوله في ذلك: العبدُ ربُّ والرَّبُّ عبد يا ليت شعري من المكلف

إن قلتُ عبد فذاك حق وإن قلتُ ربُّ أني يكلف

الفتوحات المكية، تح: عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1392هـ/1972م، السفر الأول، ص42

248 - ابن رشد: مناهج الأدلة (مقدمة محمود قاسم)، ص8

249 - تم التركيز هنا على فترة ما بعد الغزالي، لأن مرحلته جمعت بين ثلاث اتجاهات، الاتجاه العقلي الفلسفي، والاتجاه الباطني الصوفي، والاتجاه الكلامي.

250 - ابن تومرت محمد المهدي بن عبد الله [524هـ/1129م]: أعز ما يطلب، تح: عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص32

251 - طرق العلم عند الرّازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري [544-604هـ/1149-1207م] ثلاثة وهي: الحس والخبر والنظر، التفسير

الكبير، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/1978م ج7، ص311

252 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص30

253 - سورة الإسراء، الآية36

254 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص181

وهذا الدليل النقلي استدل به كذلك الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، ويضيف البعض دليلاً آخر، هو قوله تعالى: \*أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ\*<sup>255</sup>.

أما ابن خلدون فجعل كل معرفة يكتسبها الإنسان حاصلة من تلك الطرق ومحصلة بتلك الوسائل واستدل بنص آخر (ما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر، قال تعالى: في الامتنان علينا<sup>256</sup>: \* وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ\*<sup>257</sup>).

فهذه التصوص وغيرها (تبين أنّ في الإنسان قوى مدركة للأشياء، وأنّ من هذه القوى السمع والبصر والقلب أي العقل)<sup>258</sup>، وهذا ما أكدّه بقوله: (فالبصر هو ما يدرك به جميع المبصرات، والسمع هو ما يسمع به جميع المسموعات من الشرع وغيره، والفؤاد راجع إلى القلب، قال تعالى: \* لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ \*<sup>259</sup> والفؤاد والقلب واحد)<sup>260</sup>.

وهكذا يحصر للعلم ثلاث طرق وهي وسائل التعلم منحت لكل الناس بالتساوي، ويجب على الكل استخدامها واستغلالها وتشغيلها لتحصيل العلم والمعرفة، وهكذا يجعل التعليم مبني على مجهود فردي مطلوب من كل شخص تقديم الأسباب واستغلال هذه الوسائل، وكان العلم والمعرفة (الإنسانية تعتمد على هذه القوى، أي أنّها كسبية)<sup>261</sup> هي الأخرى أو مكتسبة وليست معجزة محتكرة لفئة خاصة من الناس متصوفة أو غيرهم.

وهذه الوسائل والآلات هي دائماً نفسها التي يستخدمها الإنسان في تحصيل معارفه، وتنتقل معه عبر أحواله وباختلاف أطواره (وسر هذا أن تعلم أن النفس الإنسانية هي تنشأ بالبدن ومداركه، فإذا فارقت البدن بنوم أو موت أو صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية فقد صحبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح فيدرك بما في ذلك الطور أي شيء شاء منها أرفع من إدراكها وهي في الجسد)<sup>262</sup>، وإنما تزداد قوة الإدراك بما أو تضعف بحسب حال الإنسان عند الانتقال من طور إلى طور، فعند الوحي مثلاً يزيد الله في قوة السمع عند النبي فيسمع الوحي هو وحده دون سواه، ويزيد في قوة بصره فيرى الملك ولا يراه غيره<sup>263</sup>.

وهكذا جاء ابن تومرت بنظرية متكاملة وسط بين نظرية الفلاسفة والمتكلمين، اعترف فيها بالحس طريقاً للمعرفة صحيحاً عكس شيخه الغزالي، كما اعترف بالعقل كذلك طريقاً صحيحاً في مجاله ولم ينتقص من قدره كما فعل الغزالي، ولم يطلق له العنان ليكون حاكماً على نصوص الشريعة كما فعل الفلاسفة، وأقصى تماماً طريق المتصوفة الذي اعتمده الغزالي من الطرق الصحيحة للمعرفة، وفصل كل طريق كما يلي:

255 - سورة الحج، الآية 44

256 - المقدمة، ص 599

257 - سورة السجدة، الآية 08

258 - محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي عند ابن سينا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، بلاتنا، ص 21

259 - سورة ق، الآية 37

260 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 181

261 - محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي، ص 21

262 - ابن خلدون: المقدمة، ص 610

263 - المصدر نفسه، ص 123-124

ا/طريق الحس: ينطلق في تحديد المعرفة الحسية من الموجودات، فيقسم الجسومات من ناحية الإحساس إلى قسمين (جماد وحيوان: فالحيوان هو الدارك الحساس، والجماد هو الذي لا يتأتى منه الإحساس والإدراك)<sup>264</sup>، ويجعل الإدراك الحسي ثلاثة أقسام (متصل ومنفصل وما يجده الانسان في نفسه)<sup>265</sup>، وقريبا من هذا يجعل ابن حزم المعرفة الحسية أول ما يحصل للطفل منذ التمييز ويعطي نفس الأمثلة التي نقلها ابن تومرت (فأول ما يحدث لها من التمييز الذي ينفرد به الناطق من الحيوان، فهم ما أدركت بحواسها الخمس)<sup>266</sup>.

**1- الحس المتصل:** ويقسمه إلى قسمين ( فالمتصل كالملموسات والمذوقات)<sup>267</sup>، ويمثل ابن حزم للملموسات (الحر والبارد والدافئ)<sup>268</sup>، والمذوقات (كالفارق بين الحلو والحامض والمر والمالح)<sup>269</sup>، وهو عند الغزالي ما أمكن للانسان التعرف عليه عند استعماله الحس سواء كان باللمس (كمعرفة كون النار محرقة، فيؤدي به ذلك إلى اجتنابها والفرار من ألمها، وهي أول حس يخلق للحيوان، فلو كان لا يحس أصلا فهو ليس بحيوان، أو عن طريق حاسة الذوق، حيث بواسطتها يتعرف غلباغذاء الملائم والموافق له من غير الموافق والمخالف)<sup>270</sup>، ويحدد إخوان الصفا هذه الأخيرة مدركات بالذات (والتي للذائقة الطعوم)<sup>271</sup>.

**2- الحس المنفصل:** ويقسمه إلى ثلاثة أقسام: (المسموعات والأشخاص والألوان)<sup>272</sup>، أما ابن حزم فيعطي أمثلة مفصلة للمسموعات (كالفارق بين الصوت الحاد والغليظ والرقيق والمطرب والمفرع، أما المدركات من الألوان فمثل لها جملة دون تفصيل (كعلمنا أن الاحمر مخالف للأخضر وللأصفر وللأبيض)<sup>273</sup>، قال الغزالي في مدركات السمع والبصر (خلق السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا)<sup>274</sup>، فمهمة السمع النفوذ إلى ما وراء الحواجز واختراقها، أما البصر فاستعماله (لتدرك ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها)<sup>275</sup>.

أما إخوان الصفا فقد جعلوا (لكل حاسة مدركات بالذات ومدركات بالعرض، وهي لا تخطئه في مدركاتها التي لها بالذات، وإنما يدخل عليها الخطأ والزلل في المدركات التي لها بالعرض، مثال ذلك البصر، فإنه له من المدركات بالذات الأنوار والظلمة، ولا تخطئها في جميع الأوقات، أما الألوان والأشكال والأوضاع والأبعاد والحركات، فهي تدركها بتوسط النور، وهنا يدخل عليها الخطأ والزلل)<sup>276</sup>.

264 - المصدر نفسه، ص 197

265 - أعز ما يطلب، ص 181

266 - الفصل في الملل، ج 1، ص 39

267 - أعز ما يطلب، ص 181

268 - الفصل في الملل، ص 39

269 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

270 - إحياء علوم الدين، ج 4، ص 109

271 - رسائل إخوان الصفا، ج 1، ص 40

272 - أعز ما يطلب، ص 181

273 - الفصل في الملل، ج 1، ص 39

274 - إحياء علوم الدين، ج 4، ص 114

275 - المصدر نفسه، ج 4، ص 110

276 - رسائل إخوان الصفا، 410

أما ابن رشد فيجعل للإدراك البصري شروطاً أخرى فيقول: (وأما إدراك البصر فظاهر من أمره أن من شرطه أن يكون المرئي منه في جهة، ولا في جهة فقط بل في جهة مخصوصة، ولذلك ليس تتأتى الرؤية بأي وضع اتفق أن يكون البصر من المرئي، بل بأوضاع محدودة وشروط محدودة أيضاً، وهي على ثلاثة أشياء: حضور الضوء، والجسم الشفاف المتوسط بين البصر والمبصر، وكون المبصر ذا ألوان ضرورية)<sup>277</sup>، فلو كان وجود الشيء فقط كفيلاً برؤيته (لوجب أن تبصر الأصوات وسائر المحسوسات الخمس، فكان يكون البصر والسمع وسائر الحواس الخمس حاسة واحدة، وهذه كلها خلاف ما يعقل)<sup>278</sup>، ولذلك يقسم المعلومات من جهة البصر إلى قسمين (ما شاهدناه وما لم نشاهده، فالذي شاهدناه على ضربين ما أدركناه عند الاتصال وما أدركناه عند الانفصال، وما لم نشاهده على ضربين ما أدركناه بالعقل وما أدركناه بالسمع)<sup>279</sup>، كما جعل الأشخاص أو الأجسام والألوان من مدركات البصر، إلا أنه لم ينتبه إلى الشرط الثالث الذي وضعه الفلاسفة، ولا يمكن أن يتحقق إدراك للبصر إلا به وهو حضور الضوء.

أما السمع عند ابن تومرت فهو الطريق الذي يدرك به جميع العلوم التي هي من صنف المسموعات (من الشرع وغيره)<sup>280</sup>، سواء كان وحياً كما هو الحال عند النبي صلى الله عليه وسلم (والسمع على ضربين وحي ولغة)<sup>281</sup>، أو نقلاً عنه أو عن غيره كما هو الحال عند غير الأنبياء (والسمع على ثلاثة أقسام الكتاب والسنة والإجماع)<sup>282</sup> ويقصد بها العلوم النقلية كلها.

**3- الحس الداخلي:** وقد عبر عنه بقوله (والذي يجده في نفسه كالجوع والعطش والفرح وغير ذلك)<sup>283</sup>، فهذه أمور يجدها الإنسان في نفسه ويحس بها إحساساً داخلياً.

ومن هذا المبدأ ينطلق ابن تومرت فيقسم العلم من ناحية طرق إدراكه إلى ثلاثة أقسام: (الحس والعقل والسمع)<sup>284</sup>، بمعنى العلوم الحسية التي جعلها ثلاثة أقسام (ما أدركناه عند الاتصال، وما أدركناه عند الانفصال)<sup>285</sup> وما يجده الإنسان في نفسه<sup>286</sup>.

**11/ طريق العقل:** يجعل ابن تومرت للعقل مكانة خاصة إذ هو مناط التكليف، إذ يسقط التكليف على فاقده لذلك جعل من شروطه: أن يخرج الإنسان (من حيز الطفولية)<sup>287</sup> فالطفل عنده (كالبهيمة لا تكليف عليه، إذ لا تمييز عنده)<sup>288</sup>، ومن لا يميز فهو (خلو من العلم بالجملة معدود من الحيوانات لاحق بمبدئه في التكوين)<sup>289</sup>، وحتى وإن خرج من حيز الطفولية

277 -الكشف عن مناهج الأدلة، ص154

278 -المصدر نفسه، نفس الصفحة

279 - أعز ما يطلب، ص158

280 -المصدر نفسه، ص181

281 -المصدر نفسه، ص158

282 -المصدر نفسه، نفس الصفحة

283 - أعز ما يطلب، ص181

284 - أعز ما يطلب، ص30

285 - المصدر نفسه، ص158

286 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

287 -المصدر نفسه، ص54

288 -المصدر نفسه، ص54

289 -ابن خلدون: المقدمة، ص599

وكان فاقدا لعقله كالمجنون<sup>290</sup> فلا تكليف عليه، ويجدد للعقل طريقين للأدراك لا ثالث لهما، فالعلوم العقلية جعلها قسمين: (ما أدركناه بدلالات الأفعال، وما أدركناه بالقياس)<sup>291</sup>، أما ابن حزم فلم يذكر القياس ضمن طرق العقل أو النقل تماشياً مع تطرف مذهبه في نفي القياس، ولذلك قال في طرق العلم الحسية والعقلية (فهذه إدراكات الحواس لحسوساتها... والإدراك السادس علمها بالبديهيات، فمن ذلك علمها بأن الجزء أقل من الكل)<sup>292</sup>، متحاشياً ذكر القياس الذي ينكر على فقهاء المذاهب استعماله كمصدر للأحكام

**1- الطريق الأول:** ما يدركه العقل بدلالات الأفعال (كدلالة الفعل على الفاعل)<sup>293</sup>، ويبين هذا الطريق انطلافاً من الضرورة العقلية وهي (ما لا يتطرق إليه الشك ولا يمكن للعقل دفعه)<sup>294</sup>، وهذه الضرورة عبر عنها ابن حزم (بالبديهيات، فمن ذلك علمه بأن الجزء أقل من الكل)<sup>295</sup>، وهي تحصل للطفل منذ التمييز فيعلم (بأنه لا يكون فعل إلا من فاعل، فإنه إذا رأى شيئاً قال من عمل هذا؟ ولا يقنع البتة بأنه انعمل بدون عامل)<sup>296</sup>، ويقسم ابن تومرت هذه الضرورة إلى ثلاثة أقسام: الواجب والجائز والمستحيل، (فالواجب ما لا بد من كونه كافتقار الفعل إلى الفاعل، والجائز ما يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون كنزول المطر، والمستحيل ما لا يمكن كونه كالجمع بين الضدين، وهذه الضرورة مستقلة في نفوس العقلاء بأجمعهم، استقر في نفوسهم أن الفعل لا بد له من فاعل، وأن الفاعل ليس في وجوده شك)<sup>297</sup>، ويدرج ضمن القسم الأول من العلوم العقلية العلوم الإلهية كلها (فثبت بهذا أن الباري سبحانه يعلم بضرورة العقل)<sup>298</sup>، وهذه الضرورة عنده عن طريقها تتم معرفة العلوم الإلهية كلها، فلا طريق صحيح عنده لهذه المعرفة إلا طريق الضرورة، بينما يحدد ابن رشد لإدراك العلوم الإلهية أكثر من طريق فيقول: (طرق التصديق الموجودة للناس ثلاثاً: البرهانية والجدلية والخطابية)<sup>299</sup>، ويقصد بالبرهانية طريق الفلاسفة، والجدلية طريق المتكلمين، والخطابية هي الأدلة الشرعية، فقد يسر الشارع في نظره طريق معرفته على الناس، ولما كان الطريقين الأخيرين هم الأيسر على الناس (باعتبار أن الشرع جاء لكل الناس ولما كان الناس متفاوتين درجات، فجعل لدرجتين من منهم أدلة خاصة بهم: بأن ضرب لهم أمثالها وأشباهها، ودعاهم إلى التصديق بتلك الأمثال، إذ كانت تلك الأمثال يمكن أن يقع التصديق بها بالأدلة المشتركة للجميع، أعني الجدلية والخطابية، وهذا هو السبب في أن انقسم الشرع إلى ظاهر وباطن فإن الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تنجلي إلا لأهل البرهان)<sup>300</sup>.

290 - أعز ما يطلب، ص 54

291 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

292 - الفصل في الملل، ج 1، ص 40

293 - أعز ما يطلب، ص 158

294 - المصدر نفسه، ص 214

295 - الفصل في الملل، ج 1، ص 40

296 - المصدر نفسه، ج 1، ص 40-41

297 - "أعز ما يطلب"، ص 214

298 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

299 - فصل المقال، ص 53-55

300 - المصدر نفسه، ص 47

**2- الطريق الثاني:** للإدراك العقلي هو القياس (فالمدرك بالعقل على ضربين ما أدركناه بدلالات الأفعال، وما أدركناه

بالقياس)<sup>301</sup> والذي يقسمه إلى قسمين (أما القياس فهو على ضربين عقلي وشرعي)<sup>302</sup>

**-القياس العقلي:** وقسم القياس العقلي إلى قسمين (قياس الحقيقة وقياس الجنس)<sup>303</sup> وضرب أمثلة لقياس الحقيقة

(كالجوهرين ما وجب لأحدهما وجب للآخر، وكالبياضين، والسوادين، مما تساوت مما تساوت معانيهما وحدودهما)<sup>304</sup>، كما

أعطى أمثلة لقياس الجنس (فكتساوي جميع المخلوقات في الحدوث، وهذه المساواة في الأحكام العامة دون الخاصة، ومعنى

ذلك أن مساواتهما في الحدوث، وهو عام فيها وإن اختلفت خواصها)<sup>305</sup>

**-القياس الشرعي:** وهو القسم الثاني من أقسام القياس ويجعله أيضا على قسمين (تنبيه بالأدنى على الأعلى، وتنبيه على

المعنى الجامع بين الغيرين المتساويين في المعنى)<sup>306</sup>

**\*/التنبيه بالأدنى على الأعلى:** ومثاله قوله تعالى: \* **فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٌّ\***<sup>307</sup> فمعلوم على القطع أن غير التأنيف مما هو

أكثر من التأنيف محرم ممنوع، وبيان ذلك من اللفظ بلا شك<sup>308</sup>، وبهذا المثال يتضح الفارق بين مذهب ابن تومرت الذي

يحد من التوسع في استعمال القياس ويضبطه في إطار فهم النص، وابن حزم الذي ينفي استعمال القياس في مجال الشريعة

نحائياً؛ وهذا ما أوقعه في تهافت واضح في هذا النص بالذات، حين جعل الحرمة مقصورة على ما نصّ عليه اللفظ فقط، أي

" تحريم التأنيف " ومنع تعدي الحكم إلى المعنى<sup>309</sup> الذي يشير إليه النص وهو تحريم ما هو أكثر من التأنيف؛ تماشياً مع مذهبه

في الوقوف على النص.

وهذا الذي يعده ابن تومرت قياساً، لا يعتبره الأصوليون كذلك، بل يدرجونه في باب أصول الفقه في المباحث

اللغوية، وفي باب دلالات الألفاظ، ولا يعد عندهم قياساً<sup>310</sup>.

**\*/التنبيه على المعنى الجامع بين الغيرين:** ومثاله قوله -صلى الله عليه وسلم-: «لا يمنع أحدكم فضل الماء»<sup>311</sup> فعلم

بذلك وجوب المواساة وإحياء النفوس، فيدخل فيه كل ما يحيي النفس من غير الماء إذ المعنى مطرد فيما نبه عليه<sup>312</sup>، وضرب

مثالا آخر لتأكيد هذا المعنى، فقال: وكذلك جوابه-صلى الله عليه وسلم- "وقد سئل عن شراب البتع: (كل مسكر

301 - "أعز ما يطلب"، ص158

302 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

303 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

304 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

305 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

306 - المصدر نفسه، ص165

307 - الإسراء، الآية23

308 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص165

309 - الخلي، ج1، ص212

310 - عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت، ص305

311 - أخرجه: مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، في كتاب المساقات والمزارعة، باب: تحريم بيع فضل الماء الذي يكون بالفلاة، رقم الحديث1566

312 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص171

حرام<sup>313</sup>، فالسكر متماثل، فكل ما وجد فيه السكر؛ فهو داخل في اللفظ؛ وإن اختلفت أجناسه وصوره، لكن المعنى الذي هو السكر هو الجامع لها<sup>314</sup>.

وقد يظن البعض أنه قد أثبت قياس العلة كما هو عند الأصوليين، وكما استعمله أصحاب المذاهب، وقالوا باستعماله عند الصحابة، الذين كانوا (يقيسون الأشباه بالأشباه منهما، وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك، فإن كثيراً من الوقعات بعده -صلوات الله وسلامه عليه- لم ترد في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه، بشروط في ذلك الإلحاق تصحيح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثليين، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيها واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة<sup>315</sup>).

ولا شك أن هذا القياس هو الذي انتقده ابن تومرت لما بين الفرق بينه وبين قياس المعنى عنده، فهذا الأخير قد ثبت نص الشرع عليه، وظهرت أمارته فيه؛ جعلها الشارع دليل على حكمه، وقد كان ذلك موضوع مناظرة بين فقهاء المرابطين والمهدي بأغمات، حيث قالوا له (جعلت الظن أصلاً للضلال وجل أحكام الشريعة تثبت بالظن، منها الشهادة فإنها مظنونة والحكم بها ثابت)<sup>316</sup>، أما قياسهم، المسمى قياس العلة: فهو (أخذ الحكم من معقول النص، بأن كان للنص علة مصرح بها أو مستنبطة، ومحل الحادثة مما يوجد فيه تلك العلة؛ والنص لا يشمل<sup>317</sup>، فيكون الحكم الصادر على الواقعة الجديدة مصدره العقل، الذي أصدر حكمه على هذه الواقعة بعينها وألحقها بشبهها، بناءً على ما غلب على ظن العقل، والعقل ليس له في الحاضر والإباحة مجال<sup>318</sup>).

وانتهى الأمر بأصحاب هذا القياس حتى (قاسوا بين المتناقضات، كالمحرمات على المباحات، ومزقوا الشرع كل ممزق)<sup>319</sup> بل وأبعد من ذلك، حتى صاروا يقدمون القياس على النص (وعارضوا الأخبار وتركوها جانباً، وهذا لا يجوز بوجه)<sup>320</sup>، وجعلوا الشرع أقوالاً متضاربة في المسألة الواحدة أقوالاً شتى، في المذهب الواحد فما بالك بين مختلف المذاهب، ويرد على ذلك تحت عنوان الفصل الثالث عشر في استحالة ثبوت أصل واحد لفرعين متناقضين، ويقرر بقوله (أن هذه القاعدة كثيرة الالتباس، وعنهما زل كثير من الناس، وبالجهد بها وعدم التحقق لها قالوا: كل مجتهد مصيب<sup>321</sup>، فجعلوا هذه المقالة سُلماً لهدم الشريعة وإسناد الأحكام غير مسندها، وعكس الحقائق عن موضوعها، وصيروا الحلال حراماً، والحرام

<sup>313</sup> - عن أبي بردة عن أبيه قال بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- جده أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن، فقال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطوعا، فقال أبو موسى يا نبي الله، إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر، وشراب من العسل البتع، فقال: كل مسكر حرام، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم 3998

<sup>314</sup> - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 171

<sup>315</sup> - المصدر نفسه، ص 165

<sup>316</sup> - ابن خلدون: المقدمة، ص 574

<sup>317</sup> - أعز ما يطلب، ص 32، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 174-175، غير أنه يجعلها في مراكش.

<sup>318</sup> - محمد الحضري بك: تاريخ التشريع الإسلامي، ص 114.

<sup>319</sup> - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 66

<sup>320</sup> - المصدر نفسه، ص 166

<sup>321</sup> - بمعنى أنه لا يأثم بالخطأ؛ بل يؤجر على الخطأ، بعد توفية الإجتهد حقه، ولم يقل إنه مصيب للحق، الشوكاني محمد بن علي: القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، تح: عبد الرحمن عبد الخالق، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط 4، 1413هـ/1992م، ص 87

حلالاً، وجعلوا الشرع متناقضاً، واتبعوا قولة كل قائل؛ وإن تناقضت، واعتقدوا الحق في المجتهدين وإن تعارضت<sup>322</sup>، فكل قياس يجب أن يكون متضمناً في الخبر ومتفرعاً عنه، وإلا كان باطلاً، و(لا يثبت حكم في الشريعة بالظن، ولا يثبت إلا بالعلم، والتماس المعاني بالتخمين من غير تحقيق ولا التفات إلى الأصول التي تبني عليها؛ يزل عن منهاج الحق)<sup>323</sup>.

بإبطاله لقياس العلة، يكون مخالفاً للجمهور وشاذاً عنهم، بل وأكثر من ذلك أن في نقده (علة الفقهية بهذا الشكل ينسف القياس الفقهي تماماً)<sup>324</sup>، وفي هذه النقطة بالذات يلتقي ابن تومرت مع شيخ الظاهرية ابن حزم، ويوافق في رفض قياس العلة وإبطاله، ولذلك اعتبره البعض تلميذاً لابن حزم؛ وباعتنا لظاهره ومحققاً لمشروعه الأيديولوجي الذي اشتكى من عدم وجود (سلطة الدولة التي تقره إلى دعوة للتغيير والتجديد)<sup>325</sup> مثله مثل باقي المذاهب.

لكن الجرم بظاهرة ابن تومرت يعد تسرعاً، لأنه يفتقد إلى الأدلة الحقيقية التي لا تترك مجالاً للشك، فاعتماد وجود اتفاق في جزئية أو أكثر بين العالمين كدليل؛ غير كاف للجرم يمثل هذا الحكم، وذلك أنه على الرغم من اتفاقه مع ابن حزم على رفض قياس العلة وإبطاله من جهة، نجد من جهة أخرى يثبت أنواع من القياس - التي سبق ذكرها - ينكرها ابن حزم أصلاً، بل ينفي كل أنواع القياس (ولا يحل القول بالقياس في الدين، ولا بالرأي، لأن أمر الله عند التنازع بالرد إلى كتابه وإلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - قد صح، فمن رد إلى قياس وإلى تعليل يدعيه أو إلى رأي، فقد خالف أمر الله تعالى المتعلق بالإيمان، ورد إلى غير من أمر الله تعالى بالرد إليه)<sup>326</sup>، ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود (عناصر كثيرة وأساسية من ظاهرة ابن حزم)<sup>327</sup> في مذهب ابن تومرت .

/// دور العقل في مجال الشرع: لكنه من جهة أخرى حدد دور العقل في مجال الشريعة في رسالة من كتابه<sup>328</sup> عنوانها: الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل، وقد اختار مذهباً وسطاً بين من حكّموا العقل بإطلاق، وبين من طعنوا فيه أصلاً، فيقول في حق هؤلاء وهؤلاء: إنّ الذين ذهبوا إلى (أن الشريعة لا حكمة، فيها وأنها ليست على سنن العقل جارية، طعنوا منهم في الدين وجهلاً بحكمة الله تعالى، وذهب آخرون إلى الاستنباط من عقولهم وتحسين الأشياء على ما أدّتهم إليه، وجعلوا أقيسة في الشرع، عدولاً منهم عن الحق، وذلك كله فاسد)<sup>329</sup>.

فهو لا يطلق العنان للعقل حتى يكون حاكماً على الشرع أو مشرعاً، ولا ينفيه نهائياً بل يعتبره مساعداً للحكمة الشرعية، وهو ما ذهب إليه الغزالي في قوله: (اعلم أنّ العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل)<sup>330</sup>، وهو ما قرره ابن تيمية في كتابه "موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول"<sup>331</sup>.

322- المصدر نفسه، ص51.

323- ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص166

324- ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة، ص43.

325- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

326- المحلى، ج1، ص100

327- ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة، ص44

328- "أعز ما يطلب"، ص157.

329- المصدر نفسه، نفس الصفحة

330- معارج القدس، ص57

331- ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن محمد الحراني الحنبلي: درأ تعارض العقل (5 أجزاء)، أنظر: ج1، ص15، وقد سبقه الفلاسفة المغاربة لذلك ومنها محاولة ابن رشد للتوفيق بين الشريعة والفلسفة في كتاب فضل المقال (نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا



فالعقل في مذهبه؛ لا يتنافى مع الشرع ولا يناقضه، ذلك أنه (لو جاز ورود الشرع بنقيض العقل للزم منه انقلاب الحقائق، بأن ينقلب الواجب جائزاً والجائز مستحيلًا... حتى ينتهي الأمر إلى اجتماع الضدين، وهو محال؛ فما أدت إليه محال)<sup>332</sup>، والأمر الذي يؤكد عليه ويشده، هو أن العقل لا يثبت الشرع، وهو عين ما دافع عنه، وكافح من أجله ابن حزم، وعمل على إثباته كأصل من أصول أهل الظاهر، لا يقوم لهم مذهب إلا به: (ليس من الشرائع العملية شيء يوجب العقل، ولا شيء يمنع منه العقل، بل كلها من باب الممكن)<sup>333</sup> فيمكن دور العقل في الشرع عند ابن تومرت؛ في تحديد المعنى الذي نبه عليه الشرع بغير زيادة ولا نقصان، لذلك اعتبر القياس الشرعي أمانة إذا ظهرت ثبت عندها الحكم؛ وليس أصلاً للحكم الشرعي، وهو على قسمين لا ثالث لهم.

1111/طريق الشرع أو النقل (السمع): يسمه ابن تومرت السمع ويجعله طريق مستقل بذاته، يختلف عن الحس والعقل، بينما صنفه الفلاسفة ضمن طرق العقل، وجعله الغزالي والمتصوفة من طرق الكشف، فرجع ابن تومرت من شأن الوحي وجعله طريقاً مستقلاً وأطلق عليه اسم الحاسة التي يدرك بها وسماه السمع، لأن السمع هو وسيلة إدراكه الوحيدة، جاء في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول<sup>334</sup>، فمهما اختلفت حالات الوحي وهيأته فكلها لا تقع إلا بطريق واحد ومكان واحد هو حاسة السمع، وإن كان أكمله السمع مع الرؤية كما في الحالة الثانية (فعندما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها، وهو إدراك البصر)<sup>335</sup>، ويؤكد ابن تومرت على سلامة حاسة السمع إلى حد أنه يسقط التكليف على الفاقدين لهذه الحاسة مثلها مثل الفاقدين للعقل، فالفاقد لحاسة السمع عنده يتعذر عليه إدراك الخطاب وفهمه وهو شرط في وجوب التكليف، وشروط تأتي الفعل وفهم الخطاب من المكلف هي (أن يخرج من حيز الطفولية، وأن يكون عاقلاً، وأن تبلغه الدعوة، وأن يدرك الخطاب، وأن يفهم لغة الرسول، وأن يكون التكليف بالمبين لا بالجممل)<sup>336</sup>، فالأصم قد يبلغ سن التكليف ولا يكون مجنوناً وتصله الدعوة، لكنه فاقد لوسيلة إدراك الخطاب (فلا تكليف عليه)<sup>337</sup>.

يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له، ص34، ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن، وما أعظم هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول، بل نقول أنه ما من منطوق به في الشرع يخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر الشرع وتصفحت سائر أجزائه، وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل أو يقارب أن يشهد، ولهذا أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل، واختلفوا في المؤول من غير المؤول، المصدر نفسه، ص35 ثم قال (الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة) ص64

332- عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ص180-181

333- ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد [456/1064م]: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة، شركة مكتبات عكاظ، المملكة العربية السعودية، ط1، 1402هـ/1982م. ج1، ص92

334- البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، شركة الشهاب الجزائر، بلا: تا، ج1، ص3-2

335- ابن خلدون: المقدمة، ص124

336- ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص54

337- المصدر نفسه، نفس الصفحة

ومن جهة ثانية قسم السمع بمعنى الوحي إلى قسمين (والسمع على ضربين: وحي ولغة)<sup>338</sup>، ولكنه لا يكون وحيًا إلا في حالة سماع النبي وحده، أما سماع البشر من غير الأنبياء سواء كان الأخذ من الأنبياء مباشرة أو كانت بينه وبين النبي واسطة فهو يقصد به النقل، ولذلك قسم السمع من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام (الكتاب والسنة والإجماع)<sup>339</sup>، فالإجماع ليس بوحي لكنه ينقل بالسمع فأطلق عليه التسمية فقط، بالإضافة إلى اللغة التي تدرك بنفس الحاسة، لا فرق بينها وبين الوحي إلا من حيث الجهة التي تسمع منها، ولا مجال فيها للعقل على الإطلاق، وهي عنده من العلوم التي لا سبيل لأحد إليها إلا بتعلم وتلقين، ولذلك طبق عليها كل قواعد السمع الذي له حالتان لا ثالث لهما إما يكون السماع (مباشرة أو بواسطة، فأن كان مباشرة أفادت العلم القطعي لأن العرب هم الذين وضعوها واصطلحوا عليها)<sup>340</sup>، وإن تدخل الوسطة بين القائل والمستمع فقسم الناقل للغة في هذه الحالة إلى قسمين مثله مثل ناقل الوحي (فالوحي على ضربين تواتر وآحاد، واللغة على ضربين تواتر وآحاد)<sup>341</sup>، ويطبق عليها شروط النقل المتواتر مثلها مثل الوحي (فما كان تواترًا أفاد العلم القطعي، وما كان آحادًا أفاد العمل بالأصل المقطوع به)<sup>342</sup>

338 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

339 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص30

340 - المصدر نفسه، ص158

341 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

342 - المصدر نفسه، ص46

## رابعاً: أقسام العلم وأنواع العلوم

### أ/ أقسام العلم عند العلماء

حتى وإن كان العلم معنأً واحداً في ذاته؛ إلا أنه كانت حوله اختلافات كثيرة؛ منها ما تعلق بتعريفه، ومنها ما يتعلق بأقسامه وأنواعه، حيث وجدنا للعلماء والمفكرين مذاهب واتجاهات شتى؛ في تقسيم العلم وتحديد أنواعه، فقسم من جهة إلى قديم ومحدث، ومن جهة متعلقه إلى تصور وتصديق ويقسم ابن رشد الشرع إلى قسمين (مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم والعمل الحق، والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه، وبخاصة الشريعة منها، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي، والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء، والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملي، وهذه تنقسم إلى قسمين، أحدهما أفعال ظاهرة بدينية، والعلم بهذه هو الذي يسمى الفقه، والقسم الثاني أفعال نفسانية مثل الشكر والصبر وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الشرع أو نهي عنها والعلم بهذه هو الذي يسمى الزهد وعلوم الآخرة... ولما كان مقصود الشرع تعليم العلم الحق والعمل الحق، وكان التعليم صنفين: تصورا وتصديقا، وكانت طرق التصديق الموجودة للناس ثلاثاً: البرهانية والجدلية والخطابية، وطرق التصورات اثنتان: إما الشيء نفسه وإما مثاله... وكان مقصود الشارع الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتبنيه الخواص، كانت أكثر الطرق المصرح بها في الشريعة هي الطرق المشتركة للأكثر في وقوع التصور والتصديق، وهذه الطرق في الشريعة على أربعة أصناف... أن تكون في التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية... وهذا الصنف من الأقاويل الشرعية ليس له تأويل والجاحد له أو المتأول كافر، والصنف الثاني: أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة يقينية، وتكون النتائج مثالات للأمور التي قصد إنتاجها، وهذا يتطرق إليه التأويل أعني لنتائجه، والثالث عكس هذا، وهو أن تكون النتائج هي الأمور التي قصد إنتاجها نفسها، وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية، وهذا أيضا لا يتطرق إليه تأويل أعني لنتائجه، وقد يتطرق لمقدماته، والرابع مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية، وتكون نتائجه مقالات لما قصد إنتاجه، وهذه فرض الخواص فيها التأويل، وفرض الجمهور إمرارها على ظاهرها)<sup>343</sup>.

ومن جهة أخرى يقسم الشرع إلى قسمين باعتبار أن الشرع جاء لكل الناس ولما كان الناس متفاوتين درجات، فجعل لدرجتين من منهم أدلة خاصة بهم: بأن ضرب لهم أمثالها وأشباهها، ودعاهم إلى التصديق بتلك الأمثال، إذ كانت تلك الأمثال يمكن أن يقع التصديق بها بالأدلة المشتركة للجميع، أعني الجدلية والخطابية، وهذا هو السبب في أن انقسم الشرع إلى ظاهر وباطن فإن الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تنجلي إلا لأهل البرهان<sup>344</sup>.

وهو تقسيم مأخوذ من الواقع، لما وصلت إليه العلوم الشرعية في عصره، فقد جعل من الشرع قسمين سبقه علماء الشريعة لذلك وهو قسم العقائد الذي عبر عنه بالعلم الحق، وقسم الأحكام الشرعية، وعبر عنه بالعمل الحق، ثم قسمه من جهة أخرى إلى قسمين متقابلين وفق وجهة نظر الغزالي، ظاهر (المعاملات الشرعية الظاهرة أعمال الجوارح)، وباطن (وهي أعمال القلوب وأحوالها وما ينتج عنها من أخلاق)، وسبقه الفلاسفة المسلمين والمتكلمين كذلك إلى تقسيمها من جهة أخرى إلى تصورات وتصديقات، بينما أضاف تقسيمه الخاص الذي انفرد به لنفسه، وهو جعله طرق التصديق ثلاثاً:

343 - فصل المقال، ص 53-55

344 - المصدر نفسه، ص 47

البرهانية والجدلية والخطابية، وطرق التصورات اثنتان: إما الشيء نفسه وإما مثاله، ثم يقرر على ضوءه ما يجب تركه على ما هو عليه من أمور الشرع من دون التعرض لتأويله وهي الأصول، وما يجب إمراره على ظاهره لفئة العامة فقط، وما يجب تأويله لفئة الخاصة فقط وهو المؤول، فيكون الشرع على ثلاثة ما لا يتطرق إليه تأويل، وما يترك على ظاهره دون تأويل لفئة فقط، وما يؤول لفئة كذلك فقط.

ويقسم من جهة طرقة إلى ثلاثة أقسام: قسم يثبت في النفس، وقسم يدرك بالحس، وقسم يعلم بالقياس، كما ينقسم من جهة اختلاف موضوعاته إلى أقسام كثيرة؛ يسمى بعضها علوماً وبعضها صنائع<sup>345</sup>....

هذه الاختلافات ناتجة طبعاً من تأثر كل عالم أو مفكر، بالتخصص الذي ينتمي إليه، فنجد الفلاسفة عند تقسيمهم للعلم، يرفعون من شأن العلوم العقلية ويجعلونها أصلاً لغيرها من العلوم، حتى أنهم يدمجون العلوم الشرعية ضمنها، فابن سينا والفارابي مثلاً يجعلان العلوم على ثلاثة أقسام هي: (الإلهي والرياضي والطبيعي)<sup>346</sup> وكلها يجمعها اسم جامع هو الفلسفة، أما إخوان الصفا؛ وبخلاف سابقهم، فيجعلون العلوم أجناس ثلاثة (الرياضية، ومنها الشرعية الوضعية، والعلوم الفلسفية)<sup>347</sup>، وجعلوا للعلوم الشرعية جنس مستقل بنفسه من مختلف أجناس العلوم .

أما علماء الدين: من متكلمين وفقهاء ومحدثين... الخ؛ فلهم تقسيماتهم الخاصة بهم، ويطول المجال لعرض كل آرائهم فاكثفينا بأقربهم لابن تومرت وهو الغزالي، والذي قسم العلوم من حيث مصدرها إلى (شرعية وغير شرعية)<sup>348</sup>... فأما العلوم التي ليست شرعية، فتنقسم إلى: ما هو محمود ومذموم ومباح)<sup>349</sup>، والعلوم المحمودة عنده هي: (ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وهو ينقسم إلى فرض كفاية وفضيلة، ما يعد فرض كفاية فهو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها؛ وكذلك أصول الصناعات كالزراعة والحياكة... وما يعد فضيلة كالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب)<sup>350</sup>.

أما العلوم المذمومة فهي (كعلم السحر والطلسمات والشعبذة والتلبيسات)<sup>351</sup>، وأما المباحة منها فهي: (كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار، وما يجري مجراها)<sup>352</sup>.

هذا ما يتعلق بالعلوم غير الشرعية، أما العلوم الشرعية فقسما من جهتين:

## 1- من حيث الحكم الشرعي

قسما إلى ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية؛ فجعل ما يجري على الجوارح من العبادات والعادات، وهو العلم الظاهر أو المعاملة وهي فرض العين، ثم ما يجري على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات، وهو العلم الباطن أو المكاشفة؛ وهي فرض الكفاية<sup>353</sup>.

345 - حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، 1402هـ/1982م، ج1، ص11

346 - محمد غلاب: المعرفة، ص212

347 - رسائل إخوان الصفا، ج1، ص266

348 - لا يقصد بالعلوم غير الشرعية المخالفة للشرع؛ وإنما المقصود بما التي لم تؤخذ من نصوصه، انظر ابن خلدون: المقدمة، ص549-550

349 - إحياء علوم الدين، ج1، ص23

350 - المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

351 - المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

352 - المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة.

## 2- من حيث كونها محموددة أو مذمومة:

. المحموددة: ولها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب:

\* - الأصول وهي أربعة: الكتاب والسنة والإجماع وأثار الصحابة.

\* - الفروع: ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها؛ بل بمعاني تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم.

\* - المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو... وعلم كتابة الخط.

\* - المتممات: في علم القرآن، وينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، وما يتعلق بالمعنى كالتفسير، وما يتعلق بمعرفة أحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنص، وأصول الفقه، والعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم<sup>354</sup>.

. المذمومة: مثل (أنواع المجادلات، وإن دقت وغمضت إذا خلت عن إفادة الخشية، كانت من العلوم المذمومة)<sup>355</sup>.

### ب/ أقسام العلم عند المتكلمين المغاربة [ابن تومرت]

أما تلميذ الغزالي، ابن تومرت فيقسم العلم من وجهة نظره الخاصة من ناحيتين<sup>356</sup>: من ناحية طريقه إلى ثلاثة أقسام: (الحس والعقل والسمع)<sup>357</sup>، بمعنى العلوم الحسية التي جعلها ثلاثة أقسام (ما أدركناه عند الاتصال، وما أدركناه عند الانفصال)<sup>358</sup> وما يجده الإنسان في نفسه<sup>359</sup>، والعلوم العقلية جعلها قسمين: (ما أدركناه بدلالات الأفعال، وما أدركناه بالقياس)<sup>360</sup>، ويدرج ضمن القسم الأول من العلوم العقلية العلوم الإلهية كلها.

أما العلوم النقلية (السمع) فيقسمها من جهتين: من جهة السماع المباشر يجعلها على قسمين (وحي ولغة)<sup>361</sup>، ويقسمها من جهة النقل إلى ثلاثة أقسام (الكتاب والسنة والإجماع)<sup>362</sup>، فأخرج العلوم المدركة بالقياس من صنف العلوم النقلية نهائياً؛ من هذه الناحية.

ومن جهة أخرى، قسّم العلوم بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام أساسية هي: (العلم بالدين، والعلم بالدنيا، والعلم بما يتوصل به إليهما)<sup>363</sup>، وهذا التقسيم مبني على فائدة عملية ومبدأ احترام الأولويات، بمعنى أول واجب وما يتبعه.

353 - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، ص13، 20-21

354 - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1، ص23-24

355 - الرزاي: التفسير الكبير، ج1، ص265

356 - انظر المخطط في الملحق رقم1

357 - أعز ما يطلب، ص30

358 - المصدر نفسه، ص158

359 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

360 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

361 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

362 - المصدر نفسه، ص30

363 - المصدر نفسه، ص281

**1- العلم بالدين:** والأصل في علوم الدين الوجوب، فكلها واجبة على المكلف لأنها أصل العبادة وبها تعرف وتكتمل شروطها وأركانها، وتنقسم علوم الدين عنده؛ حسب قسمته الثلاثية دائماً إلى: (العلم بالله، والعلم بالرسول، والعلم بما جاء به الرسل)<sup>364</sup>، وهو تقسيماً متميزاً على كل التقسيمات التي سبقته، والتي لحقته فيما بعد.

**. العلم بالله:**

**\*- طريق معرفته:** هذا القسم من علوم الدين تنازعت منه مناهج مختلفة، فالفلاسفة منذ القديم كانوا يجعلونه من مباحث العقل ويصنفونه ضمن العلوم العقلية ويسمونه بالمواريثيات أو باب الإلهيات كما هو الحال عند الفلاسفة المسلمين<sup>365</sup>، بينما يدرجه الفقهاء والمحدثين، ضمن العلوم الشرعية التي لا دخل للعقل فيها، ويجعله أهل التصوف من علوم المكاشفة وخاصة التوحيد منه (فأما التوحيد فهو الأصل، والقول فيه يطول، وهو من علم المكاشفة)<sup>366</sup>؛ وتوسط المتكلمون فجعلوه من العلوم الشرعية التي لا تثبت إلا بأدلة العقل.

ويتفق من حيث المنهج مع من جعل العلوم الإلهية تعرف من طريق العقل لا النقل (فأما العلم بالله فطريقة العقل)<sup>367</sup>، ولكن يتفرد عنهم بكونه يجعل للعقل طريقتين لتحصيل المعرفة لا يجوز الخلط بينهما، ويختص الطريق الأول منها (طريق دلالات الأفعال) بالعلوم الإلهية، وقد أخطأ في نظره من استعمل طريق القياس في المعرفة الإلهية؛ فخلطوا بذلك بين مدركين من مدارك العقل (لأن القياس إنما يصح بين المتماثلين وبين المختلفين إذا كان بينهما شبه، والباري سبحانه ليس له مثل ولا شبه، فإذا ثبت هذا وصحّ بطل به التشبيه وبطل به قياس الغائب على الشاهد<sup>368</sup>)<sup>369</sup>، ويرى ابن رشد أن هذا النوع من العلوم هو من ضمن ثلاثة أنواع أخرى من أصول الشرعية التي لا يجوز لأحد فيها الخطأ وهي (الأشياء التي تفضي جميع أصناف الدلائل إلى معرفتها، فتكون معرفة ذلك الشيء بهذه الجهة ممكنة للجميع، وهذا مثل الإقرار بالله تبارك وتعالى وبالنبوات وبالسعادة الأخروية والشقاء الأخروي، وذلك أن هذه الأصول الثلاثة تؤدي إليها أصناف الدلائل الثلاثة التي لا يعرى أحد من الناس عن وقوع التصديق له من قبلها بالذي كلفه معرفته، أعني الدلائل الخطائية والجدلية والبرهانية، فالجاحد لأمثال هذه الأشياء إذا كان من أصول الشرع كافر معاند بلسانه دون قلبه أو بغفلته عن التعرض إلى معرفة دليلها، لأنه إن كان من أهل البرهان فقد جعل له سبيل إلى التصديق بها بالبرهان، وإن كان من أهل الجدل فبالجدل، وإن كان من أهل الموعدة فبالموعدة، ولذلك قال-عليه السلام-: \*أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي\*<sup>370</sup> يريد بأي طرق اتفق لهم من طرق الإيمان الثلاث)<sup>371</sup>.

364 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 281

365 - إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ج 1، ص 266، وابن خلدون: المقدمة، ص 630

366 - الغزالي: رسائل الغزالي، تح: رياض مصطفى العبد الله، دار الحكمة، دمشق بيروت، بلا: تا، ص 62

367 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 212

368 - يعطي ابن رشد أمثلة عن بعض الأخطاء التي تنتج عن مثل هذا القياس، مثل قياس علم الله المسبق المحيط، على علم الإنسان الحادث بعد جهالة

فصل المقال، ص 70

369 - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 161

370 - عن أبي هريرة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: أُمرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَيَمَّا جُنْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسْبُكُمْ عَلَى اللَّهِ، رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لإله إلا الله محمد رسول الله، رقم 31

371 - ابن رشد: فصل المقال، ص 46-47.

\* - حكمه: اختلفت المذاهب والفرق في حكم هذا العلم؛ ليس من حيث وجوبه؛ ولكن من حيث أوليته، فذهب فريق إلى أن العلم بالله ومعرفته هو أول واجب على الإطلاق، وذهب آخرون إلى أنه مسبوق بواجب قبله وهو النظر في ذلك العلم وليس العلم بالذات، وذهب فريق ثالث إلى أن أول واجب هو القصد إلى النظر في العلم بالله، وإن كان هذا الرأي الأخير قد اعتمد على وجوب النية في الأعمال، وهو قول غير مسلم به لأن (هذا يقتضي اعتبار النية في جميع المأمورات، فإن قيل النظر في معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه... لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه)<sup>372</sup>.

وحاول بعض المتكلمين الخروج من ورطة أول واجب، فجمعوا بين مختلف الآراء؛ فوقعوا في تناقض (اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى، أو النظر في معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر)<sup>373</sup>، وقد تعجب من فعلتهم هذه فعلق قائلاً: (... والعجب كل العجب من عدولهم في ذلك عن الطريق وخروجهم عن سبيل التحقيق وتسويغهم الخلاف فيما لا يجوز الخلاف فيه... لاستحالة انقلاب المتحد متعدداً)<sup>374</sup>، فلما كان أول واجب واحد لا يتعدد، فلا يجوز إلا مذهب واحد وهو ما ذهب إليه من أن أول واجب هو العبادة، و(جميعها منحصر في ثلاثة أقسام: العلم بالله والعلم بالرسول والعلم بما جاءت به الرسل)<sup>375</sup>، ويرجع في نظر ابن رشد سبب اختلافهم في تحديد أول واجب (فقال قوم أول الواجبات النظر وقال قوم الإيمان، أعني من قبل أنهم لم يعرفوا أي الطرق هي الطرق المشتركة للجميع، التي دعا الشرع من أبوابها جميع الناس، وظنوا أن ذلك طريق واحد، فأخطأوا مقصد الشرع فضلوا وأضلوا)<sup>376</sup>.

وانطلاقاً من آيات كثيرة تدعو إلى التوحيد وعبادة الله عز وجل مثل قوله تعالى: \*وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي\*<sup>377</sup>، وقوله كذلك: \*وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا\*<sup>378</sup> يجعل العلم بالله ومعرفته أول واجب على المكلف من مجموع علوم الدين (إذ لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود)<sup>379</sup>، فالعبادة واجبة بذاتها وهي أقسام فأول قسم منها هو أول واجب على المكلف (فأول واجب منها على المكلف هو العلم بالله سبحانه، إذ لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود)<sup>380</sup>، لأن العلم هو شرط العمل<sup>381</sup>، أو لأنّ (العالم إنما تصح عبادته بعلمه، والجاهل لا تصح عبادته لأنه عمل بالجهل فأجاف العبادة وأفسدها)<sup>382</sup>؛ وفي نفس الوقت؛ جعل العبادة على عدة أقسام، أول قسم منها هو أول واجب، وهو أيضاً على ثلاثة أقسام: (العلم بالله على ثلاثة أقسام العلم بما يجب له والعلم بما يجوز عليه والعلم بما يستحيل عليه)<sup>383</sup>، وكل علم من هذه الأقسام منقسم إلى ثلاثة أقسام أيضاً (فأما العلم بما يجب له فهو على ثلاثة أقسام: الوجود

372 - الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، 1398هـ / 1978م، ج8، ص453

373 - المصدر نفسه، ج7، ص435

374 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص207

375 - المصدر نفسه، ص210

376 - ابن رشد: فصل المقال، ص61.

377 - سورة الأنبياء، الآية25

378 - سورة النساء، الآية36

379 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص211

380 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

381 - الغزالي: إحياء علوم الدين، طبعه الحلبي، ج1، ص21

382 - ابن تومرت: المصدر السابق، ص181

383 - المصدر نفسه، ص182

والوحدانية والكمال)<sup>384</sup>، هذا من حيث الترتيب العقلي، أما من حيث الترتيب الشرعي؛ فينقلب التوحيد هو الأول، فإن التوحيد يتقدم الوجود ويصبح أول الواجبات الشرعية، لأن إثبات الوجود للخالق تبارك وتعالى؛ لا يترتب عليه حكم شرعياً (فان العرب كلها تعترف بوجود الباري سبحانه)<sup>385</sup>، قال تعالى: \*وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ\*<sup>386</sup> ولكن الشرع عداهم كفاراً؛ ماداموا لا يوحدونه ويعبدون آلهة أخرى من دونه.

ولذلك قدمه ابن تومرت، وجعل وجوبه من الناحية الشرعية أسبق من العبادة، فلا يجوز الدخول في أي عمل شرعي (عبادة عملية) حتى ولو كانت الصلاة والطهارة مثلاً؛ من غير معرفة بالتوحيد (باب في وجوب العلم بالتوحيد؛ وتقديمه على العبادة؛ واعتماد العبادة على المعرفة)<sup>387</sup>، وهو عين ما قرره ابن حزم حين قال: (التوحيد أول ما يلزم كل أحد ولا يصح الإسلام إلاّ به)<sup>388</sup>، حتى أننا وجدنا ذات الأدلة التي استعملها ابن حزم ينقلها ابن تومرت<sup>389</sup>، بينما يرى ابن رشد أن العلم به فعلاً هو أول واجب، ولكن ليس من طريق واحد بل من جميع (الطرق المشتركة للجميع، التي دعا الشرع من أبوابها جميع الناس)<sup>390</sup> للإيمان والتصديق به، إذ (طبائع الناس متفاوتة في التصديق، فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنه من يصدق بالأقوال الجدلية تصديق صاحب البرهان؛ إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية كتصديق صاحب البرهان الأقاويل البراهنية)<sup>391</sup> يعني بأي طريق اتفق له سواء كان ذلك التصديق من جهة طريق العقل والفلسفة أو طريق المتكلمين أو طريق التصديق المباشر عن طريق الوعظ إذ أن الشرع حسبه خاطب جميع الناس بجميع أصناف الأدلة العقلية أو النقلية أو الخطابية (وذلك أنه لما كانت شريعتنا هذه الإلهية قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث عم التصديق بما كل إنسان إلا من يجدها عنادا بلسانه، أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها إلى الله)<sup>392</sup>.

\* - أقسام العلم بالله: يجعله ثلاثة أقسام: (العلم بما يجب له، والعلم بما يجوز عليه، والعلم بما يستحيل عليه سبحانه وتعالى)<sup>393</sup>، وقد فصل هذا التقسيم بما يوافق تقسيمه للضرورة العقلية (أما العقل فعلى ثلاثة أقسام: واجب وجائز ومستحيل)<sup>394</sup>.

العلم بما يجب له: ويقابل القسم الأول من أقسام الضرورة العقلية، العلم بما يجب إثباته لله تعالى وهو (على ثلاثة أقسام: الوجود والوحدانية والكمال)<sup>395</sup>.

العلم بما يجوز عليه: وهو ما يقابل القسم الثاني من أقسام الضرورة العقلية وهو الجواز، والجائز متردد (بين الواجب والمستحيل، وهو جائز في حقنا وعند الله واجب أو مستحيل)<sup>396</sup>، ومن هنا كان هذا الجواز الذي في عقولنا ثلاثة أقسام

384 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

385 - ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة، ص 102

386 - سورة لقمان، الآية 25

387 - أعز ما يطلب، ص 271

388 - الخلى بالأثار، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا: تا، ج 1، ص 02

389 - قارن بين أعز ما يطلب، ص 269-272، و الخلى، ج 1، ص 03.

390 - ابن رشد: فصل المقال، ص 61.

391 - ابن رشد: فصل المقال، ص 33

392 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

393 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 182

394 - المصدر نفسه، ص 30، 181

395 - المصدر نفسه، ص 182

396 - المصدر نفسه، ص 181



هي: إيجاد العالم، وإعدامه بعد وجوده، وإعادته بعد إعدامه<sup>397</sup>، وقد حصر الجواز في الخلق إذ العقل لا يستطيع أن يوجب على الله أي فعل من الأفعال، كما أن الفناء أيضاً جائز عقلاً، إذ كل من ثبت له بداية وجبت له نهاية، ما عدا القديم سبحانه إذ لم يثبت له بداية حتى تثبت له نهاية.

وأما البعث والإعادة فهي جائزة وممكنة عقلاً، إذ من أوجد الشيء على غير مثال سابق فهو قادر على إعادته بعد فنائه، والإعادة أسهل وأهون من البدء، قال تعالى: \* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ\*<sup>398</sup>.

العلم بما يستحيل عليه: وهذا القسم يقابل كذلك ضرورة من ضرورات العقل، وهو المستحيل العقلي<sup>399</sup> المعاكس للواجب العقلي، لهذا فإن ما يستحيل على الباري تعالى هو ما يناهز ما يجب له سبحانه من وجود ووحدانية وكمال (والذي يستحيل عليه ثلاثة، التشبيه والشريك والنقائص)<sup>400</sup>.

. **العلم بالرسول**: تبعاً لمنهج بن تومرت العلمي، كان العلم بالرسول يحتل المرتبة الثانية، بعد كمال العلم بالله، من باب إلحاق الفرع بالأصل، فيقول: (لا يخلو هذا السائل عن ما يجب عليه من أن يكون كافراً، أو موحداً عارفاً، فإن كان كافراً فلا كلام فيها معه حتى يعرف الوحدانية ويثبت الربوبية... وإن كان مسترشداً، قيل له: اعلم أن الباري سبحانه قدر في أزليته أن يظهر أشياء على ما يشاء... وأنه قدر في أزليته أنه يبعث رسولا إلى قوم من عبيده في زمن قدره وعلمه، وأنه يظهر أحكاماً وشرائع على يديه، ويظهر معجزة تدل على صدقه...)<sup>401</sup>، فكان هذا الترتيب وتقديم الحديث على الرسالة قبل غيرها من أركان الإيمان الأخرى، كالإيمان بالكتب، والملائكة، واليوم الآخر... وذلك لأنه (لا طريق لنا إلى العلم بوجود الملائكة، ولا إلى العلم بصدق الكتب-وما جاء بها من شرائع وأحكام-إلا بواسطة صدق الرسل)<sup>402</sup>.

وهو ما قرره ابن حزم عند ذكره لمعجزات الأنبياء (...وفاعل هذه المعجزات هو الأول الذي أحدث كل شيء، ووجدنا هذه القوى قد أصحابها الله تعالى رجالاً يدعون إليه، ويذكرون أنه تعالى أرسلهم إلى الناس، ويستشهدون به تعالى فيشهد لهم بهذه المعجزات المحدثه منه تعالى في حين رغبة هؤلاء القوم إليه فيها)<sup>403</sup>.

\* **طريق العلم بالرسول**: ويقيم الطريق الوحيد؛ لإثبات صدق الرسول هو المعجزة، ولهذا قال: (يظهر معجزة تدل على صدقه)<sup>404</sup>، فكل ما جاءت به الرسل من المعجزات الخارقة للعادة والتي لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم (فوجب بالضرورة ولا بد؛ أنه لا بد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداء كل هذا دون معلم، لكن بوحى حقيقه عنده و هذه صفة النبوة، فإذا لا بد من نبي أو أنبياء ضرورة)<sup>405</sup>.

397 - المصدر نفسه، ص182

398 - سورة يس، الآية 78-79

399 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص181

400 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص182

401 - المصدر نفسه، ص208

402 - الزازي: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/ 1978م، ج2، ص96

403 - الفصل في الملل، ج1، ص142

404 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص208

405 - الفصل في الملل، ج1، ص141

ثم إن طريق العلم بالمعجزة هو (ضرورة قرائن الأحوال)<sup>406</sup>، ومعنى ذلك أن طريق العلم بها؛ هو العقل أو الضرورة العقلية وحدها، كما قرره ابن حزم، لأنه (لا مجال للتواتر في العلم بها)<sup>407</sup>، بل ينحصر دور التواتر في نقلها وإيصالها إلينا، لهذا يقول: (وأما وجودها فقد نقل إلينا بالتواتر، ووجودها خلاف العلم بها)<sup>408</sup>.

\* - **أقسام العلم بالرسول:** وحسب قسمته الثلاثية المحببة إليه، فقد جعل الحديث على هذه المسألة يدور حول أقسام ثلاثة، هي: (العلم بما يجب إثباته للرسول، والعلم بما يجب نفيه، والعلم بما يجوز عليه)<sup>409</sup>، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث على مذهبه في الرسالة والنبوة .

### . العلم بما جاءت به الرسل:

\* - **أهميته:** ويحتل هذا القسم مكانة هامة بين أقسام العلم عنده، لأنه به تعرف العبادة، ومنه تؤخذ أحكام الشريعة كلها.

\* - **طريق إدراكه:** هذا القسم من علوم الدين وقع فيه نزاع ليس باليسير، من جهة حق التشريع على الخصوص هل يستقل به السمع وحده، لا يجوز أن يتدخل فيه العقل من قريب ولا من بعيد، وهو مذهب الظاهرية (ليس من الشرائع العملية شيء يوجب العقل، ولا يمنع منه العقل، بل كلها من باب الممكن، فإذا قامت البراهين الضرورية على صحة قول الأمر بها، ووجوب طاعته، وجب قبول كل ما أتى به كائنا ما كان من الأعمال؛ ولو أنه قتل أنفسنا، وأبناءنا وآباءنا وأمهاتنا)<sup>410</sup>، بينما تسمح المذاهب السنية الأخرى للعقل بالتدخل في إطار (إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول)<sup>411</sup>، ويميل إلى مذهب أهل الظاهر فيمنع استعمال طريق غير طريق النقل، وليس للعقل دور في هذا القسم من العلم نهائياً (وأما انحصار طرق النقل فإنها منحصرة في التواتر والآحاد ولا ثالث بينهما، ولا يثبت شيء من الشرع إلا بهما، فإن قال قائل، ما يمنع أن يكون هناك طريق آخر يعلم الشرع به، ويثبت غير التواتر والآحاد؟ فيقال له: لا يخلو هذا الطريق من أن يكون راجعاً إلى العقل أو إلى النقل، فإن قال هو راجع إلى العقل فذلك محال، إذ العقل ليس له في الشرع مجال)<sup>412</sup>، بمعنى أنه (حصر التشريع في شخص المرسل بالتبليغ)<sup>413</sup>، فليس لأحد أن يزيد شيئاً عما جاءت به الرسل، أو ينقص شيئاً منها.

\* - **طريق ثبوته:** لما كان طريق إدراكه هو السمع، والسمع له طريقتان يثبت بهما لا ثالث لهما (مباشرة وواسطة، فالمباشرة على ثلاثة أقسام، إما أن يسمع قول الرسول عليه السلام، أو يرى فعله، أو يراه الرسول فعل فعلاً فيقره عليه، والواسطة: أن يكون بينه وبين الرسول غيره، وهي النقل، والنقل على ضربين: تواتر وآحاد)<sup>414</sup>، فإذا كان النقل مأموناً صح، وإن كان غير مأموناً لم يفد علم، وأفاد العمل (فما كان تواتراً أفاد العلم القطعي، وما كان آحاداً أفاد العلم بالأصل المقطوع به)<sup>415</sup>.

406 - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 69-70

407 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

408 - المصدر نفسه، ص 70

409 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 182

410 - ابن حزم: الفصل في الملل، ج 1، ص 92

411 - ابن خلدون: المقدمة، ص 550

412 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 44، 66

413 - مبارك بن محمد المليبي: رسالة الشرك ومظاهره، مكتبة النهضة الجزائرية، بلات، ص 20

414 - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 30-31

415 - المصدر نفسه، ص 46

\* - أقسامه: والكلام فيها يدور حول ثلاثة محاور أساسية وهي: الوحي، والتكليف، والجزاء على التكليف.

**الوحي:** وهو عنده ثلاثة أقسام: الخير والأمر والنهي؛ أما الخير فهو (ما أخبر به من الغيوب، وهو جل الكتاب؛ وأكثر ما فيه)<sup>416</sup>، والمقصود بالغيوب هنا؛ أمور الغيب التي لا سبيل لمعرفة إلا بالوحي، ولذلك كان حكمها التصديق بها؛ كما جاء بها النص الشرعي، بلا زيادة ولا نقصان، فلا دخل للعقل في هذا المجال، والعلوم الداخلة في مجال الغيوب هي: خير الملائكة، وأحوال القيامة، والصراط... أما الأمر والنهي؛ فهما أحكام وجب بهما التكليف، وقد انحصرت الأحكام الشرعية في الأمر والنهي فقط، فثبت بهذا أنهما وحدهما الأصل الشرعي الواجب (فانحصرت الأصول كلها في أمر الله ونهيه، وهما على الحقيقة الأصلين اللذين بهما تثبت الأحكام وعليها يترتب التكليف)<sup>417</sup>، ثم يثبت (أن أمر الله وأمر رسوله واحد، وأن الأمر على الوجوب، وهو مذهب الصحابة أجمعين ومن سلك طريقهم)<sup>418</sup>.

وحتى وإن نسب رأيه للصحابة، فهو هنا يوافق أحد أصول المذهب الظاهري، كما قرره ابن حزم في تفسير: (قوله تعالى: **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**)<sup>419</sup> موجب للوعيد على من قال لا تجب علي موافقة أمره، وموجب أن جميع النصوص على الوجوب، ومن ادعى تأخير الوجوب مدة ما، فقد أسقط وجوب طاعة الله، ووجوب ما أوجب عز وجل من طاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- في تلك المدة، وهذا خلاف لأمر الله عز وجل، فإذا شهد لدعوى من ادعى بعض ما ذكرنا قرآن أو سنة ثابتة، إما بإجماع أو نقل صحيح، فقد صحّ قوله ووجوب طاعة الله تعالى في ذلك، وكذلك من شهدت له ضرورة الحس لأنها فعل الله تعالى في النفوس، وإلا فهي أقوال مؤدية إلى إبطال الإسلام)<sup>420</sup>، ويزيد ابن تومرت على ما قرره ابن حزم؛ بلغة أكثر تشدداً فيقول: (فمن رد الأمر عن الوجوب إلى غيره من غير دليل ولا برهان، فقد افتري عظيماً؛ واحتمل بهتاناً وإثماً ميبناً...) <sup>421</sup>.

وبهذا يتأكد التقاء مذهبه مع الظاهرية، وكان سبباً في التقاء ردود أفعالهما واتحادهما، فقد وحدها المنهج الفروعى المالكي بشقيه الأندلسي والمغربي، فالأول مزقت كتبه<sup>422</sup> والثاني أعلنت عليه الحرب.

**التكليف:** أما التكليف فهو عنده غير الأحكام، فإذا كانت الأحكام هي الخطاب الشرعي المتمثل في الأمر والنهي؛ فحقيقة التكليف هي أفعال العباد، فالفرق (بين الوحي والتكليف أن الوحي هو الأمر والنهي، والتكليف هو مقتضى الأمر والنهي؛ وهو امتثال الأمر واجتناب النهي، فحقيقة التكليف هي أفعالنا وتناولنا، والأمر والنهي راجعان إلى الخطاب الذي هو بالوحي)<sup>423</sup>.

416 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص182

417 - المصدر نفسه، ص46

418 - المصدر نفسه، ص64

419 - سورة النور، الآية63

420 - المحلى، ج1، ص75

421 - أعز ما يطلب، ص64

422 - ابن خلدون: المقدمة، ص565

423 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص182

ثم جعل التكليف ثلاثة أقسام أيضاً وهي: (الإيمان والتقوى والورع وهو الاحتياط في الدين... وهو على ضربين: ما يقتضي الفعل وما يقتضي الترك، فالذي يقتضي الفعل على ضربين: محتوم ومندوب، فإن تردد الحكم بينهما فالاحتياط الأخذ بالمحتوم، وأما ما يقتضي الترك فعلى ضربين: تحريم وتنزيه؛ فإن تردد الحكم بينهما فالاحتياط الأخذ بالتحريم)<sup>424</sup>.

ولا شك أن هذا الربط بين الأحكام والتكاليف وحصر التكاليف في الإيمان والتقوى والورع؛ يجعله ينتقل مباشرة إلى الواقع، ويستدل على فساده بعدم تطبيق الأحكام الشرعية، وبالتالي عدم ظهورها في سلوك الناس على أرض الواقع ويجعل من مستلزمات الأصل ظهور فروعه وانحصارها، كما أوجب معرفة هذه الفروع (أما تعلق معرفة الفرع بمعرفة الأصل، وتعلق معرفة الأصل بمعرفة الفرع، والتلازم بينهما في معرفة جميعها بمعرفة أحدهما متعلق عقلي وتلازم جلي، ومن ضرورة من عرف الأصل أن يعرف الفرع ومن عرف الفرع أن يعرف الأصل)<sup>425</sup>.

فكل من عرف الأمر وامتلأ له؛ وعرف النهي واجتنبه، فقد فعل ما كلفه الشرع به، وبالتالي كان مؤمناً حقاً وتقياً ورعاً، وإذا كانت هذه المعاني قلبية فيجب أن تكون هي الدافع لفعل الجوارح، ويجب أن تتجلى تلك المعاني فيها إذ: (الجوارح تابعة للقلب في الإقبال والإدبار، لا يخفى بطروء عارض ليس له قرار)<sup>426</sup>.

وهذا ما يفسر أعمال ابن تومرت وتصرفاته، عبر مراحل دعوته الطويلة، كيف كان شديد التركيز على تهذيب سلوك الناس وأخلاقهم وضبطها بأحكام الشرع، فكان لذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>427</sup> أحد الأسس الكبرى في دعوته، كما كان لا يفرق بين الإصلاح في مجال العقيدة حيث (أول ما دبرهم به، أنه ألف لهم كتاب التوحيد باللسان البربري)<sup>428</sup>، أو في مجال الشريعة والأخلاق<sup>429</sup>، ثم كان هذا منهج الموحدين جميعاً حتى من بعد وفاته (لذلك فإن كل مسلم لم يسلك سبيل الموحدين أو يعتمد على مبادئ نظريتهم لا يستطيع تأدية فرائضه كما ينبغي، بل إنه مجرمًا بسبب الإشراف والتجسيم أو يعد كافراً، فإن لم يؤمن ويتب يجب تطهيره بالسيف، ولم يزل ابن تومرت حتى كتب أن الجهاد ضد المسلمين أكبر وجوباً من الجهاد ضد المسيحيين)<sup>430</sup>، فقد (كان أكثر تأديبه القتل)<sup>431</sup> حتى قيل أنه (جعل القتل في ثمانية عشر صنفاً، كالكذب والمداهنة)<sup>432</sup>.

وواصل الموحدون من بعده على نهجه حتى روي عنهم أنهم كانوا يقتلون كل من وجد خارج المسجد وقت الصلاة<sup>433</sup>، وكلهم (يصلون الصلوات الخمس بإمام واحد، وتكبيرة واحدة، لا يتخلف أحد منهم عن الصلاة، لأنه كان يقتل من يتأخر منهم)<sup>434</sup>، وبهذا كان هو وأتباعه من أكثر الذين جمعوا بين النظرية والتطبيق.

424 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

425 - المصدر نفسه، ص 47

426 - المصدر نفسه، ص 238

427 - البيدق: أخبار المهدي، ص 46، و ابن القطان: نظم الجمان، ص 93

428 - ابن القطان: المصدر نفسه، ص 129

429 - Rachid Bourouiba, al - mu'min, Flambeau des Almohades, p 81

430 - محمد ولد داداه: الملك في المغرب، ص 138

431 - محمد الموقت: البياوقيت العصرية، ص 26

432 - ابن القطان: نظم الجمان، ص 83

433 - أنظر حكم تارك الصلاة عند ابن تومرت، في كتاب أعز ما يطلب، ص 98

434 - محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور، ص 134

. **الجزاء على التكليف:** والجزاء لا يكون إلا في الدار الآخرة، وذلك أنّ المؤمن الذي أدى التكليف الذي جاءت به الرسل؛ من إيمان وتقوى وورع، فإنّ هناك يوماً ولا بد يجزى فيه المكلفون وقد جعل أنواع الجزاء على قدر التكليف، فلذلك كان أقسام ثلاث عنده وهي: (الحساب والثواب والعقاب)<sup>435</sup>، فكل فرد يجازى حسب إيمانه وتقواه وورعه، وما عمله.

أما طريق العلم بهذا الجزاء، فهو الوحي وحده (وكذلك الثواب والعقاب والأحكام وكل ما يوقف على الرسول فليس طريقه التواتر، وإنما يعلم بالوحي)<sup>436</sup>، إذ (الثواب والعقاب، والجنة والنار وأحكام التكليف، وصحيح المذاهب من فاسدها، فهذه كلها لا يصح فيها العلم بالتواتر إذ ليس طريقها النقل)<sup>437</sup>، وإنما التواتر يفيد في نسبتها إلى قائلها فقط.

وبهذا يختم الحديث عن علوم الدين؛ متحدثاً عن الطريق الصحيح الذي يدرك به كل علم منها، ومرتباً لها ترتيباً حسب أولوية كل واجب؛ إذ جعل العلم بالله الذي لا تصح عبادة إلا به أولاً وقبل كل شيء، وبين طريقه وهو العقل، ثم أتبع ذلك القسم بقسم متفرع عنه وهو العلم بالرسول، وبين أقسامه وأن المعجزة هي طريق العلم به، وهو في كل هذا لا يخرج عن الإطار العام الذي وضعه شيخه الغزالي في الإحياء للعلم، وما يجب على العالم والمتعلم، كما تطرق بعدها مباشرة إلى العلم بما جاءت به الرسل، وهذا القسم الأخير من علوم الدين هو ما تفرد به عن غيره من العلماء، إذ المعتاد عند الفقهاء والأصوليين أن يقتصروا التكليف في الأحكام الشرعية وهي: (الواجب والمندوب والحرام والمكروه والمندوب)<sup>438</sup>، بينما ابن تومرت جعل أحكام التكليف هي الأوامر والنواهي، وجعل التكليف هو: الإيمان والتقوى والورع كما سبق ورأينا.

## 2- العلم بالدنيا

يحدد للعلم بالدنيا أصغر دائرة في مخططه، وهذا ناتج عن اتجاهه الدعوى ونظرته الزاهدة لكل مل يتعلق بالدنيا، وموقفه هذا جعله زاهداً حتى في إعطاء تفاصيل أكثر عن العلم بالدنيا، فاكتفى بالحديث عن أقسام العلم بالدنيا مجملة (العلم بمنافعها، والعلم بمضارها، والعلم بأسباب المعيشة)<sup>439</sup>، بل نفر منها وزهد في متاعها الفاني (أخبرنا أن عاقبة نعيمها إلى الزوال، وأخبرنا عاقبة عمرانها إلى الخراب، أو أخبرنا أن عاقبة نعيمها إلى الهلاك)<sup>440</sup>، وجعل المقصود من معرفة الدنيا؛ هو الزهد في متاعها القليل، واستدل على ذلك بقوله تعالى: \*قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى\*<sup>441</sup>، ونقل نصاً يحذر من الرضا بها والرغبة في متاعها؛ وقال لنيه فيها<sup>442</sup> \*وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى\*<sup>443</sup>.

435 - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 183

436 - المصدر نفسه، ص 70

437 - المصدر نفسه، ص 69

438 - موسى إبراهيم الإبراهيمي: المدخل إلى أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي، دار عمار، شركة الشهاب، الجزائر، بلا:تا، ص 110-115

439 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 183

440 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

441 - سورة النساء الآية 77

442 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 179

443 - سورة طه، الآية 131

### 3- ما يتوصل به إلى العلم بالدين والدنيا

جعل هذا القسم من العلوم وسيلة يتوصل بها إلى معرفة العلوم الأخرى، كما هو واضح من خلال العنوان الذي اختار لها، ويشترك لها ابن خلدون اسما قريبا من هذا المعنى فيقول: (وعلوم، هي وسيلة آلية لهذه العلوم، كالعربية والحساب وغيرها للشرعيات، كالمنطق للفلسفة، وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين)<sup>444</sup>، ويسميتها علوم الآلة<sup>445</sup> لهذا الاعتبار.

. **حكم هذا القسم من العلوم:** إذا أخذنا بقاعدة (ما لا يتم الواجب ألا به فهو واجب)<sup>446</sup>، والتي توسع في الأخذ

بها كثيرا، وجدنا أنها تحتل مرتبة الواجب، ليس من جهتها الذاتية ولكن باعتبار أن معرفة الواجب متوقف عليها.

. **أقسامه:** جعل هذا القسم آخر أقسام العلوم، واقتصر منه على أكثرته؛ على قسمين وهما علم اللغة والحساب (وأما

ما يتوصل به إلى العلم بهما فتلاثة اللغة والإعراب والحساب)<sup>447</sup>، لأن الإعراب قسم من علوم اللغة وجزء منها، وأفرده بالذكر من بين علوم اللغة الأخرى من جهة؛ وعلى حساب إهمال أقسام العلوم الأخرى من جهة ثانية، ليلفت النظر إلى أهميته وتوجيه هم الطلبة لتحصيله.

\* **اللغة:** يجعل للغة أهمية كبرى، لا باعتبار أنها لغة التعليم فحسب (ولعله يعكس أيضا ما لاقاه من صعوبة في تلقين مذهبه للبربر؛ لعدم حذق عامتهم للغة العربية وقوانينها)<sup>448</sup>، بل لاعتبار آخر أهم منه، وهو ثبوت الشريعة الإسلامية في حد ذاتها، لأن الأصل الذي تبنى عليه؛ وهو القرآن والسنة، جاء بلغة العرب (فاللغة بما جاءت شريعتنا فإذا بطلت اللغة بطلت الشريعة)<sup>449</sup>، كما جعل البعض معرفة الشريعة كلها؛ متوقف على معرفة علوم اللغة (ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن يتقدمه العلوم اللسانية؛ لأنه متوقف عليها وهي أصناف: علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب)<sup>450</sup>.

وكما أن المذهب الظاهري يعول كثيرا على اللغة؛ بل ويؤكد على أن المعنى المقصود شرعا هو نفسه المعنى المقصود في

اللغة؛ لا يجوز تعدية الحكم إلى معنى آخر غير مقصود لغةً، كما لا يجوز صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي، أو أنه يرمز إلى معنى آخر لا يدل عليه ظاهر اللفظ قال ابن حزم في الوحي (وكل ما فيه من خبر عن نبي... فهو حق على ظاهره لا رمز في شيء منه)<sup>451</sup>.

وابن تومرت أضاف قواعد لغوية في مذهبه يلتقي فيها مع مذهب الظاهرية، فهو يكاد يأخذ بأكثر قواعدهم منها؛

كاعتبار الظاهر دليلا شرعيا عند الترجيح بين النصوص (ثم إن الأخبار الواردة لا تخلوا من قسمين: إما تكون على ظاهرها لا احتمال فيها؛ فتحمل على ذلك...) <sup>452</sup>، وفي الألفاظ كذلك (إذا ورد على ظاهره ولا احتمال فيه حمل على ظاهره)<sup>453</sup>،

444 - المقدمة، ص 738-739

445 - المصدر نفسه، ص 739

446 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 206

447 - المصدر نفسه، ص 183

448 - عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت، ص 169-170

449 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 183

450 - ابن خلدون: المقدمة، ص 550

451 - ابن حزم: المحلى، ج 1، ص 22

452 - أعز ما يطلب، ص 79

453 - أعز ما يطلب، ص 79

بمعنى أن اللفظ؛ لا يجوز صرفه عن معناه الذي ووضعه له، إذا كان لا يفهم منه معنى آخر غيره لأن (الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب لها)<sup>454</sup>، وأما العدول عن المعنى الذي ووضعه له اللفظ والذي يسمى التأويل، لا بد له من شروط مضبوطة<sup>455</sup>.

ويتوسع أكثر عندما يجعل من اللغة قاعدة من قواعد وجوب الأصل الشرعي (والقواعد التي يبنى عليها وجوب الأصل الذي هو الأمر والنهي سبعة: منها أن يكون التكليف من الله سبحانه...، ومنها صحة دلالة اللغة ومنها إثبات الوعد والوعيد ومنها كون المكلف ممن يتأتى منه الفعل وفهم الخطاب...) <sup>456</sup>.

بمعنى آخر وحسب القاعدة الثالثة، إذا كانت دلالة الأمر؛ لا تعني طلب أداء عمل كالصلاة مثلا، فقد بطلت الصلاة ببطان معنى الأمر إذا كان لا يفيد الوجوب، وبالتالي أدى ذلك إلى بطلان أحكام الشريعة كلها، فلم يعد هناك واجب ولا حرام ولا حلال، حسب هذه القاعدة (وأما فائدة صحة اللغة، فلأن اللغة بها يفهم الخطاب، ولولا اللغة وصحتها لما فهمت الشريعة، ولما ثبتت لها حقيقة، فصحة اللغة شرط في وجوب التكليف) <sup>457</sup>.

كما يخرج من التكليف بالقاعدة الخامسة ما تضارب من النصوص ولم يجد المكلف له وجه من وجوه الترجيح، والتبس الحكم المقصود منه شرعا (لأن الملتبس لا يفهم وما لا يفهم فلا يصح التكليف به) <sup>458</sup>، كما يخرج بها كذلك كل ما جاء في الشرع واكتنفته الغموض ولم يفهمه المكلف (الشرع على ضربين محكم ومتشابه، فالمتشابه لا يلزم اتباعه ولا العمل به) <sup>459</sup>، ثم قال بعد تقرير هذه القواعد (فهذه كيفية دلالات الألفاظ على المعاني، والمراد من ترتيبها، أن تبنى عليها دلالات الشرع، وتترتب بترتيبها، إذ الشرع إنما ثبت باللغة، وإنما كلفنا بما نفهم منها) <sup>460</sup>.

453 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

454 - ابن خلدون: المقدمة، ص 601

455 - شروط التأويل: صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا وصنف هو من أهل التأويل الجدي، وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع العادة، وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانون بالطبع والصناعة، أعني صناعة الحكمة، وهذا التأويل ليس يصرح به لأهل الجدل فضلا عن الجمهور، ابن رشد الحفيد: فصل المقال، ص 56، هذا الصنف من الأفاويل الشرعية ليس له تأويل والجاحد له أو المتأول كافر، والصنف الثاني: أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة يقينية، وتكون النتائج مثلثات للأمر التي قصد إنتاجها، وهذا يتطرق إليه التأويل أعني لنتائجه، والثالث عكس هذا، وهو أن تكون النتائج هي الأمور التي قصد إنتاجها نفسها، وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية، وهذا أيضا لا يتطرق إليه تأويل أعني لنتائجه، وقد يتطرق لمقدماته، والرابع مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية، وتكون نتائجه مقالات لما قصد إنتاجه، وهذه فرض الخواص فيها التأويل، وفرض الجمهور إمرارها على ظاهرها، المصدر نفسه، ص 54-55، أن لا يكون في الأصول التي تعلم (بالطرق الثلاث)، لم نحتاج أن نضرب له أمثالا، وكان على ظاهره لا يتطرق إليه تأويل، وهذان النحو من الظاهر إن كان في الأصول فالتأويل له كافر، مثل من يعتقد أنه لا سعادة أخروية هاهنا ولا شقاء، وأنه إنما قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض في أبدانهم وخواصهم، وإنما حيلة، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط... هاهنا ظاهر من الشرع لا يجوز تأويله، فإن كان تأويله في المبادئ فهو كافر، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة... ظاهر يجب على أهل البرهان تأويله، وحملهم إياه على ظاهره كافر، وتأويل أهل البرهان له وإخراجه عن ظاهره كافر في حقهم أو بدعة، المصدر نفسه، ص 48، هاهنا تأويلات لا يجب أن يفصح بها إلا لمن هو من أهل التأويل وهم الراسخون في العلم، لأن الاختيار عندنا هو الوقوف على قوله تعال [والراسخون في العلم]، لأنه إذا لم يكن أهل العلم لا يعلمون التأويل، لم تكن عندهم مزية تصديق توجب لهم من الإيمان به ما لا يوجد عند غير أهل العلم، وقد وصفهم الله بأئمة المؤمنين به، وهذا إنما يحمل على الإيمان الذي يكون من قبل البرهان، وهذا لا يكون إلا مع العلم بالتأويل، فإن غير أهل العلم من المؤمنين هم أهل الإيمان به، لا من قبل البرهان، فإن كان هذا الإيمان الذي وصف الله به العلماء خاصا بهم، فيجب أن يكون البرهان، وإذا كان البرهان، فلا يكون إلا مع العلم بالتأويل، لأن الله عز وجل قد أخبر أن لها تأويلا هو الحقيقة، والبرهان لا يكون إلا على الحقيقة، وإذا كان ذلك فلا يمكن أن يتقرر في التأويلات التي خصهم الله بها إجماع مستفيض، المصدر نفسه، ص 39-40، وانظر شروط التأويل عند الرازي: التفسير الكبير، ج 5، ص 29

456 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 53

457 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

458 - ابن تومرت: المصدر السابق، ص 54

459 - المصدر نفسه، ص 167

460 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 62، كما لا ننسى أن اكتمال مذهب أهل الظاهر كان في عهد الموحدنين، بظهور المذهب الظاهري في اللغة، على يد أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن سعيد بن حريث بن عاصم ابن مضاء اللخمي القرطبي وولد بقرطبة سنة 513هـ/1119م، وتوفي بإشبيلية سنة 592هـ/1195م، قاضي قضاة الدولة الموحدية في عهد الخليفة المنصور، أنظر: معاد السراطوي: ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،

**طريق العلم بها:** يحدد للغة طريقاً وحيداً لا تدرك اللغة إلا منه، لا فرق بينها وبين الوحي إلا من حيث الجهة التي تسمع منها، ولذلك جعل السمع من هذه الناحية على قسمين (والسمع على ضربين وحي لغة)<sup>461</sup>، ولا مجال فيها للعقل على الإطلاق، وهي من العلوم التي لا سبيل لأحد إليها إلا بتعلم وتلقين؛ وإلا لصح أن كل الناس أنبياء (لا يوجد أحد أبداً في شيء من الأزمان، ولا في مكان أصلاً يأتي بعلم من العلوم لم يعلمه إياه أحد، ولا يتكلم بلغة لم يعلمه إياها أحد، ولا بصناعة من الصناعات لم يوقفه عليها أحد)<sup>462</sup>.

**طريق ثبوتها:** تنطبق على اللغة، باعتبار أن طريق العلم بها هو السمع كل قواعده التي تطبق على كل علم يدرك من هذا الطريق، وله حالتان (مباشرة وواسطة، فإن كانت مباشرة أفادت العلم القطعي لأن العرب هم الذين وضعوها واصطلحوا عليها)<sup>463</sup>، وإن تدخل الوساطة بين القائل والمستمع، قسم الناقل للغة إلى قسمين، لا فرق بينها وبين الوحي من هذه الناحية أيضاً (فالوحي على ضربين تواتر وآحاد واللغة على ضربين تواتر وآحاد)<sup>464</sup>، فما نقل تواتراً أفاد العلم والعمل، وما كان آحاداً (فلا يخلو من أن يتعلق به حكم في الشرع أو لا يتعلق به، فإن تعلق به حكم فلا يخلو الناقل من أن يكون عدلاً أو غير عدل، فإن كان عدلاً قبل نقله وعمل به، وإن كان غير عدل لم يقبل ولم يعمل به)<sup>465</sup>، ولما كان طريق ثبوتها النقل منع ثبوتها بالعقل نهائياً (اللغة لا تثبت قياساً)<sup>466</sup>.

\* - **الإعراب:** هذا القسم من العلوم؛ رغم كونه أحد أقسام علوم اللغة إلا أن ابن تومرت، خصه بالذكر لغاية تعليمية، أو مذهبية، فالإعراب عنده يمكن أن يؤثر في النص الشرعي ويغير معناه (به تنصلح المعاني وتفهم، فإذا بطل الإعراب، بطلت المعاني وإذا بطلت المعاني بطل الشرع أيضاً)<sup>467</sup>، وضرب لذلك مثلاً (فكقولنا: ما أحسن زيداً في التعجب، وما أحسن زيداً؟ في الاستفهام، وما أحسن زيداً في نفي الإحسان عنه)<sup>468</sup>، كما أن الإخلال بقواعد اللغة كلها والإعراب منها على الخصوص؛ يبطل كل المصالح المبنية على المعاملات بين شخصين فأكثر (وإذا بطلت المعاني بطل الشرع أيضاً، وما يدور عليه أمر المعاملات كلها من المخاطبات والأقوال)<sup>469</sup>.

\* - **الحساب:** لقد خص الحساب بالذكر في تقسيمه، وجعله مما يتوصل به إلى معرفة الدين والدنيا جميعاً، نظراً لما له من علاقة وطيدة بعلوم الدين من جهة، ونبه على أمثلة جديدة يبين من خلالها ضرورة تعلمه (أما الدين فإن هذه العبادات المؤقتة بالأزمان، لا تعرف إلا بالحساب، به عرفنا الأيام و الجُمع والشهور، والسنين، والعبادات مرتبة فيها، كصلاة الجمعة، فإذا جهل يوم الجمعة بطلت الصلاة، وكذلك الصيام، إذا جهل الحساب الذي يعرف به شهره بطل أيضاً، وكذلك السنون

عمان الأردن، ط1، 1408هـ/1988م، ص43-53، وبكري عبد الكريم: ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة، تحت إشراف،

يوسف ورا، بجامعة وهران معهد اللغة والأدب العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1402هـ/1982م، ص8

461 - ابن تومرت: المصدر نفسه، ص158

462 - ابن حزم: الفصل في الملل، ح1، ص136

463 - ابن تومرت: المصدر السابق، نفس الصفحة

464 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

465 - المصدر نفسه، ص58

466 - ابن خلدون: المقدمة، ص575

467 - أعز ما يطلب، ص183

468 - المصدر نفسه، ص58

469 - المصدر نفسه، ص183



أيضا في عبادة الرّكاة، والحجّ فالحساب أصل كبير في الدين<sup>470</sup>، ولما له من أهمية في معاملات الناس اليومية من جهة ثانية (وأما الدنيا فيه تصح جميع المعاملات الدائرة بين الناس، من المعاوضات، والأخذ والإعطاء، وجل منافع المعيشة)<sup>471</sup>، ودلالة اللفظ في العدد قطعية لا احتمال فيها (... إن تناولها على التحديد دل على جملة المحدود، ولا يكون ذلك إلا في الأعداد وهي منحصرة في العشرات والمئتين والآلاف...) <sup>472</sup>.

وسجل له طريقتان آن ذاك (طريق الدور، وطريق الشفع والوتر؛ فطريق الدور هي طريق حسوبي المغرب والأندلس...) <sup>473</sup>، وأما الطريقة الثانية (طريق الشفع والوتر: هي طريق المهندسين والمتكلمين وهي أقصد وأقرب وهي على أربعة أقسام: إما أن يكون شفع إلى شفع، أو وتر إلى وتر، أو شفع إلى وتر، أو وتر إلى شفع) <sup>474</sup>.

### فروعه:

**الهندسة:** يجعل أصل الهندسة راجع إلى الحساب، مثله مثل باقي المتكلمين، فبعدهما تحدث على طرق وأقسام الحساب، يجعل من أحد تلك القواعد الحسائية مصدرا للهندسة (ثم إن هذه القسمة على ضربين: متقاربة ومتباعدة، ومن هذه القاعدة خرج أصل الهندسة وأصل الطب...) <sup>475</sup>، ويخرج أصل الهندسة من الأعداد (المجتمعمة يكون منها التأليف، وهي جوهران فصاعدا، ثم التأليف على ثلاثة أضرب مستطيل ومستدير ومركن، فهذه الأصول؛ هندسة التأليف في الأشكال والتركيبات والهيآت كلها...) <sup>476</sup>.

وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه ابن حزم (ولابد للدور من مبدأ لأنه كمية، والكمية أعداد مركبة من الآحاد، فإن لم يكن عدد لم يكن ذرع أصلا، وإذا لم يكن ذرع لم تكن مساحة، ولا انفساح ولا مساحة) <sup>477</sup>، وباقي المتكلمين وكل من نقل عنهم، ونبه على هذا الخطأ ابن رشد الحفيد وشنع بأصحابه، وبصفة خاصة الذين اعتمدوه كأصل مسلم به، ودليل قاطع من أدلتهم المعتمدة في إثبات وجود الخالق، ونبه على الالتباس الذي وقعوا فيه (وهذا الغلط إنما دخل عليهم من شبه الكمية المنفصلة بالمتصلة، فظنوا أن ما يلزم في المنفصلة يلزم في المتصلة، وذلك أن هذا إنما يصدق في العدد، أعني أن نقول: إن عددا أكثر من عدد من قبل كثرة الأجزاء الموجودة فيه، أعني الوحدات، وأما الكم المتصل فليس يصدق ذلك فيه... وعلى هذا القول فتكون الأشياء كلها أعداد ولا يكون هناك عظم متصل أصلا، فتكون صناعة الهندسة هي صناعة العدد بعينها) <sup>478</sup>، فالكم المنفصل عدد، والكم المتصل خطوط وسطوح، الأول موضوع الحساب والثاني موضوع الهندسة <sup>479</sup>، وقد

470 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 183

471 - المصدر نفسه نفس الصفحة

472 - المصدر نفسه، ص 79

473 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

474 - المصدر نفسه، ص 80

475 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

476 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

477 - الفصل في الملل، ح 1، ص 77

478 - أنظر ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة، ص 106 (الإحالة 10).

479 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

عرف ابن خلدون علم الهندسة على أساس هذا التصحيح فقال (هذا العلم هو النظر في المقادير، إمّا المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإمّا المنفصلة كالأعداد)<sup>480</sup>.

**الطب:** يجعل أصل الطب متفرعا عن الحساب كذلك (ثم إن هذه القسمة على ضربين: متقاربة ومتباعدة، ومن هذه القاعدة خرج أصل الهندسة وأصل الطب...) <sup>481</sup>.

وهو فرع في نظره عن الهندسة (وأما أصول الهندسة التي هي غير الأشكال والتأليفات، فمن أربعة أشياء وهي: الطبائع والخواص، والأسباب والمسببات، والاعتمادات، والتأثيرات)<sup>482</sup>، ومن الأصل الأخير والذي يستعين كثيرا بالتجارب بل عليها يعتمد، تفرع الطب في نظره (والتأثيرات بابها أيضاً عظيم كتأثير الشيء في الشيء إذا ألف بينهما، ومنه الصواب كنها، إذا ألقى الشيء في الشيء أثر فيه تأثيراً لولا تألفهما لم يؤثر، وجنس هذا الباب أيضاً كثير، ومنه أصل الطب الشرعي)<sup>483</sup>.

ويقسمه إلى أربعة أقسام (وهو على أربعة أضرب منه ما يرجع إلى إصلاح المزاج، ومنه ما يرجع إلى إصلاح المعدة، ومنه ما يرجع إلى الجبر، ومنه ما يرجع إلى معافاة ظاهر البدن)<sup>484</sup>، وجعل القسم الأول منقسم بدوره إلى أربعة أقسام، كما حاول أن يعطي بعض الأمراض الناتجة عنه (فأما الراجع إلى إصلاح المزاج فهو راجع إلى اعتدال الطبائع الأربع: التي هي البلغم والصفراء والسوداء والدم، فهذه الطبائع المركب منها الإنسان، متى غلب أحدها على الجسم ولد فيه الاختلال، وعنه تكون الفضول والحميات، وسائر أنواع الأمراض والأقسام، وإذا اعتدلت صلح الجسم، ولهذا الأصل فروع يطول ذكرها ويتسع شرحها، ويختلف الناس فيها باختلاف الأحوال: من سن وزمان وهواء وغذاء وبلاد)<sup>485</sup>.

كان يعتقد أن في الجسم أربعة أخلاط (خلط الصفراء: هو حار يابس، أصله متولد من عنصر الطبيعي ومسكنه من الإنسان المرارة؛ ومسكن المرارة الرأس، والثاني خلط الدم، وهو حار رطب متولد عن عنصر الهواء الطبيعي؛ ومسكنه من الإنسان الكبد، الثالث خلط البلغم، وهو حار بارد رطب متولد من عنصر الماء؛ ومسكنه من الإنسان الرئة، والرابع خلط السوداء، وهو بارد يابس، أصله متولد من عنصر الأرض؛ ومسكنه من الإنسان الطحال، فالسرور من الدم، والحرارة من الصفراء، والخوف للسوداء، والحزن للبلغم، فهذه الأخلاط الأربعة، فيها قوام البدن ومنها صلاحه ومنها فساده)<sup>486</sup>.

كما كان يعتقد أن كل اختلال في واحدة منها يعالج بضده (فدواء الصفراء: كل بارد رطب، ودواء السوداء: كل حار رطب، ودواء البلغم: كل حار يابس، ودواء الدم: كل بارد يابس، فدواء كل علة بضدها)<sup>487</sup>.

ويقسم ابن تومرت الأنواع المتبقية؛ إلى أقسام لا تحصل فائدة عملية في تتبعها<sup>488</sup>، ويعطي طريقة عملية لمداوة الكسور في العظام (وأما الجبر فإنما يرجع إلى حسن التلطف في مقابلة الأعضاء، ورد كل شيء منها إلى ما يقابله من عظم

480 - المقدمة، ص 639

481 - أعز ما يطلب، ص 80

482 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

483 - المصدر نفسه، ص 81

484 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

485 - ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 81

486 - ابن الأزرق: تسهيل المنافع، المطبعة الميمنة بمصر، 1306هـ، ج 2، ص 4

487 - ابن الأزرق: تسهيل المنافع، ج 2، ص 4.

ومخ ولحم وجلد)<sup>489</sup>، وما يهمنا هو تتبع المنهج العلمي الذي وضعه، وقسم من خلاله العلوم حسب أهميتها وأولويتها في برنامجه التعليمي، والذي تميز بإعطاء مساحة واسعة لعلوم الدين على حساب تجاهل بعض أقسام العلوم الأخرى، رغم أهميتها العلمية والعملية، غير أن هذا الاستدراك الذي ذكر فيه بعض أنواع العلوم العقلية والتجريبية كالمهندسة والطب، فنراه يعتمد التجربة كطريق صحيح للعلم ولكن في الأمور التجريبية، فيذكر بعض الأدوية لمعالجة ظاهر البدن، ثم يقرر أن ذلك (راجع إلى التجربة، ومعرفة العشب المرثية لذلك من تجارب المجربين)<sup>490</sup>، بل نجده يعتد حتى بما تعارف عليه الناس في عوائدهم ويعتبره طريقاً علمياً صحيحاً (وأن العادة طريق إلى العلم فيما يتعلق بالشرع)<sup>491</sup>، ومما يؤكد أن ذكره لهذه العلوم لا على سبيل التفصيل، بل لعرض فقد قوله بعد ذلك (فهذه جملة أصول الحساب والمهندسة والطب)<sup>492</sup>.

كما أعطى لعلوم الآلة أهمية أكثر من اللازم فهي عند المختصين (فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام، ولا تفرع المسائل لأن ذلك مخرج لها عن المقصود)<sup>493</sup>، بينما ابن تومرت يعطي أهمية للغة والإعراب في المنهج العلمي الذي رسمه واتبعه، وبرنامجه التعليمي اعتمده، من باب أنه لا يمكن التوصل إلى معرفة الواجب إلا من خلالها .

---

488 - أعز ما يطلب، ص 81

489 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

490 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

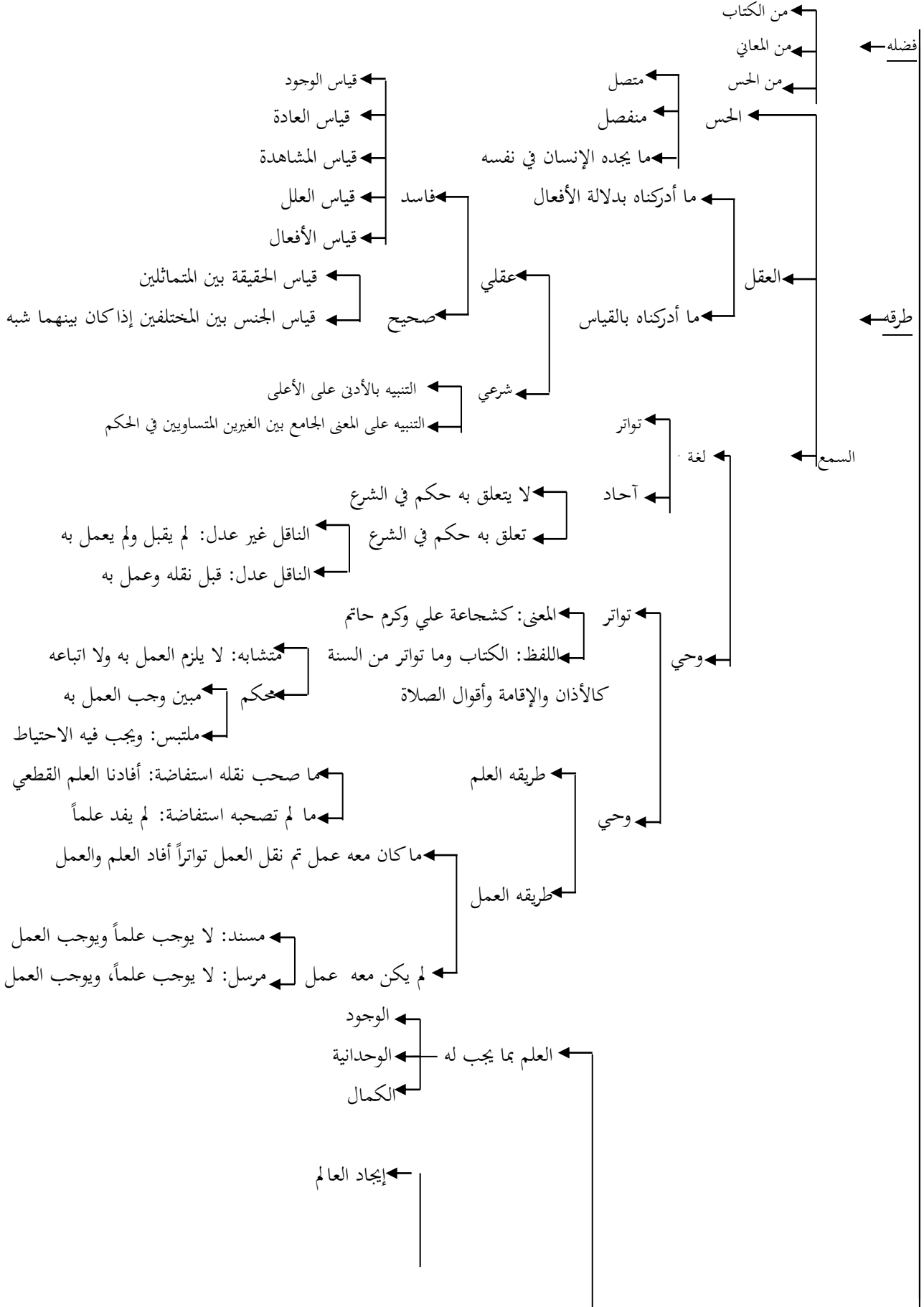
491 - المصدر نفسه، ص 238

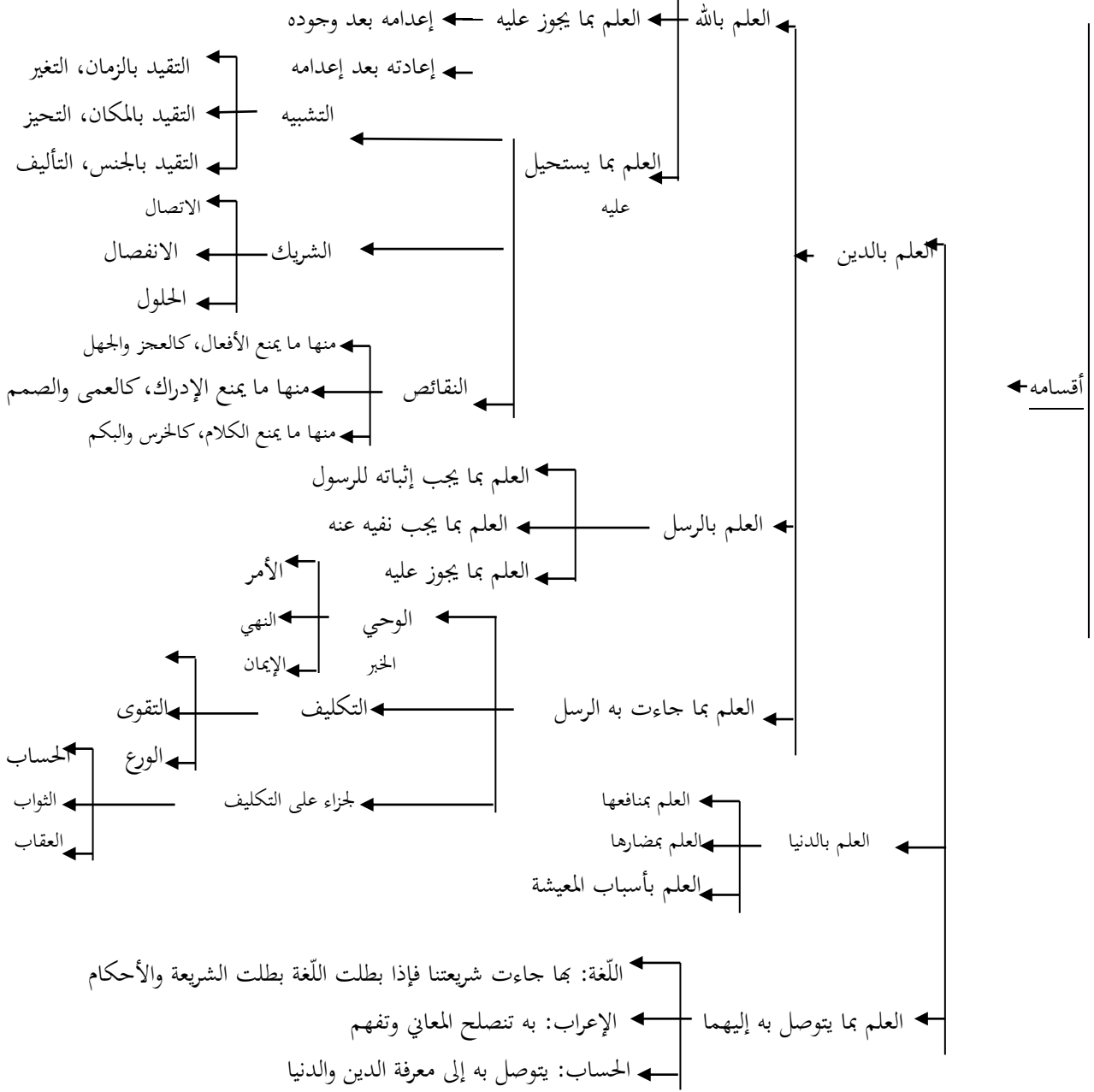
492 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

493 - ابن خلدون: المقدمة، ص 739

أقسام العلم وأنواع العلوم

الكلام في العلم ثلاثة أقسام :





إذا علمنا أن أصل العلوم النقلية هما علم القرآن والحديث، سهل علينا فهم سبب اهتمام العلماء بمهذبن العلمين، أعني القرآن والاعتناء بحفظ آياته، وكل ما تعلق به من كيفية قراءته وأدائه إلى محاولة تفسيره وفهمه، وكذلك حفظ الحديث وروايته من مظانه، وكل ما تعلق بعلومه المختلفة.

وإذا كان في مجتمع المسلمين في كل قرية أو حيث يوجد مسجد يوجد على الأقل حافظاً للقرآن يؤم جماعة المسلمين في صلاتهم، وبالتالي لا يخلوا بيت من بيوت المسلمين من حافظ للقرآن، فإن علم القراءات يختص فيه أناس له باع من العلم، بل يمثلون اختصاصاً مهماً من أهم اختصاصات علوم القرآن، وقد ارتبط انتشار القراءات بانتشار المذاهب، ولذلك انتشرت قراءة الإمام نافع تبعاً لانتشار مذهب الإمام مالك في الفقه، حتى صار ذلك يمثل في بعض الأحيان إيديولوجية لدولة من الدول مثل دولة الأمويين بالأندلس (ونفذ إلى هذه البلاد بعض الأموية؛ فألقى هاهنا عصبية، فثاروا به وأظهر الحق وقال: أحي السنة؛ فلا فقه إلا فقه أهل المدينة، ولا قراءة إلا قراءتهم، فألزموا الناس العمل بمذهب مالك، والقراءة على قراءة نافع، ولم يمكنهم من النظر والتخير في مقتضى الأدلة؛ متى خرج ذلك عن رأي أهل المدينة)<sup>1</sup>، وتمكن بفضلهم للمذهب هناك، ولا يخلوا ذلك من موقف سياسي، خاصة إذا علمنا أن مذهب الخلافة العباسية الرسمي هو المذهب الحنفي المنافس، ولذلك أراد خلفائهم التمييز والاختلاف عنهم (ولما ظهرت الأموية على المغرب وأرادت الانفرد عن العباسية وجدت المغرب على مذهب الأوزاعي<sup>1</sup>، فأقامت في قولها رسم السنة، وأخذت بمذهب أهل المدينة في فقههم وقراءتهم، وكان أقرب من إليهم قراءة ورش<sup>2</sup>، فحملت روايته، وألزم الناس في المغرب حرف نافع<sup>3</sup> ومذهب مالك فجروا عليه وصاروا لا يتعدونه...)<sup>4</sup>.

وهو أول من نودي بلقب أمير المؤمنين في الأندلس، حكم بين [300-350هـ/912-961م]، وتولى الخلافة بعده ابنه الحكم المستنصر بالله، الذي تلقب مثل أبيه بلقب أمير المؤمنين، وأصدر قراره المشهور الذي يأمر به الفقهاء بوجوب الالتزام بمذهب مالك ومنع الفتوى بغيره من المذاهب الأخرى، أنظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص32، و أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ج2، ص333.

1- أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي: العواصم من القواصم، تح: عبد الحميد بن باديس، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، ط1، 1347هـ/1928م، ج2، ص205.

1- مؤسس المذهب الأوزاعي هو الفقيه أبو عمرو عبد الرحمان بن عمرو الأوزاعي [88-157هـ/707-774م] ظهر مذهبه ظهور ما في الأندلس على الخصوص، ثم اندثر ولم يبق له أثر الآن، الشيرازي: طبقات الفقهاء، تح: إحسان عباس دار الرائد العربي بيروت، 1970م، ص76.

2- تنسب الرواية إلى أخذها الإمام ورش أبو سعيد عثمان بن سعيد القرشي المصري المقرئ [177هـ/812م]، انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة بيروت، 1404هـ/1984م، ج1، ص153، ومحمد الإبراهيمي: كتاب الحججة في تجويد القرآن، المكتبة السلفية الدار البيضاء، ط1، 1410هـ/1990م، ص17-18.

3- أبو روم نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم المدني [169هـ/785م]، الذهبي: المصدر نفسه، ج1، ص107، ومحمد الإبراهيمي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

4- أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي: العواصم من القواصم، تح: عبد الحميد بن باديس، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، ط1، 1347هـ/1928م، ج2، ص198-199.

وأعلن مذهباً للدولة بشكل رسمي وبقرار سياسي<sup>5</sup>.

ونفس الشيء حصل في القيروان حاضرة المغرب آنذاك كان هدف التحرك؛ هو العمل الجاد لحمل السلطة السياسية؛ المتمثلة في الدولة الزيرية، على رفض ولائها للفاطميين (والعمل على قطعه)<sup>1</sup>، وكانت الخطة المتبعة في ذلك هي نفس خطة الباطنية التي انتهجوها مع الدولة السنية العباسية في المشرق، فعملوا على التوغل في أجهزة الدولة الصنهاجية ذات

الولاء الشيعي، وتولوا مناصب حساسة، حيث استطاع أحد الفقهاء منهم أن يكون وزيراً في دولتهم، ويكون معلماً ومؤدباً لخلفائهم، فأشرف على تعليم (المعز بن باديس)<sup>2</sup>[454هـ/1062م] وأدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعية لا يعلمون ذلك)<sup>3</sup>، وبدأ يخطط معه لفكرته الأساسية، وهي قطع الدعوة الشيعية عن بلاد المغرب والعودة إلى مذهب أهل السنة.

وبعد خلق هذا الظرف المناسب اجتهد المعز على تنفيذ عملياً في حزم شديد؛ ما فكر فيه نظرياً، ومهد له الفقهاء (في قطع الدعوة لهم، إلى أن حلت سنة 440هـ/1048)<sup>9</sup>، وفي المقابل؛ وكتعبير صادق منه عن هذا التحول (حمل الناس على التمسك بمذهب الإمام مالك، وقطع ما عداه، حسماً لمادة الخلاف بين المذاهب...)<sup>1</sup>، وحدث هذا كله بدفع قوي من الفقهاء كما أن علم الحديث أيضاً لا يخلوا من نزعة مذهبية سياسية تماماً مثله مثل علم القرآن، وأما إفريقية وسائر بلاد المغرب، فإن الأمور جرت على العكس تماماً مما جرى في الأندلس، حيث سبق مذهب أبا حنيفة المذهب المالكي في الحضور<sup>3</sup>، وما لبث أن صار المذهب السائد رسمياً في عهد الأغالبة؛ إلى أن عاد فقهاء إفريقية، بعد رحلتهم إلى مصر أو الحجاز<sup>4</sup> من أمثال (علي بن زياد)<sup>5</sup>[183هـ/799م]، وابن أشرس<sup>6</sup> والبهلول بن راشد<sup>7</sup>[128-183هـ/745-] —

5- أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، حكم بين [172-180هـ/788-796م]، انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، المجلد الأول، ج1، ص55، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص29

1- عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين، ص66

2- المعز بن باديس الصنهاجي [ت1062هـ/454م]، انظر: ابن خلدون: العبر، المجلد6، القسم11، ص323-326، محمود بن سعيد: نزهة الأنظار، ج1، ص32

3- ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص273

9- ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص274، وابن خلدون: العبر، المجلد6، القسم11، ص325، وحسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص156، وليفي بروفنسال: تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، تر: محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص249

1- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور، ص129، و السلاوي: الإستقصا، ج1، ص138

3- لخضر بولطيف: فقهاء المالكية والتحرية السياسية الموحدية في المغرب الإسلامي [510-668هـ/1116-1269م] رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر، ص21

4- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار الفكر العربي القاهرة، بلا: تا، ص152

5- علي بن زياد التونسي [183هـ/799م]، أنظر ترجمته في: القاضي عياض: ترتيب المدارك، المجلد الأول، ج1، ص326، 339، وحسن حسني عبد الوهاب: وراثة عن الحضارة العربية بإفريقية، مكتبة المنار تونس، 1972م، ص41

6- أبو مسعود عبد الرحيم بن أشرس، أنظر ترجمته في: القاضي عياض: المصدر نفسه، المجلد الأول، ج1، ص329-330

7- البهلول بن راشد [128-183هـ/745-799م]، أنظر ترجمته في: المصدر نفسه، المجلد الأول، ج1، ص330-339

799م]، وبعدهم أسد بن الفرات<sup>8</sup>[212هـ/827م]، وغيرهم بمذهب مالك؛ فأخذ به كثير من الناس...<sup>9</sup>، وينسب إلى أسد دوراً مهماً، بل عد (أول من نشر المذهب المالكي في عاصمة الأغالبة، معتمداً في ذلك على موطأ مالك، كما رواه عنه، ويعتبر أول من وضع قواعد المدرسة المالكية... كتابه الأسدية كان مرجع الدارسين لمذهب مالك في المغرب...)<sup>10</sup>، وقد تولى أسد هذا الدور؛ رغم أنه كان على مذهب العراقيين<sup>11</sup> في البداية،

8- أسد بن الفرات [212هـ/827م]، أنظر ترجمته في: المصدر نفسه، المجلد الأول، ج2، ص465-476، وابن خلدون المقدمة، ص569، وحسن حسني عبد الوهاب: وراثة عن الحضارة العربية، ص42، ومحمد عبد الله عنان: تراجم شرقية وأندلسية، ص152-157.

9- القاضي عياض: المصدر نفسه، المجلد الأول، ج1، ص54

10- أبو عبد الله بن سحنون محمد بن عبد السلام بن سعيد التنوخي: آداب المعلمين، ملحق بكتاب: أحمد فؤاد الأهوازي، التربية في الإسلام، دار المعارف القاهرة،

1983، ص33

11- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص152

### أهم المؤلفات في التفسير ومميزاته:

إن كان لعلماء المغرب الأوائل السبق في علم التفسير قبل مبادرة المشاركة إلى التأليف في هذا العلم، ورغم ذلك يبقى علماء المغرب في هذا المجال عموماً أكثر تخرجاً في مجال تفسير القرآن بالمقارنة مع علماء المشرق، وما يعطى من أمثلة على ذلك، الإمام المقرئ الجيد الذي رفض أن يلقي دروس التفسير بمحضر السلطان وكذلك أبي عثمان المريني، والفقهاء الشريف التلمساني، واعتبر بأن الإمام الشريف التلمساني أكثر منه أهلية، ولهذا بالضبط شتّى بعض العلماء حملة عنيفة على أهل التأويل، مثل الفقيه الأبلبي، وشايعة المقرئ في هذه الحملة، وما يلخص به من التفسير هو في إطار ما تفهمه العرب بطباعها باللغة والبلاغة، لبيان إعجاز القرآن ونحوه.

ومن التفاسير التي كانت تدرس في بلاد المغرب "تفسير الحراني" وكان يدرسه بنفسه، وتفسير القاسم بن سلام، وتفسير المحكم عند الرستميين، وتفسير عبد الحق بن عطية الأندلسي.

أما أهم المؤلفات في التفسير فمنها تفسير ينسب إلى بعض العلماء الخوارج، تفسير أبي يعقوب الورغلائي، وتفسير لبعض علماء التصوف كتفسير عبد الجليل بن موسى الأنصاري القصري (توفي سنة 608هـ)، وتفسير ابن جرجان الإفريقي، توفي بمراكش سنة 536هـ، وهو الذي ناظره علي بن يوسف فيه، الفتوحات الريانية في المواعظ المرجانية يفسر 26 سورة جمعها ابن السكري.

أما التفاسير السنوية كتفسير ابن سلام (ت200هـ) الذي كان متأثراً بالاتجاه المالكي في الأحكام، ومن تفاسير القرن (5هـ) التفسير الجامع لعلوم التنزيل لأحمد بن عمار التيمي المهدي (ت440هـ)، وكذلك تفسير علي بن فضال (ت479هـ)



الموسوم بالبرهان وهو في 20 مجلدا، وكان حنبلي المذهب، وشرف الدين البوني (ت 440هـ)، أما في القرن 07، فقد عرف تفسير أحمد بن عشايب الإفريقي (ت 630هـ) في مجلدين، وتفسير ابن بكر الوهراني الملقب بخطيب دارية (ت 815هـ) وتفسير البيان والتحصيل المطلع على علوم التنزيل لابن بزيمة التنمي (ت 674هـ) من فقهاء تونس.

**3- في علوم الحديث:** دخل علم الحديث إلى المغرب مع بعض الصحابة أثناء الفتوحات الإسلامية، مثل عمرو بن العاص، عقبة بن عامر، المقداد بن أسود، أما الصحابة الذين وصلوا إلى إفريقيا مثل معاوية بن بن حديج، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، ومن كبار التابعين عقبة بن نافع، وعاصم بن عمر بن الخطاب، ومروان بن الحكم، والزيبر بن عبد الله، ثم بدأت في القرن 02هـ طبقة من تلامذتهم، اهتموا بالحديث تدريسا وتدوينا، ومزجوه بالفقه، غير أن مرحلة الازدهار الحقيقي الأولى في علوم الحديث كانت خلال القرنين 03 و04هـ، حيث برز من كبار المحدثين، موسى بن معاوية القيرواني (ت 240هـ) انتقل إلى قرطبة وحديث بها، وهناك توفي، وعباس بن الوليد الفاسي (ت 218هـ) سكن تونس، وسعيد بن إسحاق الكلبي (ت 295هـ) وهو من تلاميذ الإمام سحنون القيرواني.

ثم تأتي مرحلة ثانية لازدهار هذا العلم خلال القرنين 06 و07هـ، وعدّها البعض نهضة حقيقية في شمال إفريقيا، عموما وتونس وتلمسان وسبتة ومراكش وفاس خصوصا، فقد أقبل الطلب على دراسة الحديث في المغرب الأقصى في عهد المرابطين، وإن لم يكن بتشجيع مباشر منهم، ثم بلغ الذروة أيام الموحدين وتشجيعهم وللطلبة الذين يظهرون اهتماما في طلبه، وفي عهد الموحدين وفد أعداد من المحدثين القادمين من الأندلس، في غمرة حركة الاسترداد، أو القادمين بالطلب من الخلفاء المستقدمين لهم، ومن أمثال هؤلاء، علي بن أحمد الأنصاري الطليطلي، استوطن فاس، وتولى بها تدريس الحديث والقراءات وهو من شيوخ أبي الحسن القطان، ومالك بن وهيب، وقام بتدريس الحديث أيام علي بن يوسف المراكشي وكان يجمع بين العقلية والتشريعية، وعبد الحق بن عبد الرحمن الإشيلي، المتوفى سنة (582هـ) استوطن بجاية، وتولى القضاء بها، ومن تلاميذه المحدث أبو ذر الخشمي وأبو الحجاج البلوي من (لبلة)، وعبد الحق صاحب الأحكام البكري، والصغرى، مالكي المذهب، وأحمد بن عبد الصمد، الخزرجي من قرطبة، (ت 528هـ) استوطن بجاية ثم فاس، وأسمع بها الحديث، ومن طلبته: أبو الحسن بن عتيق ابن الدباغ الأندلسي (ت 652هـ) بتلمسان كان مبرزا في الحديث، ومحمد بن عبد الرحمن التيجي (ت 610هـ) رحل إلى المشرق وبرز في الحديث وأسمعه بسبتة، واستقر بتلمسان وله مؤلفات منها معجم شيوخه...

## العلوم العقلية في الحضارة الإسلامية:

### أولا/الترجمة والنقل

#### I- مفهوم النقل ودوافعه.

أ- مفهوم النقل

ب- أهمية الترجمة

د- دوافع وأسباب الترجمة والنقل

#### II- بدء النقل وأشهر النقلة

أ- بدء النقل

ب- العصر الذهبي

ج- خصائص الترجمة والنقل

## المحور الثاني: العلوم العقلية في الحضارة الإسلامية

### أولا/ حركة الترجمة

#### 1- مفهوم النقل ودوافعه.

أ- مفهوم النقل: تعني بذلك الترجمة والنقل معنيين:

- الترجمة هي نقل الكلام من لغة إلى لغة، مطلقا أما النقل فإذا أطلق فيقصد به النقل من لغة أجنبية إلى لغة عربية، ويسمى التعريب.

ب- أهمية الترجمة: الترجمة تزيل الحدود الفاصلة بين الثقافات وتقارب بينها، وهي وسيلة مثلى للتواصل بين مختلف الحضارات، والشعوب المختلفة اللغات، فالترجمة أو النقل وسيلة إغناء وإثراء بين الشعوب، كما أنها وسيلة تمازج، وتعارف بين الأمم، ومختلف الشعوب والحضارات وغيرها.

د- دوافع وأسباب الترجمة والنقل: هناك مجموعة من الأسباب الداخلية والخارجية ساعدت على ذلك منها:

- دعوة الإسلام إلى طلب العلم وتحصي المعارف، وذلك وارد بكثرة في نصوص القرآن والسنة<sup>494</sup>، وحثه الشديد، والبحث والنظر مما أدى بالمسلمين إلى الخروج إلى أفق محدودة أرحب وأوسع.

- حاجة الدولة الإسلامية من الاستفادة من خبرات الأمم الأخرى وخاصة التي أسلمت منها، وكانت عريقة حضاريا، وعلميا وفنيا وإداريا، وحاجة المفكرين المسلمين إلى الاطلاع على تراث السابقين<sup>495</sup>.

<sup>494</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص32

<sup>495</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص34

-تشجيع الخلفاء والأمراء العباسيين منهم (المنصور والرشيد، المأمون)، وكان المأمون منشغلا بالفكر والفلسفة<sup>496</sup>، وكان يعطي البعض من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية وكان راتب بعضهم في الشهر خمسمائة دينار على ملازمة النقل والترجمة<sup>497</sup>.

-حاجة المسلمين إلى علوم تساعدهم إلى أداء فرائضهم كالحساب وتقويم الوقت وتساعدهم على تنظيم شؤونهم المالية، وضبط حساباتهم خاصة، بعد توسع الفتوح ووفرة الخراج<sup>498</sup>.

-انتشار اللغة العربية من الفتوح وسيطرتها، ولذلك دعت الحاجة والضرورة أن ينتقل إليها تراث تلك الشعوب.

- حاجة الدين إلى أساس نظري يقوم عليه، نقد أدى ظهور التيارات والفرق (فكرية وعقادية) وتباينها هي الحاجة إلى اكتساب وسائل جديدة للجدل والخصام، فاضطر العلماء من الاستفادة من الفلسفة والمنطق، من مصادرها الأجنبية فكانت الترجمة والنقل هي الواصل بينهما.

-شعور العرب والمسلمين في وقت مبكر أن العسكري والسياسي، والاقتصادي الذي ليس بشيء، ما لم يقتضي بمنهج علمي ويفتح عقلي مضاهاة بالشعوب والأمم المتحضرة المفتوحة.

-حاجة المسلمين إلى علاج جديد في المجتمعات الحضارية الناشئة تختلف عن أمراض البادية البسيطة، بعد أن تفشت أمراض الحضرة.

-احتكاك المسلمين بالعناصر المثقفة في البلاد المفتوحة، وتفاعلهم مع الحضارات والأفكار الجديدة.

-انتقال العاصمة من دمشق ثم بغداد، وهي لم تكن نقلا جغرافيا بل كان نقلا للدولة الإسلامية، من عالم ومن دولة إلى دولة من طراز إلى طراز.

-استقلال أوقات الفراغ وتوسع العمران الذي مناسبا للإنتاج<sup>499</sup>.

أما الدوافع الخارجية، فأهمها: ازدهار الحضارة اليونانية وثورتها وخاصة عند الفتح الإسلامي، وخاصة في البلدان المتاخمة.

## II-بدء النقل وأشهر النقلة:

أ-بدء النقل: بدأت طلائع حركة الترجمة والنقل إلى اللغة العربية في العصر الأموي وكان أول عهد للنقل والترجمة في عهدهم، وتميزت الترجمة في عهدهم بأنها ترجمة فردية ومحدودة، وتميزت بالانتصاب على نقل العلوم الكمية، وظلت بعيدة عن الإنسانية، والإلهيات حتى العصر العباسي، وقد اشتهر من المترجمين في عهدهم خالد بن يزيد بن معاوية [ت85هـ/704م]، وصار تلميذا لماريانوس ودرس عليه الكيمياء والطب والفلك، وألف في ذلك الكتب والمؤلفات<sup>500</sup>، كان مستغلا بالكيمياء، وهو الذي نقل إلى العربية كناشا في الطب (موسوعة طبية يونانية)، وكتبا أخرى في الطب والنجوم والكيمياء<sup>501</sup>، وهو الذي أمر بإحضار جماعة من

<sup>496</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص35

<sup>497</sup> - أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، ص297

<sup>498</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص36

<sup>499</sup> - داود خليفة: محاضرات في مقياس العلوم والصناعات

<sup>500</sup> - مونستر ثيجل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1429هـ/2007م، ص79

<sup>501</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1986م، ص5

فلاسفة اليونانيين<sup>502</sup> ممن نزلوا مصر وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل حدث في الإسلام، ثم نقل صالح بن عبد الرحمان مولى بني تميم الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج، وكان من سبي سجستان وتولى الكتابة للحجاج بعد مقتل كاتبه زاد أنفروخ بن ييري في فتنة ابن الأشعث، كما كان الديوان في الشام بالرومية فنقل إلى العربية زمن هشام بن عبد الملك على يد أبي ثابت سليمان بن سعد مولى حسين<sup>503</sup>، وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد أمر عمر بتوسيع المجموع الطبي، بأنطاكية، واستقدم إليه الأطباء من الإسكندرية وأمرهم في نفس الوقت، بنقل المؤلفات الطبية إلى العربية، وكانت هذه مجرد بداية أخذت تتوسع بعد ذلك ولا سيما في عصر المأمون، حيث نقلت علوم كثيرة إلى العربية. وكان عهدهم عهد التأثير غير المباشر وخاصة في علم الطبيعة والطب، وكان طلبة العلم على اتصال مباشر بأعمال الفلاسفة الإغريق<sup>504</sup>، ونشطت الحركة أكثر أوائل العصر العباسي بداية من استيلاء العباسيين على الخلافة إلى عصر المأمون [132-198هـ]، حيث قام مترجمون معظمهم من المسيحيين واليهود ومن دخل في الإسلام والديانات الأخرى بأعباء الترجمة، وتأسست في هذه المرحلة مدرسة ببغداد لهذا الغرض<sup>505</sup>، وواكب تلك الحركة إنشاء المكتبات العامة والخاصة والتوسع فيها<sup>506</sup>، ومرت الترجمة في العصور العباسية الأولى بثلاثة مراحل، المرحلة الأولى بين [136-193هـ] من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد، وابتدأت بنقل كتب التراث اليوناني، وكان المنصور أول خليفة عباسي ترجمت له الكتب، وأهمها: كليلة ودمنة والسند هند والكتب المنطقية لأرسطو وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب أرثاطيقي وسائر الكتب من اليونانية والبهلوية والسريانية<sup>507</sup>.

أما المرحلة الثانية بين [198-300هـ]، وفيها تم نقل أهم كتب التراث اليوناني في كل فن، منها المجسطي الذي ترجمه ابن البطريق للمأمون، والحكم الذهبية لمنسوب لفيثاغورس، وكافة مصنفات أبقراط وجالينوس، وكتاب طيماوس لأفلاطون، وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون وكتاب النواميس، وكتاب جوامع المحاورات الأفلاطونية لجالينوس وكتاب المقولات لأرسطو<sup>508</sup>.

أما المرحلة الثالثة وتنحصر بين [300-350هـ]<sup>509</sup>، وأكثر الكتب المترجمة في هذه المرحلة، الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو، وبعض الكتب الهندسية والعلمية<sup>510</sup>.

**ب- العصر الذهبي:** كان القرن 03هـ/09م عصر الترجمة، وقد أجمع العلماء أن عصر المأمون العباسي حكم (192-218هـ) هو أزهى عصور الترجمة حيث في عهده بلغت الحركة أوج ازدهارها<sup>511</sup>، وفي عصره حصلت النهضة العلمية الحقيقية في تاريخ الدولة الإسلامية كله وتميز هذا الدور بإيفاد البعثات العلمية، وبالاستفادة من مواردها الأصلية، وتشجيع ترجمة أمهات الكتب الأجنبية، ن مختلف اللغات في الفلسفة، والطب، والرياضيات والطبيعة، والفلك والسياسة، ونظم الحكم، وأخص ما تميز به هذا العصر بازدهار

<sup>502</sup> - أثر اليونان في الثقافة الإنسانية كان عظيما، أمدوا العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكرهم، وأن العرب وقفوا على علمي الفلسفة اليونانية

ومنتجات العقول اليونانية، أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1997م، ج1، ص135

<sup>503</sup> - أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، ج1، ص50-51

<sup>504</sup> - مونستر ثيجل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، ص73

<sup>505</sup> - المصدر نفسه، ص99

<sup>506</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص5

<sup>507</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص35

<sup>508</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص61

<sup>509</sup> - المصدر نفسه، ص4

<sup>510</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص62

<sup>511</sup> - المصدر نفسه، ص10، و محمد عويي عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب الأوربي، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م،

بيت الحكمة، أخذ مآثر الخليفة هارون الرشيد، وجمع فيه مختلف أنواع الكتب من هندية أو فارسية أو يونانية<sup>512</sup>، وكان اهتمامه بالعلم حيث أنه عند فتح عمورية وأنقره<sup>513</sup>، وأمر بالحفاظ على ما فيها من المكاتبات والتصانيف، ثم انتدب طائفة من العلماء الذين يعرفون اللغة السريانية، واليونانية بالفحص كل ما تحتويه تلك المكتبات من كتب الطب والفلك، فرجع العلماء بالناس والنادر للكتب فأودعها في بيت الحكمة وولى عليها، فكان عمله هذا تمهيدا لانطلاق حركة الترجمة بعد ذلك<sup>514</sup>.

والطبيب يوحنا بن ماسويه 243/857م وهو أول من ولي أمينا على مكتبة بيت الحكمة وكان هذا الأخير من أعظم أكاديمية للعلوم والفلسفة والآداب، فوجدت في بغداد منذ عصر الرشيد دارا للكتب ومعهد للعلماء<sup>515</sup>، وظهرت بعده مدرسة الإسكندرية، التي كانت مركزا مهما للعلوم اليونانية، وبها أعداد كبيرة من كتبهم<sup>516</sup>، وفي عهد المأمون ولي على بيت الحكمة سهل بن هارون واتسعت بما أضيف إليها من خزائن المدن التي استقدمت من بلاد فارس والهند، وقد ضمت علماء اختلفت أوطانهم، ولغاتهم، ومذاهبهم، ولكنهم اتفقوا جميعا على هدف واحد في بيت الحكمة على الاشتغال بنقل تلك العلوم المختلفة الأوطان واللغات إلى اللسان العربي.

ووصفت المصادر بيت الحكمة بكونه مؤسسة كاملة قائمة بذاتها يتكون من غرف متعددة، تمتد بين أروقة طويلة وتنقسم هذه الغرف إلى أقسام تبعا للعاملين فيها، وأخرى للسياحين، وغرف للمجلدين والوراقين وغرف للخازنين، والمناولين وفي غرف المخزن رفوف بعضها غرف بعض وغرف خاصة بالتدريس والمحاضرات، وقاعة للاستراحة وكانت بين الحكمة مجهز بأثاث فاخرة، وفراش، وكانت الأرض تفرش بالأبسطة ورخيت كالأبواب والنوافذ الستائر.

وكان العمل بها منتظما فكان المترجمون بها قسمان: قسم يترجم رأسا من اليونانية إلى العربية أو الفارسية، السريانية، الهندية، العبرية أو القبطية، وقسم آخر يترجم باللغة الأجنبية إلى الأجنبية وكان هناك مصححون ومراجعون.

**ج- خصائص الترجمة والنقل وأشهر النقلة:** كان القسم الأكبر من النقل إلى السريانية، وبعضهم مسطرة، ويعاقبه، وقليل منهم أرثوذكس ومارونيون، وأقل منهم يهود ووثنيون، كما اختص المسلمين بالنقل إلى الفارسية والهندية، والعبرية وغيرهم من نقل من السريانية إلى اليونانية، ومن أشهر النقلة هم:

- يحيى بن ماسرجويه وهو طبيب فارسي الأصل، يهودي الديانة، استعان به الخليفة عمر بن عبد العزيز في نقل الكناشة ترجمها إلى السريانية، وأشرف على المدرسة الطبية التي تكونت في بغداد<sup>517</sup>.

- يحيى بن البطريق كان أسقفا بكنائس مصر يعتقد مذهب اليعقوبية، ثم رجع عن عقيدة الثلاث، وأدركه الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص<sup>518</sup>، كان في أيام المنصور، وهو من أوائل المترجمين في العصر العباسي، وهو مترجم كتاب السياسة، في

<sup>512</sup> - أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، ج 1، ص 295

<sup>513</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص 58

<sup>514</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة، ص 10

<sup>515</sup> - المصدر نفسه، ص 27

<sup>516</sup> - محمد عوني عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية، ص 67

<sup>517</sup> - مونستر ثيجيل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، ص 102

<sup>518</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص 57

تبذير الرياسة لأرسطو طاليس، وكتاب المجسطي<sup>519</sup>، وترجم طيماوس لأفلاطون وأوقليدس في الهندسة، وكان يترجم أيضا من القبطية إلى العربية<sup>520</sup>

-جورجيس بن جبرائيل الطبيب 148هـ، ونقل للمنصور كتبا كثيرة من اليونانية إلى العربية<sup>521</sup>

-عبد الله بن المقفع ت143هـ، وهو فارسي زرادشتي اعتنق الإسلام على يد أخ محمد بن علي أبي السفاح وأصبح أمينا لسره، وعاش في عهد المنصور ترجم بعض كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة وهي كتاب: قاطاغورياس وكتاب باري أرمنياس، وكتاب المدخل إلى كتاب المنطق المعروف بايساغوجي لفرفوريوس الصوري، وترجم الكتاب الهندي المعروف بكليلا ودمنة<sup>522</sup>، وكتاب أتولو طيقاواالمجسطي لبطليموس وكتب إقليدس<sup>523</sup>، ونقل تراث الفرس إلى اللغة العربية، وهو أول من ترجم من الفارسية إلى العربية، ولم تكن الثقافة الفارسية مما يستهان بأمرها أو يغمط قدرها، وأفادت الثقافة العربية بما إفادة من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم<sup>524</sup>.

-الطبيب يوحنا بن بختيشوع كَانَ طَبِيبًا مَمِيزًا خَيْرًا بِاللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالسَّرْيَانِيَّةِ وَنَقَلَ مِنْ ذَلِكَ كِتَابًا كَثِيرَةً وَخَدَمَ بِالطَّبِّبِ الْمُؤَفَّقِ بِاللَّهِ طَلْحَةَ بْنَ جَعْفَرِ الْمُتَوَكِّلِ وَكَانَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَيَسْمِيهِ مَفْرَجَ كَرْبِي وَكَانَ الْمُؤَفَّقُ إِذَا جَلَسَ لِلشُّرْبِ يَقْدُمُ بَيْنَ يَدَيْهِ صِنِيَّةَ ذَهَبٍ وَمَغْسَلٌ مَذْهَبٌ وَخَرْدَاذِي بَلُورٍ وَكُوزٌ وَيَجْلِسُ يُوْحَنَّا بْنُ بَخْتِيشُوعَ عَنِ يَمِينِهِ وَيَبِينُ يَدَيْهِ كَذَلِكَ وَيَبِينُ يَدِي غَالِبِ الْأَطْبَاءِ وَالْجُلَسَاءِ صَوَانِي مَدُهُونٍ وَقِنَانِي زَجَاجٍ وَنَارَنْجٍ<sup>525</sup>

- الطَّيِّبُ يُوْحَنَّا بْنُ مَاسُوِيَهٍ كَانَ طَبِيبًا ذَكِيًّا فَاضِلًا خَيْرًا بِالطَّبِّبِ وَلَهُ كَلَامٌ حَسَنٌ وَتَصَانِيفٌ مَشْهُورَةٌ وَكَانَ مَبْجَلًا حَظِيًّا عِنْدَ الخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ أَكْتَسَبَ مِنَ الطَّبِّبِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَكَانَ نَصْرَانِيًّا خَدَمَ الرَّشِيدَ وَالْأَمِينَ وَالْمَأْمُونَ وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَيَّامِ الْمُتَوَكِّلِ<sup>526</sup>، وفد إلى بغداد في جند نيسابور، وأقام بها مستشفى وتولى إدارة بيت الحكمة، أيام الرشيد وجعله أمينا على الترجمة، ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه وكان مشرفا على الكتب الواردة من بلاد الروم، وكان يتقن السريانية والعربية، وكان طبيبا ماهرا، واشتغل في كتب الطب<sup>527</sup>.

-وسلام الأبرش كان أيام البرامكة

-وباسيل المطران<sup>528</sup>

-يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون، كان أمينا على الترجمة، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، تولى ترجمة كتب أرسطو وبعض كتب أبقراط<sup>529</sup>.

<sup>519</sup> - محمد عوني عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية، ص86

<sup>520</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص57

<sup>521</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص57

<sup>522</sup> - أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، ص136

<sup>523</sup> - مونستر ثيجيل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، ص99-101

<sup>524</sup> - أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، ص135-136

<sup>525</sup> - صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنؤوط وتركبي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت،

1420هـ-2000م، (ج29/30)

<sup>526</sup> - الوافي بالوفيات (29/30)

<sup>527</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص58-59

<sup>528</sup> - محمد عوني عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية، ص86

-الحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفي [حي 214هـ]<sup>530</sup>

-قسطا بن بن لوقا البعلبكي [حي 220هـ]، كان طبيبا حاذقا وفيلسوبا منجما وعالم بالهندسة والحساب<sup>531</sup>

-عبد المسيح بن ناعمة الحمصي [حي 220هـ]<sup>532</sup>.

-ملحد الفزاري: كان عالما في عصر المنصور، اشتهر بعلم النجوم، كان يشتغل بالترجمة من الهندسية إلى العربية، نقل كتابا إلى العربية في علم الفلك بأمر من المنصور.

-ابن المطرف: نقل كتاب الماحسطي لبطليموس.

-يسهل بن ريان الطبري يهودي أسلم في خلافة الرشيد، ترجم كتاب الأصول بأقليدس آل نخت يشوع، اشتهر منه جرويس كان طبيب الخليفة للمنصور يترجم من اليونانية إلى السريانية، وجبرائيل بن يتشيع كان طبيبا، خدم هارون الرشيد 23 سنة وكذلك ابنه الأمين والمأمون له وآل حنين وهم ثلاثة أبناء: حنين بن إسحاق، كان عالما باللغات الأربعة العربية والسريانية واليونانية والفارسية، وهو تلميذ يوحنا بن ماسويه<sup>533</sup>، وكان قائما على الترجمة وتصحيح ترجمات من قبله، وترجم الكتب الطبية كتاب جالينوس في قانون صناعة الطب وتوفي سنة 260 أو 264 هـ/873 أو 877 م، وابنه إسحق بن حنين ت 298 هـ/910 م، ونقل من الكتب اليونانية إلى العربية الكثير، وكان يركز على نقل الكتب الحكمية مثل كتب أرسطاطاليس وغيره من الحكماء<sup>534</sup>، وابن أخيه حبش بن الحسن الدمشقي [300 هـ/913 م] ابن أخت حنين وقام بنقل كتب أبقراط إلى العربية<sup>535</sup> ونقل رسالة في التغذية والروائح، وكناشا في الطب نقل فيه عن جايوسى.

-آل قره وهم ثابت بن قره بن مروان الصابي الحراي [ت 225-289 هـ/825-901 م]، الحكيم الحاسب المنجم الصابىء، له مؤلفات في الفلك والطب والرياضيات والفلسفة<sup>536</sup>، كان يتقن ثلاث لغات: اليونانية والسريانية والعربية، وقام بترجمة كتب الرياضيات والفلك، كما ألف حوالي مائة وخمسين كتابا في المنطق والرياضيات والفلك والطب بالعربية، وخمسة عشر كتابا بالسريانية، وكان له تلاميذ كثيرون منهم عيسى بن أسيد مترجم كتب ثابت السريانية إلى العربية، ومن آل قره أيضا سنان بن ثابت بن قره ت 360 هـ<sup>537</sup> وكان أحد المترجمين أيضا.

-ابن الوحشية مؤلف كتاب الفلاحة النبطية سنة 303 هـ/904 م

-متى بن يونس حيا سنة 330 هـ

-يحيى بن عدي ت 364 هـ

<sup>529</sup> - محمد عوني عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية، ص 86

<sup>530</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص 60

<sup>531</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص 60

<sup>532</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص 60

<sup>533</sup> - محمد عوني عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية، ص 84

<sup>534</sup> - محمد عوني عبد الرزاق: تاريخ الترجمة العربية، ص 88

<sup>535</sup> - عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية، ص 60

<sup>536</sup> - شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (المتوفى: 1167 هـ): ديوان الإسلام، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،

ط 1، 1411 هـ/1990 م، (2/48)

<sup>537</sup> - محمد عوني عبد الرؤوف: تاريخ الترجمة العربية، ص 85

-أبو علي بن زرعة [331-398هـ]

-هلال بن هلال الحمصي

-عيسى بن سهرنخت<sup>538</sup>

ثانيا/ الطب عند المسلمين:

تعريفه:

لغة

اصطلاحا

د- مفهوم الطب الإسلامي

ب- مراحل الطب الإسلامي:

1- مرحلة الترجمة

ب- التشريح والجراحة:

1/ التشريح

الخلاصة

ثانيا/ الطب عند المسلمين

أ/ تعريفه في اللغة والاصطلاح

أ/ تعريفه: لغة: من طب المريض يطبه أي دواه من مرض.

ب/ اصطلاحا: هو علم ينظر في بدن الإنسان، من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبراء المرض

بالأدوية والأغذية<sup>539</sup>، ويحاول دراسة الأمراض قصد إيجاد الدواء المناسب لها.

ج- مفهوم الطب الإسلامي: هو ذلك الطب الذي يشتمل على أنواع العلاج المختلفة من نباتات وأعشاب، وعلاج

بالقرآن بعيدا عن انحرافات والسحر والشعوذة، وفي الطب الإسلامي نجد الطب النبوي، وتروي تفاصيله عنه -صلى الله عليه وسلم-

وإرشاداته، كما يعتمد على الكي والفصد والحجامة والختان، وبعض العمليات الجراحية البسيطة<sup>540</sup>، وله ميزات:

1/ أنه يقوم على أساس الطب العربي والمبني على الاختبار والتجربة، وللبادية من أهل العمران طبٌ ينونه في غالب الأمر

على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وكان منه عند العرب الكثير<sup>541</sup>.

<sup>538</sup>- المصدر نفسه، ص86

<sup>539</sup>- ابن خلدون: المقدمة، ص650

<sup>540</sup>- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، مؤسسة إقرأ القاهرة، ط1403، 1/هـ/2009م، ص32



2/ تأثير الإيمان في نفس المريض... «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي»<sup>542</sup>، وقوله تعالى: « وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»<sup>543</sup>.

## ب-مراحل الطب الإسلامي:

كان الطب عند المسلمين يسمى في بدايته بعلوم الأوائل، وتعني هذه التسمية بأن الطب الإسلامي مر بمرحلة الترجمة والنقل عن الحضارات السابقة كغيره من بعض العلوم الأخرى ثم طوره من جهتهم وقدموه لخدمة الإنسانية<sup>544</sup>.

وكان الطب القديم قد اشتهر بعدة مدن منها: الإسكندرية وأنطاكية وحرّان في الجهة الغربية، وجند نيسابور بالعراق بعد قيام الدولة الساسانية في الجهة الشرقية، وهي من أكبر مراكز الثقافة القديمة وكان الطب هو أكثر فروع البحث في هذه المراكز، وبعد قبول المسيحية ديانة رسمية في القسطنطينية اعتبرت علوم الأوائل تراثاً وثنياً، وتبع ذلك ضعف المراكز العلمية الغربية وغلق بعضها كمدرسة آثينا على يد جستينيان سنة 525م، وصحب ذلك هجرة علمائها نحو الشرق فازدهرت مدرسة جند نيسابور واستفادوا من تشجيع أنوشروان حامي العلم والعلماء<sup>545</sup>، وبعد اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية دخلت تلك المراكز الثقافية والحضارية في حوز الدولة الإسلامية فظهرت ضرورة الحاجة إلى الاستفادة من الخبرات العلمية والإدارية للمسلمين الجدد وغيرهم في تلك المراكز، فانطلقت مرحلة الترجمة التي أعطت الأولوية لترجمة الكتب الطبية، وتذكر المصادر بداية العهد الأموي بداية لها، حيث أن خالد بن يزيد بن معاوية [85هـ/704م] هو الذي أمر بترجمة أوائل كتب الطب إلى اللغة العربية<sup>546</sup>.

ولهذا يمكن أن نميز في الطب الإسلامية عدة مراحل تطور عبرها وأولها مرحلة الترجمة

**1-مرحلة الترجمة [61-300هـ]:** وفيها قام الأطباء المسلمون، وغيرهم بترجمة كتب الطب القديمة اليونانية خاصة وتعرفوا عليها عبر مدرسة الإسكندرية ومدرسة جند نيسابور<sup>547</sup>، وكذلك الكتب الهندية والفارسية، بغية الاستفادة منها، وخاصة الطب اليوناني ومنها مؤلفات جالينوس إمام هذه الصناعة، وتأليفه هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده<sup>548</sup> وغيرها: مثل كتاب الصناعة، وكتاب الأسطقساسة، وكتاب المزاج، وكتاب تدبير الأصحاب، وثلاث كتب عن مداواة الأمراض، وكتاب العلل والأعراض، وكتاب في النبض والأورام، وشروح كثيرة على رأي أبوقراط<sup>549</sup>.

تذكر المصادر بأن الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية [85هـ/704م] استدعى علماء الطب من الإسكندرية إلى دمشق وشكل منهم لجنة للإشراف على ترجمة كتب الطب والكيمياء والنجوم برئاسة اصطفن القديم<sup>550</sup>، كما تولى طبيب الخليفة الأموي مراون بن الحكم [65هـ/685م] مَسْرُجُوَيْه البصري اليهودي [101هـ/720م] ترجمة كُنَّاش في الطب أحد أطباء مدرسة الإسكندرية

541- ابن خلدون المقدمة، ص 651

542- سورة الشعراء الآية (80)

543- سورة الإسراء (82)

544- رمضان ششون وجبيل آفيقار وحواد ازكي: فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغة العربية والفارسية والتركية في مكتبات تركيا، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول،

1404هـ/1984م، ص د

545- المرجع نفسه، ص د

546- المرجع نفسه، ص هـ

547- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 33

548- ابن خلدون: المقدمة، ص 651

549- مونستر ثيجيل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، ص 102

550- المرجع نفسه، ص هـ، والفهرست، ص 330+340+497

يسمى هارون إلى اللغة العربية، ثم أمر بعد ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز [99-101هـ/] باستنساخه في عدة نسخ<sup>551</sup>، ثم قام طبيب الخليفة عبد الملك بن مروان وواليه الحجاج بن يوسف بتأليف كُنْاشة في أفضال الأدوية وفصول الطب<sup>552</sup>.

أما في العصر العباسي الأول فقد ازدادت سرعة حركة الترجمة والتأليف في مجال الطب بتشجيع من الخلفاء، وبعد تأسيس بغداد سنة 148هـ/765م، جاء بطبيب نسطوري اسمه جورجيس بن بختيشوع من مدرسة جند نيسابور وجعله طبيب القصر، ثم اتصل بالبلاط مجموعة من الأطباء النسطوريين وتكونت بهم مدرسة طبية في بغداد، وأخذ مكان جورجيس تلميذه عيسى بن تاكر بخت وألف كتابا في العلاج، ثم جاء طبيب هارون الرشيد 171هـ/787م بختيشوع بن جورجيس، وبعده جبرائيل الابن الآخر لجورجيس الذي كان في خدمة جعفر البرمكي سنة 175هـ، وكتب رسالة في الأطعمة والأشربة ومتنا في الطب<sup>553</sup>، ولم يكتفوا بمجرد الترجمة، بل قاموا بالتطوير والإضافات عن طريق الاجتهاد والبحث.

أما الخليفة الخليفة المنصور العباسي [185هـ/775م] وأسرة البرامكة فقد شجعوا السريان بمدرسة نيسابور مع الوافدين من الهند ثم الحرانيون والنبطيون، وتولى طبيب الخليفة المنصور جرجيس بن جبريل رفة سرجيوس بطريق بغداد نقل الكثير من مؤلفات أبقرات وحالينوس إلى العربية، وإن كانت لا ترقى إلى ترجمة حنين حسب ابن أبي أصيبعة<sup>554</sup>.

وإزداد الإقبال على الترجمة والتأليف بعد قدوم أطباء الهند كَنَكة الهندي ومُنَجَّه وشاناق الذي ألف كتاب السموم، ومَنَكة وصالح بن بظضهله الهندي الذي صار رئيس بيمارستان البرامكة<sup>555</sup>.

لكن أصح الترجمات الطبية هي التي كان يقدمها حنين بن إسحاق [260هـ/873م] الذي نالت أعماله إعجاب أطباء المسلمين، فضهرت حركة إصلاح وتصحيح الترجمة على يده برفقة غيره مثل أحمد بن موسى وحُبَيْش بن الأعسم وعيسى بن يحيى وثابت بن قُرّة بعد ذلك، فهؤلاء قاموا بحركة تصحيح هامة وأصلحوا التراجم السابقة وترجموا كتباً جديدة ومنها مؤلفات أبقرات مثل ما اشتهر منها: العهد والفصول وتقدمة المعرفة، ومؤلفات جالينوس وأهمها: الكتب الستة عشر وعنون ملخصها بجوامع الإسكندانيين تولى ترجمتها حنين وابن أخته حبيش، ومؤلفاته في التشريح تولى ترجمتها اصطف بن باسيل، ثم بدأت الشروح على كتب أبقرات حتى بلغت المائة والثلاثين ترجمة لهذه الشروح، ترجم حنين بن إسحاق وابن أخته حُبَيْش بن الأعسم حوالي سبعين منها<sup>556</sup>.

ويمكن أن نقول بأن هذه المرحلة هي بداية تشكل مدرسة الطب الإسلامي الأولى على مستوى المشرق، بفضل جهود المترجم والمؤلف حنين بن إسحاق [260هـ/873م] وهي مدرسة بغداد التي ضمت بالإضافة إليه أحمد بن موسى وحُبَيْش بن الأعسم وعيسى بن يحيى وثابت بن قُرّة بعد ذلك<sup>557</sup>، وبهؤلاء الرجال وجهودهم يمكن أن نجزم القول بتشكيل المدارس الطبية الإسلامية التي هي النواة الأولى والقاعدة التي أسست لظهور وانتشار المدارس الطبية الإسلامية في المشرق والمغرب عموماً.

## 2- مرحلة الاستنباط والتأليف [بعد 300هـ]:

كان ذلك بعد النصف الأول من القرن الرابع الهجري، حيث ظهرت بشائر هذه المرحلة وبلغ الطب ذروته، ومن أكبر الأطباء في هذه المرحلة أبو بكر الرازي [313هـ/925م] وكتابه الحاوي الكبير، وابن

551 - المرجع نفسه، ص هـ، ابن خلجل: طبقات الأطباء والحكماء، القاهرة، 1955، ص 61، + ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصر 1299هـ/1882م، ج 1، ص 163

552 - المرجع نفسه، ص هـ، و عيون الأنباء، ج 1، ص 123، + سزكين، ج 3، ص 207

553 - مونستر ثيجيل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، ص 102

554 - رمضان ششن وجميل آقبقار وجواد آكي: فهرس مخطوطات الطب الإسلامي، ص و، و الفهرست، ص 340، و عيون الأنباء، ج 1، ص 128 و 203 و 205

555 - المرجع نفسه، ص و، + الفهرست، ص 340، + عيون الأنباء، ج 2، ص 32-35، + فؤاد سزكين، ج 3، ص 188-202

556 - المرجع نفسه، ص و- ز، + الفهرست، ص 400-405، + عيون الأنباء، ج 1، ص 80-150

557 - المرجع نفسه، ص و- ز، + الفهرست، ص 400-405، + عيون الأنباء، ج 1، ص 80-150

سينا[428هـ/1037م] وكتابه القانون بعد ذلك، والذين كان لهما عظيم الأثر في الطب الإسلامي والطب الأوربي<sup>558</sup>، ثم من جاء بعدهم.

واستطاع أطباء المسلمين بأقصر ما يمكن أن يسيطروا على الطب وحدهم، وعزوا أنفسهم بأنهم حاملو لواء هذا العلم، والمسئولون عن تقدمه وارتقائه خلال العصور الوسطى المظلمة في أوروبا، ودون شك فإنهم تفوقوا على علماء اليونان، وتدل الوثائق التاريخية على أن جميع الأطباء المؤلفين الأوربيين في الطب استقوا معظم كتاباتهم من العرب عن اليونان، وقد حصل إجماع مؤرخي العلوم أن ما قدمه علماء المسلمين الأوائل في حقل الطب يعتبر الأساس المتين للطب الحديث، حيث أنهم أضافوا إليه عصارة أفكارهم وثمره تجاربهم، وأخرجوه طباً متجانساً متكاملًا، وألغوا فيه مؤلفات خاصة بهم، وكونوا معارف طبية خاصة بهم وأجادوا في كل فن من علوم الطب، وصححوا ما كان من أخطاء من علماء سابقين<sup>559</sup>.

### ج/خصائص الطب الإسلامي: تميز الطب الإسلامي بثلاث خصائص رئيسية

1/الخاصية الأولى: الانفتاح على سائر الحضارات في هذا الميدان، وتميز أطباء المسلمين بالأمانة في النقل عن غيرهم، وكانوا ينسبون الفضل لأهله، فلم ينسب لنفسه أحد منهم اكتشافاً طبياً لغيره<sup>560</sup>.

2/الخاصية الثانية: الاعتماد على التجربة والمشاهدة والفروض، ولم يكن فلسفياً نظرياً بحتاً، فاعتمد على التجارب العلمية والتطبيقات الواقعية، واعتمدوا المنهج التجريبي في العلوم الطبية، فكانوا يجربون على المريض طرقاً مختلفة ومتعددة في العلاج ويسجلون ملاحظاتهم في الفرق بين الطرق ويسجلون ذلك بدقة وعناية<sup>561</sup>.

3/الخاصية الثالثة: الالتزام بالضوابط الشرعية في العلاج، فإلتزموا بحفظ أسرار المريض ولا يعالجونه بمحرم شرعاً كخمر وغيرها<sup>562</sup>.

### د- إسهامات العرب المسلمين في مجال الطب

يمكن أن نقول بأن الطب قد تطور عند المسلمين وقطع أشواطاً كبيرة، فبفضل جهودهم أصبح الطب عبارة عن تخصصات في شتى الفروع: فهناك الطب العام ويشرف عليه أطباء عامون، وهناك طب العيون يشرف عليه أطباء نفس الاختصاص، وهناك الجراحة يشرف عليها أطباء جراحون، وإلى جانبهم المختصون في بيع الأدوية وهم الصيادلة والعشابين<sup>563</sup>، وظهر عندهم ما يسمى حالياً بالتخصص في تناول فروع الطب المختلفة، كالطب الجراحي وطب العيون وطب الأطفال وعلم التشريح والطب النفسي، ويتبع ذلك من تطور في طرق العلاج واكتشاف الدواء<sup>564</sup>.

**1- في مجال الطب الباطني:** بعدما استوعبوا تراث الأمم السابقة أضافوا إضافات مبنية على التجربة والاستنتاج، وهي

الطريقة التي لا تزال متبعة إلى الآن، وإليك بعض خطوات الفحص الطبي عندهم:

558 - المرجع نفسه، ص ز،

559- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص33

560- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص35-36

561- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص36-37

562- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص40-41

563 - رمضان ششن وجميل آقبقار وحواد ازكي: فهرس مخطوطات الطب الإسلامي، ص ي

564- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص43

1/فحوص البول بعناية، 2/جس النبض، 3/سؤال المريض مما يشكو، 4/طريقة معيشتة، 5/عادته، 6/الأمراض التي أصيب بها سابقا، 7/حالة عائلته، 8/مناخ البلاد التي يعيش فيها، 9/النظر في لون جلده وحالته عند الملمس، 10/لون ملحمة العين، 11/حالة التنفس، وفي قياس النبض يقيسون: 1/مقدار الانبساط، 1/زمن الحركة والسكون، 3/مقدار القوة، 4/قوام جرم الشريان، 5/كيفية جرم الشريان، 6/محتويات الشريان، 7/ائتلاف النبض واختلافه 8/جنس عدد النبض<sup>565</sup>.

ويضاف إلى ذلك دراساتهم لأمراض القلب، والدورة الدموية، والصرع، والسكتة القلبية، وشلل الأعضاء، والأمراض النفسية، وكتب ابن عيسى رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة والباطنة<sup>566</sup>، كما عالجوا نفت الدم<sup>567</sup> وقروح الرئة، والصدر، والتشنج، كما عالج الأطباء المسلمون الأمراض النفسية والعقلية بطرق مبكرة، وكانوا يخصصون في كل الترسانة المستشفى في الأمراض العقلية والنفسية، ووضعوا فيها وسائل ومؤلفات، وقد أجريت مقارنة بين الوعي الصحي عند المسلمين والأوروبيين «إنّ المزارع الأوربي، عند مرضه يسرع إلى القسيس الذي يعتمد على علاجه على الدجالين والمشعوذين، وأما المزارع المسلم الأندلسي، فكان يعتمد على الله، ثم طبيبه المختص في مهنة الطب»<sup>568</sup>.

## د-التشريح والجراحة وطب العيون:

1/التشريح: أضاف أطباء المسلمين إلى علم التشريح مساهمات كبيرة، ودرسوه ليكون عوناً لهم في دراسة مختلف الأمراض ومعالجتها، لأن معالجة المرض تعتمد على معرفة الأعضاء، والأجهزة الداخلية للمريض، ويعتبر الرازي أول من فرق بين الجراحة وغيرها من الموضوعات الطبية، وجعل أساس هذا العلم قائماً على التشريح، وألزم الطبيب الجراح بأن يكون ملماً بعلم التشريح ومنافع الأعضاء ومواقعها، ويؤكدون على حاجة المشتغلين بالطب إلى تشريح الأجسام حية وميتة، وقد شرّحو القروء كما فعل ابن ماسويه<sup>569</sup>، وقد شرّح ابن النفيس بالتفصيل تشريح العظام والأربطة والرئة والعرق والقلب وغيرها من الأعضاء، وهو مكتشف الدورة الدموية الصغرى<sup>570</sup>، كما تدل مؤلفاتهم الطبية الدقيقة لكل الأعضاء، وهذا ما ينفي قول علماء الغرب: «إنّ الأطباء المسلمين، لا يعرفونه بحجة أن الإسلام يحرمه»<sup>571</sup>.

ومن علماء التشريح، عند المسلمين أبو علي ابن سينا في كتابه القانون، وابن النفيس البغدادي، والزهرائي، وقد برع ابن طفيل [581هـ/1185م] في تشريح الأجسام الميتة والحية، وشرح ظبية حية وشق عن قلبها، كما شرح سائر الأطباء عيون الحيوانات<sup>572</sup> وقد تعرفوا على:

\*-الأذن: قالوا بها انحرافات، واعوجاجات لتطول المسافة قليلاً فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدّ منه فلا يصدّمها، ولا تُفاجأ بدخول الحشرات، وإذا دخلت إلى عوجة من تلك الاعوجاجات وقفت هناك فسهل إخراجها.

<sup>565</sup>- داود خليفة: محاضرات في مقياس العلوم والصناعات

<sup>566</sup>- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص70

<sup>567</sup>- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص46

<sup>568</sup>- داود خليفة: محاضرات في مقياس العلوم والصناعات

<sup>569</sup>- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص45-46

<sup>570</sup>- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص33

<sup>571</sup>- داود خليفة: محاضرات في مقياس العلوم والصناعات

<sup>572</sup>- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص57

\*-الأنف: عرفوا أنه يعين على النطق وتقطيع الحروف، وقالوا إذا دخل الهواء إلى المنخرين انكسر برده، ثم وصل إلى الحلق فيعتدل مزاجه ثم يصل إلى الرئة

\*-المعدة: وعرفوا دورها وأنها تقوم بطحن الطعام، وإذا ضعفت ضعفت باقي أعضاء الهضم.

\*-كما عرفوا تشريح الكبد ومكوناتها والمرارة ودورها، والطعام المهضوم، والعين ومكوناتها.

## 11-الجراحة

### 1-تطور علم الجراحة عند المسلمين

كانت الجراحة تسمى صناعة اليد وكانت من الصناعات المحترقة لارتباطها بصناعة الحجامين، وقد عرف علماء المسلمين عن الجراحة أشياء كثيرة، ونقلوا ممن تقدمهم وزادوا عليها من ابتكاراتهم، ويعتبر الزهراوي أهم وأبرز جراح، حيث أنه قام بتطوير الجراحة، وأضاف إليها أشياء كثيرة، وكانت تعاليمه ومعلوماته ووسائله وآلاته أساسا متينا بنيت عليه صُرح الجراحة الحديثة، فهو أول من ربط الشرايين الكبيرة<sup>573</sup>، وابتدع العديد من أدوات الجراحة الدقيقة في مجال العيون والولادة، وعرفوا بأن الجراحة في بعض الحالات أحسن وسيلة في حسم الداء والمسلمون أول من كتبوا في الجراحة، وأهم كتاب في الاختصاص [كامل الصناعة] لعلي بن عباس.

وحقق أبو القاسم الزهراوي خلف بن عباس (بعد 400 هـ/1009م) وهو طبيب خبير بالأدوية المفردة والمركبة، توفي بالأندلس، من تصانيفه: التصريف لمن عجز عن التأليف في الطب، والمقالة في العمل باليد<sup>574</sup>، وحقق جملة من الإنجازات المهمة، منها إيقاف نزيف الدم، ولكنها نسبت إلى الجراح الفرنسي أمبرواز باري [ambroise pare]، وظل علماء المسلمين أسياد الطب والجراحة ومعلميها في الصور الوسطى، وظلوا كذلك حتى نهاية القرن 15م، لأن الذين مارسوا الطب في الغرب بعد الزهراوي كانوا مستعربين من تلامذة العرب، وكان الطب الإسلامي لمعرفته بأهمية الجراحة دعا إلى فصلها عن الطب الباطني فأصبحت علما طبيا جديدا<sup>575</sup>.

كما استخدم المسلمون الحشيش والأيون كوسيلة للتخدير، وأمعاء الحيوانات كخيوط للجروح، وأوقفوا نزيف الدم بربط الشرايين.

### 2-إضافات أطباء المسلمين واكتشافاتهم في علم الجراحة: ابتكروا عددا من الآلات والأدوات الجراحية وطوروا

بعضها الآخر منها:

. استعمال الجسومات: لتوسيع مجرى البول، واستعمال الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات [cajut] في خياطة الجروح والأنسجة تحت الجلد، واستعمال الحرير للربط في العمليات الجراحية.

<sup>573</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص46

<sup>574</sup> - معجم المؤلفين (4/ 105)

<sup>575</sup> - أحمد شوكت: في تاريخ الطب وآدابه وأعلامه

- استعمال المحقنة الشرجية والمعدنية: أول من وصفها هو الزهراوي وهي المعروفة اليوم والمسماة [buldsyrije]، وكذلك المحقنة المعدنية المسماة [metallie bladaler surije]، وقد أبحر العالم لعدة قرون بأدواته المبتكرة ودونها في كتابه التصريف لمن عجز عن التأليف، وأصبحت النواة التي طورت بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة<sup>576</sup>

- استعمال حافظه اللسان: التي تستخدم في كبس اللسان أثناء إجراء عملية اللوزتين، ووصفوا عملية فتح القصبه الهوائية واستئصال اللوزتين وفتح خراج اللهاث.

- كما استعملوا [الميولة] والكاويات في الجراحة قريبا من استعمالها اليوم

- وأشاروا إلى تفتيت حصى المثانة واستخراجها عن طريق المهبل لدى النساء<sup>577</sup>

- ووصف كسر الفك الأسفل وكسر الأنف، ووصفوا بدقة الأربطة والجبائر، والعمليات الأخرى: ككسور الجمجمة والكشف والذراع والأصابع...

- كما قاموا بعمليات قطع اللحم الزائدة<sup>578</sup>، وفتح الثقب الممدود في الأذن، وفرقوا بين الأورام السرطانية والزوائد اللحمية، كما كانت لهم إشارات في ميدان الطب التجميلي.

### 3-أعلام علم الجراحة:

من أعلام علم الجراحة عند المسلمين: ابن رين الطبري، وأبوبكر الرازي محمد بن زكريا الرّازي (251 - 313 هـ / 865 - 925 م): من أهل الري، ولد وتعلم بها. وسافر إلى بغداد، وعمي في آخر عمره. ومات ببغداد، يسميه كتاب اللاتينية (رازي) Rhazes، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب، أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر، في صغره، واشتغل بالسيمياء والكيمياء، ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره، فنبغ واشتهر. وتولى تدبير مارستان الريّ، ثم رئاسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد، يعتبر أبا للطب الإسلامي يستعمل في مدوناته الطبية اللغتين الإغريقية والهندية<sup>579</sup>، وألف فيه كتاب الحاوي وهو من أعظم الكتب في تاريخ الطب<sup>580</sup>، قال أحد معاصريه: كان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخر، فيجئ المريض فيذكر مرضه لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعدهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك، له تصانيف، سمي ابن أبي أصيبعة منها 232 كتابا ورسالة. منها (الحاوي) في صناعة الطب، وهو أجلّ كتبه، ترجم إلى اللاتينية، و(الطب المنصوري)، و(الفصول في الطب) ويسمى (المرشد) و(الجدري والحصبه) و(برء الساعة) رسالة، و(الكافي) و(الطب)<sup>581</sup>

وعلي بن عباس الأهوازي، وابن سينا، وأبو القاسم الزهراوي، وأشهرهم بالأندلس ابن زهر<sup>582</sup> وابن رشد الحفيد، وموسى بن ميمون.

**الخلاصة:** هي أن علماء الجراحة عند المسلمين هم الأوائل والسباقيين إلى:

<sup>576</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص40

<sup>577</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص46

<sup>578</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص47

<sup>579</sup> - مونستر ثيجيل: الترجمة وأثرها في بناء الحضارات، ص103

<sup>580</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص36

<sup>581</sup> - الزركلي: الأعلام (6/ 130)

<sup>582</sup> - ابن خلدون: المقدمة، ص651

1/ ابتكار أول مرة فكرة تصنيف خاص بالتشريح، وأول مؤلف كان شرح القانون لابن نفيس، وكتب ابن عيسى رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة والباطنة<sup>583</sup>

2/ حفظ علماء المسلمين تآليف جالينوس من الضياع وأعدوا ترتيبها

3/ استقلوا في كتاباتهم في عالم التشريح، ولم يقلدوا من سبقهم، بل اتبعوا طرقا ومناهج مستحدثة خاصة بهم وأضافوا مبتكراتهم.

4/ اكتشاف الدورة الدموية الصغرى

5/ معرفة تركيب الرئة والأوعية الشعرية، وأثبتوا أن للقلب بطنين فقط<sup>584</sup>

### III- طب العيون

#### 1- إضافات المسلمين لطب العيون:

كتب الأطباء المسلمون في طب العيون مؤلفات، وقدموا وصفا تشريحيًا دقيقًا للعين وأمراضها، وكتب في علاج العيون أبو القاسم عمار بن علي الموصللي [400هـ/1010م] كتابه المنتخب في علاج أمراض العين، وكان خبيرًا في طب العيون وإجراء العمليات الجراحية، وكتب علي بن عيسى الكحال [430هـ/1039م] رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة والباطنة<sup>585</sup>، وكتابته المعروف بتذكرة الكحالين<sup>586</sup>، كما كتب فيها صلاح الدين بن يوسف الكحال كتابه نور العيون وجامع الفنون<sup>587</sup>، وظلت مؤلفاتهم مرجعا في أمراض العيون حتى القرن 18م.

كما عالجوا أمراض الرمد والانتفاخ والحكة والسييل والظفرة والودق وقروح العيون، وأمراض الجفون والملتحمة والقرنية والحدقة<sup>588</sup>، والبتر والتنوء العيني والأثر والبياض وسرطان العين والشعر الزائد... إلخ

#### 2- أطباء العيون:

وبرع في طب العيون علي بن عيسى بن علي الكحال [430هـ/1039م] وهو طبيب اختص في أمراض العين، وألف من تصانيفه: تذكرة الكحالين في العين وأمراضها، لا بُد لكل من عانى الكحل أن يحفظه وقد اقتصر النَّاسُ عَلَيْهِ دون غيره من سائر

<sup>583</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 57

<sup>584</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 58

<sup>585</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 62

<sup>586</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 57

<sup>587</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 62

<sup>588</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 62

الكتب التي ألفت في هذا الفن وكلامه في أعمال صناعة الكحل أجود من كلامه فيما يتعلّق بالأمر العلمية<sup>589</sup>، وكتب رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة والباطنة<sup>590</sup>،

وأبو القاسم عمار بن علي الموصلي [400هـ/1010م] كتابه المنتخب في علاج أمراض العين، وابن سينا وابن النفيس والحسن ابن الهيثم [430هـ/1038م]<sup>591</sup>، وكتب صلاح الدين بن يوسف الكحال كتابه نور العيون وجامع الفنون<sup>592</sup>، ويعتبر كتابه مرجعا هاما قسمه إلى فصول في وصف العين والبصر وأمراض العين وأسبابها وأعراضها، وحفظ صحة العين، وأمراض الجفون، وأمراض الملتحمة والقرنية والحدقة، وأمراض العين التي لا تقع تحت الحواس، وأدوية العيون.

### هـ/تطور الطب في المغرب:

وكالعادة في حصول أي تطور في الحركة العلمية المشرقية يتبعه تطور آخر في الحركة العلمية المغربية، بفضل جهود طلبة العلم الرحالة المغاربة الذين انطلقوا متشوقين نحو المشرق ومراكزه العلمية الكبرى ومدارسه المختلفة، فينهلون من مراكزه المختلفة ومن أفواه العلماء في شتى التخصصات ثم يعودون إلى بلاد المغرب حاملين لواء تلك المدارس وناشرين لما استفادوه من مختلف العلوم، لذلك تأخر ظهور المدارس الطبية المغربية بقرن من الزمن تقريبا، وأول من يذكر من الأطباء في بلاد الأندلس الطبيب ابن جُلجل [بعد 377هـ/987م] في القرن الرابع الهجري، ثم الزهراوي [427هـ/1036م]<sup>593</sup> في القرن الخامس الهجري.

وفي نفس الزمن تشكلت مدرسة الطب الإسلامية بشمال إفريقيا على يد إسحاق بن سليمان الإسرائيلي [320هـ/932م] وابن الجزار التونسي [369هـ/979م]<sup>594</sup>

ويظهر مدى التطور الذي وصل إليه الطب في عهدي المرابطين والموحدين، حيث كانت الأندلس خاضعة لمراكش، فتكونت جماعة من الأطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين، وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك إلى المغرب، حيث قضوا بقية حياتهم في البحث والتصنيف وتدريس الطب والفلسفة والعلوم، فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الأندلس<sup>595</sup>، ويكفي أن نأخذ أَمْوَدجا من كل مرحلة، ففي عصر المرابطين وقعت لأَمير مرابطي قصة في مرضه، حيث استدعى على إثر ذلك ثلة من الأطباء للاستشارة، فتحدث كل واحد عن تجربته في خصوص الذي يشكو منه الأمير مبادرا بوصف الدواء، قد أكد ابن زهر أبو العلاء زهر بن عبد الملك [525هـ/1130م] تعليقا على ذلك، أن كل هؤلاء الأطباء لم يوفق سوى واحد منهم

589 - صلاح الدين خليل بن أيك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت،

1420هـ - 2000م، (ج 21/ 247)

590 - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مكتبة المشي - بيروت دار إحياء التراث العربي بيروت، (ج 7/ 163)، راجع: ابن شاکر الكتيبي: عيون التواريخ، ج 1، ص 182، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 1: 247، حاجي خليفة: كشف الظنون 390، وراغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 62

591 - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 63

592 - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص 62

593 - المرجع نفسه، ص ح، وابن جُلجل: طبقات الأطباء، ص 2-3

594 - محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (ج 2/ 239)

595 - عبد العزيز بن عبد الله: العلوم الكونية، ص 15



عجز مع ذلك عن استكناه أصل الداء، وكان ابن زهر جريئاً في تجاربه... يدعوا إلى الفصد واستعماله للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللاطفال كذلك، حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات، فأدهش معاصريه<sup>596</sup>.

أما في عصر الموحدين فكفى بابن رشد الحفيد [520-595هـ/1126-1198م] كأتمودجا للبحث الطبي المتحرر، حيث توصل في محبره إلى نتائج مدهشة، جعلته يقترح في شرحه لابن سينا<sup>597</sup> ما يصنعه الأطباء اليوم، وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية، وأشار إلى الدورة الدموية الكبرى وعللها في كتابه الكليات، وألف هذا لابن زهر ليُلحق به دراسة عن الجزئيات، لتكون جملة الكتابين كتاباً كاملاً في صناعة الطب<sup>598</sup>، وهذا بفضل تشجيع الموحدين لهذا العلم، حيث أقاموا المخابر العلمية في شكل مستشفيات مجهزة بمختلف الآلات والأجهزة والأدوية والاختصاصيين والمساعدين الفنيين<sup>599</sup>.

أما في المغرب الأوسط فقد رحبت بجاية بعشرات الأطباء الأندلسيين الذين ساهموا بتطوير الطب العلمي ونشره في أوساط الطلبة<sup>600</sup>، وهذا الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق يشير إلى أن جبال بجاية توجد بها جملة من النباتات في أكناف الجبال المطلة على بجاية، والتي كانت تشتغل في التجارب والمعالجة<sup>601</sup>

ومن بجاية استقدم الموحدون أبا إسحاق إبراهيم الداني لإدارة مراكش في القرن السابع الهجري، كما استقدموا كذلك الطبيب محمد الندرومي، وكذلك ابن آندراس أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المرسي نزيل بجاية (ت674هـ)<sup>602</sup> وهو من أطباء المستنصر الحفصي، ومن الكتب التي كانت تدرس خلال هذا العصر في مجال الطب هناك كتاب القانون لابن سينا، وأرجوزته المشهورة في الطب، وكان ابن آندراس واحداً من الذين اشتهروا بهذه الأرجوزة، فكان طبيباً ماهراً في علمه باحثاً مجيداً، تصدر لقراءة العربية والطب في بجاية، فكانت بذلك مجالسه العلمية حافلة بأذكياء الطلب، وأعيان العلماء، وعلى رأسهم الأطباء المختصين بقصر الإمارة، وبها وضع أرجوزته في الأدوية<sup>603</sup>

وأبو الفضل المشدالي محمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد بن حسن بن عبد المحسن [821-864هـ]

رحل إلى تلمسان فبحث على ابن مرزوق وعلى سائر علمائها في عدة علوم منها ما تقدم ومنها الجبر والمقابلة والهيئة والمرايا والمناظر والأوقاف والطب والاسطرلاب والصفائح والجيوب والارتماطيقى والموسيقا والظلمسات ثم عاد بجاية في سنة 844هـ/ وقد برع في العلوم واتسعت دائرته وكثرت معارفه وبرز على أقرانه بل على مشايخه وتصدر للإقراء<sup>604</sup>.

<sup>596</sup> - المرجع نفسه، ص16

<sup>597</sup> - ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا [370-428هـ/980-1036م]، ولد ببوخارى من أبوين إسماعيليين (من الشيعة)، تبحر في مختلف العلوم وبخاصة منها اليونانية على يد كبار العلماء في عصره بمناطق مختلفة من البلاد الإسلامية، من أشهر مؤلفاته: الشفاء والنجاة، والإشارات والقانون، له مما يقارب مائة مصنف، وله رسائل بديعة منها رسالة الطير، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص157-161، ومصطفى غالب: ابن سينا دار مكتبة الهلال، بيروت، 1405هـ/1985م، ص17-25

<sup>598</sup> - عبد العزيز بن عبد الله: العلوم الكونية، ص17

<sup>599</sup> - المصدر نفسه، ص17

<sup>600</sup> المرجع نفسه، ص418.

<sup>601</sup> الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، المرجع السابق، ص421.

<sup>602</sup> - إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب الإسلامي إلى القرن التاسع حتى الخامس عشر ميلادي، مرجع سابق، ص418،408

<sup>603</sup> - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص77

<sup>604</sup> - محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (ج2/239)

## ثالثا/البيمارستان والصيدلة

1/تعريف البيمارستان

2/نشأته

3/وظيفة الطبيب

4/نظام العلاج

5/أنواع البيمارستان

6/نظام رقابة البيمارستان

7/نماذج من البيمارستان

ثانيا: الصيدلة

1/تعريفها

2/نشأتها

3/أنواعها

4/الأدوية

5/أعلام الصيدلة

## ثالثا/البيمارستان والصيدلة

1/ البيمارستان

1/تعريف البيمارستان

البيمارستان مصطلح فارسي مركب من كلمتين بيمار: وتعني مريض، وستان: وتعني دار، فهي تعني دار المريض، ثم اختصرت وأصبحت مارستان

## 2/نشأته

لما أصيب سعد بن معاد في غزوة الخندق، حيث رماه رجل من قريش في الأكحل، فضرب له النبي -ص- خيمة في المسجد ليسهل عليه عيادته والاطلاع على أحواله من قريب، وكانت هذه الخيمة لامرأة من أسلم يقال لها ربيعة فقال اجعلوه في خيمة ربيعة<sup>605</sup>، كانت تداوي الجرحى وتحتسب نفسها على خدمة من كان في المسجد، وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان -رضه- مشفى في دمشق لعلاج المرضى.

لكن أول مارستان مكنل تعود أصل نشأته إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك [86-96هـ / 704م-]، وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق<sup>606</sup>، وأمر فيه بحبس المجذومين حتى لا يخرجوا<sup>607</sup>، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

أما في العصر العباسي وخلال القرن 3هـ حيث بنى الخليفة العباسي هارون الرشيد أول بيمارستان في بغداد عاصمة العالم الإسلامي، ثم تكاثر عددها حتى أصبح عددها 34 مارستانا، كما أن حاكم مصر أحمد بن طولون أول من وضع بيمارستان في مصر سنة 659هـ/876م.

كما أن المصادر المغربية تذكر المارستان الذي كان على عهد الخليفة المنصور الموحدى بمراكش، وجلب له أمهر أطباء الأندلس كابن زهر وابن رشد الحفيد

## 3/وظيفة الطبيب

أما مكانتهم فإنهم مكرمون مبعولون من طرف الأمراء والعامّة على حد سواء، ويتلقون أجورهم بطريقتين: الإحسان والهدايا، والأجر أو الراتب الذي يجريه عليه السلطان، وقد بلغ راتب أطباء الخلفاء 50 ديناراً، ولمن دوّهم 10 دنانير، وصال لا يسمح لهم بممارسة الوظيفة إلا بعد الاختبار وذلك منذ أيام المقتدر 319هـ/931م، حيث لخطأ طبيياً في علاج رجل فمات فأمر الخليفة أن يمتحن جميع أطباء بغداد من جديد فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد فبلغ عددهم في بغداد فقط ثمانمائة طبيب ونيفا وستين طبيياً<sup>608</sup>.

كما أن بعض الأطباء اقتصوا بمعالجة الخلفاء والتفرغ لهم، حيث كان ابن رشد طبيب الخليفة المنصور الموحدى

## 4/نظام العلاج

يتم علاج المرضى بطريقتين حسب حالة المريض، فإذا كان المرض يسير لا يمنع صاحبه من الحركة، فإن نظام العلاج المتبع معه فهو العلاج الخارجي، حيث يتلقى الرعاية والأدوية والفحص في البيمارستان ولكنه لا يسمح له بالإقامة والمبيت، أما إذا كان

605- مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار السلام، القاهرة، ط1، 1426هـ/2005م، ص107

606- المصدر نفسه، ص107

607- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص77

608- مصطفى السباعي: المصدر السابق، ص109-110

المريض في حالة خطر أو لا يستطيع الحركة بسبب المرض، أو مرضه معديا فإنه يعالج بنظام آخر وهو العلاج الداخلي، حيث يقيم المريض في البيمارستان في القسم الخاص به ، ويعطى له رقم الإقامة.

## 5/أنواع البيمارستان

كان للبيمارستان نوعين، بيمارستان محمول أو متنقل، يحمل على ظهور الجمال للمناطق النائية، بحسب ظروف الأمراض وانتشارها وكذلك الحروب، ويسمى الآن [ambulance]، ويشمل بيمارستان الجيش، وبيمارستان السيل، والمحمول، والإسعاف، ويحتوي جميع ما يحتاجه المرضى من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيالدة، وينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم ين بها بيمارستان<sup>609</sup>.

أما النوع الثاني فهو البيمارستان الثابت، وكانت كثيرة بحيث تفيض بها المدن والعواصم<sup>610</sup>، وهو ما كان بناء ثابتا في جهة من الجهات لا ينقل منها، وكان هذا النوع كثير الانتشار، لا سيما في العواصم: كدمشق، وبغداد، والقاهرة، ويشمل هذا النوع: المستشفيات العام، تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وتقسّم إلى قسمين منفصلين قسم للذكور وقسم للإناث، وقل قسم به قاعات متعددة، كل واحدة منها نوع من الأمراض، منها للأمراض الداخلية ويقسم بدوره إلى غرف منها للحميات وغرف للإسهال، ومنها للجراحة ومنها للكسور والتجبير ومنها للأمراض العقلية، بيمارستان المدرسة، بيمارستان العزلة [في دور المجانين والزمنى]، وهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء مختصون، و بيمارستان السجن يطوف عليهم الأطباء في كل يوم ويعالجون مرضاهم بالأدوية اللازمة<sup>611</sup>.

## 6/نظام رقابة البيمارستان

ويتولى هذه المهمة نظام الحسبة أو المراقبة على العاملين، ويشمل التفتيش والرقابة الأطباء والصيادلة، أما الأطباء: فإن أول ما يفعله المحتسب أخذ عهد أبوقراط [وهو القسم على احترام المهنة وأسرارها]، والمحافظة على صحة المريض والعناية به، ساترا لعورات المرضى وكاتما لأسرارهم<sup>612</sup> دون تمييز بين شرفيهم ووضعهم وغيهم وفقيرهم، ولا يسمح للطبيب بالمعالجة حتى يؤدي امتحانا أمام كبير أطباء الدولة، فيمتحنه ويسأله عن كل ما يتعلق بما في إجازته من الفن، فإذا أحس الإجابة أجازته بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب<sup>613</sup>، أما الصيادلة فيأخذ عليهم عهدهم بمراقبة الله في أعمالهم، التخويف والوعظ والإنذار العقوبة الصارمة في حال المخالفة، وكان نظام المراقبة أسبوعيا.

## 7/مرافقه: يتكون البيمارستان في العموم من :

-قاعة المرضى الرجال، مجهزة بأسرة

- قاعة المرضى النساء<sup>614</sup>، ومجهزة بأسرة

-قاعة النقاهاين من الرجال، قاعة النقاهاين من النساء

<sup>609</sup> - مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص107-108

<sup>610</sup> - المصدر نفسه، ص108

<sup>611</sup> - المصدر نفسه، ص108-109

<sup>612</sup> - عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: الطب ورائداته المسلمات، دار الشهاب باتنة الجزائر، بلا:تا، ص51

<sup>613</sup> - مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص109

<sup>614</sup> - مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص108

-قاعة الحراس والمرضى

-سلم سكن الأطباء

-المطبخ وملحقاته

-قاعة لغسل الموتى

-مخازن مواد الحريق

-محل الطبيب المدير

-محل الجرائحي

-محل الكحال

-مصلى

-حوش وأبواب

-بيوت الخلاء

-خلاوي للمجانين من الرجال وآخر للمجانين من النساء

-سلم لسطح البيمارستان

-أحواض

وقد تكون مستشفيات متخصصة في مرض معين: للرمد والعيون، وآخر للجراحة، وثالث للأمراض الباطنة<sup>615</sup>، وصيدليات  
مجهزة.

وكان البيمارستان مجهز بكل ما يحتاج إليه المرضى من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكل ما يعين  
على ترفية الحال على المرضى والعجزة والمزمين والمسجونين.

## 8/ نماذج من البيمارستان

البيمارستان الشامي: مثل بيمارستان الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة 86هـ، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق، وهو  
أكبرهم أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد سنة 549هـ/1154م، وبناه من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج<sup>616</sup>،  
وشرط فيه للفقراء والمساكين، ويسمح للأغنياء إذا اطروا، وكان الشراب فيه والدواء مباح لكل مريض يقصده، وزاره الرحالة ابن  
جبير سنة 580هـ، ووصف فيه عناية الأطباء بالمرضى وتفقدتهم لشؤونهم وإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، وكان به قسم  
للأمراض العقلية يوثق فيه المجانين بالسلاسل، مع العناية بعلاجهم وغذائهم، واستمر في عمله إلى غاية 1317هـ<sup>617</sup>.

<sup>615</sup> - المصدر نفسه، ص 109

<sup>616</sup> - مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص 108

<sup>617</sup> - المصدر نفسه، ص 111

البيمارستان العراقي: مثل بيمارستان الرشيد، بيمارستان السيدة [وهي أم الخليفة المقتدر بالله] سنة 306هـ، والبيمارستان المقتدري ببغداد 312هـ، وتولى رئاسة أطباء البيمارستان أبوبكر الرازي محمد بن زكريا الرّازي (251-313 هـ/865-925م)، وبيمارستان الري الذي تولى تديره أيضا أبوبكر الرازي محمد بن زكريا الرّازي (251 - 313 هـ / 865 - 925 م)، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخر، فيجئ المريض فيذكر مرضه لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعدهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك<sup>618</sup>، وكذلك البيمارستان العضدي 372هـ، وقد تولى بناء هذا الأخير عضد الدولة بن بويه، وقد أجرى له الطبيب الرازي تجربة لاختيار مكان بنائه، حيث أنه عمد إلى وضع أربع قطع لحم في أربعة أنحاء ببغداد ليلا فلما أصبح وجد أحسنها رائحة في المكان الذي أقيم فيه البيمارستان وأنفق عليه مالا عظيما، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيبا، وألحق به مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن، وجدده الخليفة القائم سنة 449هـ، وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها الكثير، وأقام به الفرش واللحف للمرضى والعطورات الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين وبوابون وحراس وحمام وبجانبه بستان قد حوى كل أنواع الثمار والبقول، والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء، ويتناوب فيه الأطباء ليلا<sup>619</sup>.

بيمارستان شبه الجزيرة: بيمارستان مكة [الخليفة المستنصر العباسي] سنة 328هـ، وبيمارستان المدينة [الظاهر بيبرس] سنة 603هـ بيمارستان إيران: كان في الري، وشيراز ونيسابور، وبيمارستان تركيا: بيمارستان قيصرية، وكذلك المغرب والأندلس [بيمارستان تونس ومراكش حيث استقدم الموحدون أبا إسحاق إبراهيم الداني من بجاية لإدارة مراكش في القرن السابع الهجري، كما استقدموا الطبيب محمد الندرومي، وكذلك أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المرسي نزيل بجاية (ت674هـ)<sup>620</sup> وبيمارستان غرناطة].

## 11/ الصيدلة

### 1/ تعريفها

الصيدلة علم يبحث في العقاقير وخصائصها وتركيب الأدوية وما يتعلق بها<sup>621</sup>، أو أنه علم يبحث التمييز بين النباتات المشتبهة.

### 2/ نشأتها

يقال بأن الصيدلة ظهرت مقترنة بعلم الطب ومرتبطة به منذ نشأته وظهوره، وقيل بأنها ظهرت أيضا مرتبطة مع الكيمياء [وكانت عبارة عن تحويل المعادن الخسيسة إلى ثمينة]، وتعد الصيدلة من العلوم التي ابتكرها المسلمون، وجعلوها علما تجريبيا قائما على الدراسة والملاحظة، فهي اختراع عربي أصيل<sup>622</sup>، وكان الصيادلة لا يمارسون هذه المهنة إلا بعد اختبار يتلقونه، وإجازة تمنح لهم كترخيص للممارسة.

<sup>618</sup> - الزركلي: الأعلام (6/ 130)

<sup>619</sup> - المصدر نفسه، ص110-111

<sup>620</sup> إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب الإسلامي إلى القرن التاسع حتى الخامس عشر ميلادي، مرجع سابق، ص418،408.

<sup>621</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص111

<sup>622</sup> - غوستاف لوبون: حضارة العرب، تر: عادل زعير، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط4، بلا:تا، ص494

ويذكر أن أول من فصل بين الصيدلة والطب هم المسلمون، وأكبر الفاعلين في ذلك: الطبيب ابن الجزار التونسي القيرواني [400هـ]<sup>623</sup>، في كتابه زاد المسافر وقوت الحاضر وسائر مؤلفاته.

### 3/ أنواعها وتنظيمها

يمكن أن نميز في الصيدلة نوعين: النوع الأول وهي الصيدلة العامة، وتبيع الأدوية لكل مريض، والنوع الثاني الصيدلة الخاصة وتكون إما بالبيمارستان، أو خاصة بميدان القتال، أو خاصة بالأرياف والبوادي، ويشرف على تنظيم المهنة مفتش رسمي في كل مدينة يشرف على الصيدلة وكيفية تحضير العقاقير، وكانوا يعتمدون إلى زراعة النباتات الطبية بشكل منتظم وفق شروط خاصة في مزارع خاصة، وجلبوا لها البذور اللازمة من كل مكان، وفي كل مدينة كبيرة عميد للصيدلة يقوم بامتحانهم كإبن البيطار في القاهرة<sup>624</sup>.

### 4/ الأدوية

كانت الأدوية التي تقدم في الصيدليات على قسمين: أدوية مفردة<sup>625</sup>: وتمثل في العقاقير الأصلية، وأدوية مركبة: وتمثل في العقاقير الممزوجة [أو الأقرادين]، ويخضع الصيادلة لنظام الحسبة ومراقبة الأدوية<sup>626</sup>، ولما تولى الطي سنان بن ثابت أمر الحسبة تحول هذا النظام إلى امتحان ومحاسبة ومراقبة دورية للأوزان والمكاييل وتفتيش الصيدليات مرة كل أسبوع<sup>627</sup>، وفُرض على الأطباء أن يكتبوا ما يصفون من أدوية للمريض على ورقة سماها أهل الشام الدستور وسماها أهل المغرب النسخة وسماها أهل العراق الوصفة<sup>628</sup>، كما أن ابن الجزار التونسي [400هـ] اتخذ سقيفة داره أقعد فيها غلاما يسمى برشيق وامده بجميه المعجونات والأشربة والمرام والأشياف وسائر المستحضرات، فيمر المرضى بهذا الغلام بعد زيارتهم للطبيب، حاملين منه إليه ورقة يصف فيها ما يناسبهم من الأدوية، فيعطيهم الدواء المشار إليه ويقبض الثمن<sup>629</sup>.

### 5/ أعلام الصيدلة

من أعلام الصيدلة الذين اهتموا بها وبرزوا فيها من المسلمين: أبوبكر الرازي محمد بن زكريا الرّازي (251 - 313 هـ / 865 - 925 م): وهو الداعي لاستقلال الصيدلة عن الطب ونصح بالأدوية المفردة، من أهل الري، ولد وتعلم بها. وسافر إلى بغداد، وعمي في آخر عمره. ومات ببغداد، يسميه كتاب اللاتينية (رازي) Rhazes، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب، وتولى تدبير مارستان الري، ثم رئاسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد، له تصانيف، سمى ابن أبي أصيبعة منها 232 كتابا ورسالة. منها (الحاوي) في صناعة الطب، وهو أجلّ كتبه، ترجم إلى اللاتينية<sup>630</sup>، وهو الداعي لاستقلال الصيدلة عن الطب ونصح بالأدوية المفردة.

<sup>623</sup> - ابن الجزار التونسي القيرواني أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن علي [400هـ]، وولد بالقيروان في عائلة اشتهرت بالطب، واشتغل بالطب بعد حصوله على إجازة

لمعالجة المرضى وتدرّس الطب، وكان له معروف كثير وأدوية يفرقها على الفقراء، يوزعها على المعوزين دون مقابل، زاد المسافر وقوت الحاضر، تح: محمد سويسي

وآخرون، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، شركة أوريبس للطباعة، تونس، ط1، 1999م، ص7-8

<sup>624</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص116

<sup>625</sup> - المصدر نفسه، ص117

<sup>626</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص116

<sup>627</sup> - المصدر نفسه، ص117

<sup>628</sup> - راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية، ص116

<sup>629</sup> - ابن الجزار: زاد المسافر وقوت الحاضر، ص8

<sup>630</sup> - الزركلي: الأعلام (6/ 130)

ابن الجزار التونسي أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني، (369 هـ / 980 م): طبيب مؤرخ، من أهل القيروان، له (زاد المسافر وقوت الحاضر) في الطب مجلدان، وترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، و(الاعتماد) في الأدوية المفردة، ألفه لأحد ملوك الفاطميين بإفريقية، و(البغية) في الأدوية المركبة، و(التعريف بصحيح التاريخ) كبير، و(دم إخراج الدم) و(رسالة في النفس) و(أسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه) و(سياسة الصبيان وتديبيرهم)، و(طب الفقراء)<sup>631</sup>، وهو الذي وضع قواعد لنظام الصيدلة وعنه أخذها الأوربيون كما هو، وارتفعت شهرة ابن الجزار في الطب الأوربي، واقتحمت كتبه حدود أوربا منذ عصر مبكر منذ القرن العاشر للميلاد<sup>632</sup>.

ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (421 هـ / 1030 م): مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها، من كبار فضلاء العجم وأجلاء فارس، وعاش عمرا طويلا، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أطلع بالتاريخ والأدب والإنشاء، كان قيما على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة ابن بويه، فلقب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهية وعظم شأنه عنده، قال أبو حيان في وصفه: (وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء، ألف كتبها منها: (الأدوية المفردة) و(الأشربة) وغير ذلك<sup>633</sup>).

أبو جعفر الغافقي أحمد بن محمد: (بعد 560 هـ / بعد 1165 م): أندلسي عالم بالصيدلة ألف (الأدوية المفردة) ووصف بأنه لا نظير له<sup>634</sup>.

ابن البيطار الأندلسي أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي (646 هـ / 1248 م): ولد في مالقة، توفي بدمشق، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، وتعلم الطب، ورحل إلى بلاد الإغريق (Grece) وأقصى بلاد الروم، باحثا عن الأعشاب والعارفين بها، حتى كان الحجة في معرفة أنواع النبات وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه، واتصل بالكامل الأيوبي (محمد بن أبي بكر) فجعله رئيس العشابين في الديار المصرية، ولما توفي الكامل استبقاه ابنه (الملك الصالح أيوب) وحظي عنده واشتهر شهرة عظيمة، وهو صاحب كتاب "الأدوية المفردة" في مجلدين، المعروف بمفردات ابن البيطار، و"المغني في الأدوية المفردة" مرتب على مداواة الأعضاء، و"ميزان الطبيب" و"الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام" نقد فيه منهاج البيان لابن جرلة<sup>635</sup>

ابن اندراس أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي: (674 هـ / 1275 م): طبيب، من أهل مرسية (Murcie) سكن بجاية (Bougie) وتولى طب الولادة فيها، مع بعض خواص الأطباء، وتوفي بتونس، وسمع به أمير المؤمنين المستنصر (محمد بن يحيى الحفصي) فاستدعاه إلى تونس، فكان أحد أطبائه وجلسائه، له "أرجوزة" نظم بها بعض الأدوية، وشرع في نظم "الأدوية المفردة" من قانون ابن سينا<sup>636</sup>، وكان طبيبا ماهرا في علمه، باحثا مجيدا، تصدر لقرائة

631 - الزركلي: الأعلام (ج1/ 85)

632 - ابن الجزار: زاد المسافر وقوت الحاضر، ص13-14

633 - الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت: 1396هـ): الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، أيار / مايو 2002 م، (ج1/

634 - الزركلي: الأعلام (ج1/ 215)

635 - الزركلي: الأعلام (ج4/ 67-68)

636 - الأعلام للزركلي (ج5/ 323)



العربية والطب في بجاية، فكانت بذلك مجالسه العلمية حافلة بأذكياء الطلب، وأعيان العلماء، وعلى رأسهم الأطباء المختصين بقصر الإمارة، وبها وضع أرجوزته في الأدوية<sup>637</sup>.

## رابعاً/الرياضيات

### أ/تعريفه

يتكون هذا العلم من شقين متكاملين هما: علم الحساب وعلم الجبر

### أ/تعريف علم الحساب:

يعرف على أنه صناعة عملية مجاله العدد في حالات: الضم والجمع والتضعيف، أو حالتي التفريق: الطرح والقسمة<sup>638</sup>.

ولم تعرف الأمم القديمة الأعداد دفعة واحدة، بل عبروا عنها في البداية بالألفاظ، لكن الألفاظ يتعذر معها عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة<sup>639</sup>.

### ب/تعريف الجبر:

يعرف بأنه صناعة يستخرج بها العدد المجهول من المعلوم إذا كانت بينهما نسبة تقضي ذلك، وهو من فروع علم العدد<sup>640</sup>.

### أ/تطور علم الرياضيات:

كان الاعتماد في البداية على أهل الذمة والموالي في علم الحساب، لأنه كان من شأن عمال الخراج، وكانوا يقصرون تعليم أبنائهم علم الشعر والفروسية والرماية والسباحة... إلخ، ولما شعروا بمحاجتهم الماسة إلى علم الحساب مالوا إليه وتدارسوه وشاع فيهم حتى أثر عنهم: علم ابنك الحساب قبل الكتاب<sup>641</sup>، وقبل معرفة المسلمين الأرقام الهندسية كانوا يعدون العدد بطريقتين:

### 1/طريقة الكلمات: مثل عشرون ثلاثون أربعون... إلخ

### 2/بالحروف: أو حساب الجمل، حيث كان لكل حرف من حروف الأبجدية قيمة مطلقة حسب الجدول التالي<sup>642</sup>:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	20	30	40	50	60	70	80
ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ						
90	100	200	300	400	500	600	700	800	900	1000						

وحتى تتضح طريقة الحساب، وتبدو صعوبتها باستعمال حساب الحروف، نكتب عن طريق حساب الجمل الأعداد التالية

من الأكبر إلى الأصغر : 14 118 1854 ... إلخ

<sup>637</sup> - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص77.

<sup>638</sup> - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، دائرة المدائن ببيروت، ط1، 1991م، ص128

<sup>639</sup> - المصدر نفسه، نفس الصفحة

<sup>640</sup> - المصدر نفسه، ص132

<sup>641</sup> - حسين الحاج حسين: حضارة العرب في العصر العثماني، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1994م، ص98

<sup>642</sup> - حسن عاصي: المصدر السابق، ص128

وقد أخذ المسلمون عن الهنود شكلين من أشكال العدد التي كانت شائعة بينهم:

**1/ الشكل الأول:** ..... وهو الشكل المعتمد في أغلب أقطار العالم الإسلامي.

**2/ الشكل الثاني:** الأرقام الغبارية، 1-2-3-4-5-6-7-8-9، وشاع استعمالها بين أهل المغرب والأندلس، وهي التي تكتب بها الهنود، وسميت غبارية لأن الهنود كانوا يرشون غبارا ناعما على لوح من خشب تم تكتب عليه، وقيل بأنهم عرفوه من كتاب [سد هانتا]<sup>643</sup>.

**3/ إضافات المسلمين لهذا العلم:**

ابتكر المسلمون النظام العشري حيث أنهم أضافوا الصفر إلى الأعداد التسعة، وقيل بأن الهنود عرفوا الصفر ولكنهم تركوا مكانه فارغا، أما العرب فقد وضعوا له رمزا ومثله بالنقطة [.]. في الشكل الأول..... إلخ وبالدائرة في الشكل الثاني [0] 1-2-3-4-5... إلخ، كما أدخل الخوارزمي استعمال الصفر في العد والحساب وقال: إنه لم يكن هناك رقم يقع في مرتبة العشرة، واستعيض عنه احتفاظا بالسلسلة الحسابية بدائرة، وهذه الدوائر الصغار تسمى الأصفار، توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها أعداد<sup>644</sup>، وعنه نقل إلى أوربا ونطقوه هناك صيفر، أما اللاتين فنطقوه زيفيروم، واختصره الإيطاليون إلى زيرو، وهذا الصفر الذي هو لا شيء إذا أخذ وحده ويرفع المراتب الحسابية مع العد إلى ما شئت من قيم، وهو أعظم اكتشاف رياضي على مر عدة قرون<sup>645</sup>، وقد أدى اكتشاف الصفر إلى سهولة تركيب أي عدد حسابي مهما كان كبيرا، وسهل ذلك العمليات الأربع [الجمع- الطرح- الضرب- القسمة]. كما عرف المسلمون الكسور العشرية، وهي تنسب للعالم الرياضي غياث الدين الكاسي، حيث أنه استعملها وفسرها<sup>646</sup>.

**4/ تطور علم الجبر:**

صار الجبر عند المسلمين علما قائما بذاته، وأخذ اسمه كما هو إلى الفرنسية [algèbre]، وكذلك نقل إلى سائر اللغات الأوربية [algebra]، والخوارزمي هو الذي أطلق عليه الجبر، ووضع في كتاب بعنوان: الجبر والمقابلة، واستعمل فيه الرموز في إحدى شطري المعادلة، ووضع الأعداد في الشطر الآخر، ثم جمع ما يحتاج إلى الجمع وطرح ما يحتاج إلى الطرح، كما وضع القلصادي رموز استخدام الجبر يسرت من تطوره، وأبرز تلك الرموز [ش] أو [س] رمز بها للمجهول [x]، [م] رمز بها إلى مربع المجهول [س<sup>2</sup>] أي [x<sup>2</sup>]، [ك] رمز بها إلى مكعب المجهول [س<sup>3</sup>] أي [x<sup>3</sup>]، و[ج] رمز بها للعدد المعلوم، و[ل] رمز بها إلى المساواة [=]، [.] رمز بها للنسبة<sup>647</sup>.

643 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، ص 129-130

644 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر دمشق، ص 541.

645 - المصدر نفسه: نفس الصفحة.

646 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، ص 132، 130

647 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، ص 134

وكان عمر الخيام عمر بن إبراهيم الخيام (أبو الفتح) (517هـ/1123م) عالم<sup>648</sup>، أول من صنف المعادلات بحسب درجاتها، وبحسب عدد الجذور التي فيها، كما استطاع حل المعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط، وذلك أرقى ما وصل إليه الجبر عند العرب.

كما وضعوا أسس الهندسة التحليلية، حيث استخدموا الجبر في حل مسائل الهندسة والهندسة في حل مسائل الجبر، ومهدوا لديكارت اكتشاف قوانين تلك الهندسة، وأول من اشتغل بالهندسة ثابت بن قرة<sup>649</sup>.

ويمكن القول بأن البشرية تدين للخوارزمي وجهوده العلمية بمعرفتها الحالية لعملية الجبر والحساب، كما استفادت منها أوروبا في عصر النهضة، والخوارزمي هو صاحب علم حساب اللوغارتمات، كما وضع لها جداول<sup>650</sup>، فإن الخوارزمي يقف في الصف الأول من صفوف الرياضيين في جميع العصور، وكانت مؤلفاته هي المصدر الرئيسي للمعرفة الرياضية لقرون عديدة في الشرق والغرب<sup>651</sup>.

### ||||| / أهم علماء الحساب عند المسلمين:

**1/ الخوارزمي أبو عبد الله محمد بن موسى [163-235هـ/780-850هـ]:** وولد بخوارزم بالقرب من بحر آرال، تنسب إليه الجداول الحسابية المعروفة في الغرب باسم [logarithmes] في كتابه حول المعادلات الجبرية، ولذلك يعد مخترع علم الجبر وواضع أصوله<sup>652</sup>، وينعت بالأستاذ بعد أن أقامه المأمون العباسي قيما على خزانة الكتب، وأمره باختصار المجسطي لبطليموس، فاخصره وسماه [السند هند] أي الدهر الدهر<sup>653</sup>.

من مؤلفاته: الجبر والمقابلة، الزيج، التاريخ، صورة الأرض من المدن والجبال، عمل الإصطراب، وصف إفريقية، وهو قطعة من كتاب رسم المعمور من البلاد، وبدأ يستعمل الأرقام الهندية منذ سنة 813م، وكتب فيها رسالة سنة 825م، وهو الذي رتب ونظم علم الجبر ووضعه بشكله الحالي، وكتب مقاله في عصر المأمون، ترجمت إلى اللاتينية ونشرت في عصر النهضة الأوروبية، ولا تزال نسخة أصلية باللغة العربية بجامعة إكسفورد ببريطانيا، وأشار ناسخها إلى تاريخ 1432م، ونوه بكتابها في أول صفحة، وهو محمد بن موسى الخوارزمي، وعلى هامشها تعليق بأنها أول مقالة كتبت في الجبر<sup>654</sup>.

**2/ أبو الريحان البيروني أحمد بن محمد [445هـ/1048م]:** اخص بدراسة تراث الهنود وآدابهم ومعارفهم وعلومهم، وطاف بلاد الهند، وألف كتابه [الآثار الباقية عن القرون الخالية]، وهو في الفلك أكثر منه في الرياضيات، اشتهر بمعرفته الواسعة في علم الهيئة والنجوم وكان له نظر جيد في صناعة الطب، وكان فيلسوفا ومؤرخا ورحالة وجغرافيا ولغويا ورياضيا وفلكيا وعالما في الطبيعيات، له مصنفات علمية في كل تلك المجالات، وساهم في وضع الجداول الرياضية للجيب والظل، وساهم أيضا في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وبرع في علم المثلثات، وله مصنفات في الرياضيات، توصل فيها إلى

648 - معجم المؤلفين (7/ 269-270)

649 - المصدر نفسه، ص135.

650 - محمد خان: نظرة مختصرة لمآثر المسلمين في العلوم والثقافة،

651 - نادية : العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة القاهرة، 1991م، ص51

652 - إدوارد بري: تاريخ الحضارات العام، منشورات جويدات بيروت، ط3، 1986م، ج3، ص229

653 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص541-542

654 - المصدر نفسه، ص542

طريقة لحساب تكرار تضعيف دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة... ووضع في الهندسة حلولاً لنظريات سميت فيما بعد باسمه<sup>655</sup>

3/الصيدناني أبو عبد الله بن الحسن الحاسب المنجم: شرح كتاب محمد بن موسى الخوارزمي في الجبر، وكتاب الجمع والتفريق، وكتاب في صنوف الضرب والقسمة.

4/ عمر الخيام عمر بن إبراهيم الخيام (أبو الفتح) (517هـ/1123م) عالم، أول من صنف المعادلات بحسب درجاتها، وبحسب عدد الجذور التي فيها، كما استطاع حل المعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط، من تصانيفه بالعربية: شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس في الجبر والمقالات، الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما، ومسائل نجومية<sup>656</sup>.

5/غياث الدين الكاشي جمشيد بن مسعود بن محمود الكاشي (919هـ/1513م) عالم بالرياضيات، من آثاره: المفتاح في الحساب، سلم السماء في حل إشكال وقع للمتقدمين في الأبعاد والأجرام، رسالة في نسبة القطر إلى المحيط، زهرة الحدائق في كيفية صناعة الآلة المسماة بطبق المناطق، رسالة الوتر والجيب في استخراجهما لثلث القوس المعلومة الوتر والجيب<sup>657</sup> بالإضافة إلى علماء آخرين مثل أبوالكامل عبد الحميد والإصطخري الحاسب وغيرهم كثير.

### 11111/علم الهندسة:

1/تعريفه: يعرف هذا العلم على أنه: النظر في المقادير المتصلة كالخط والسطح والجسم، والمنفصلة كالأعداد، وفيما يعرض من العوارض الذاتية.

ويعرف عند المسلمين بعلم الأنساب باعتباره يستند إلى الأوجه المختلفة الناشئة من النسبة بين أضلاع المثلث<sup>658</sup>

2/تطور علم الهندسة: لم تبلغ الهندسة عند المسلمين ما بلغ الجبر وسائر العلوم، وليس ذلك عن قصور منهم، وإنما لبراعة اليونان الذين بلغوا في هذا العلم فلم يتركوا مجالاً واسعاً للبحث والتأليف فيه<sup>659</sup>، واعتمدوا في الهندسة على مؤلفات فيثاغوراس وأبوقليدس، وترجموها وشرحوها وأضافوا إليها تعليقات وتحليلات، ورسوموا المضلعات المنتظمة وربطوها بمعادلات جبرية<sup>660</sup>.

وهم أول من استعمل الجيب SINIS، واستغنوا به عن الوتر CORDE، الذي كان مستعملاً عند اليونان، مما سهل الأعمال الرياضية، واستعملوا جيوب التمام تجب COSINUS، في قياس زوايا المثلثات، كما عرفوا القانون الأساسي لاستخراج مساحات المثلثات الكروية<sup>661</sup>.

### 3/علماء الهندسة:

655 - مكتبة بيت الحكمة ببغداد وأثرها على الحضارة الإنسانية، الثلاثاء 01 مايو 2007م، 14 ربيع الثاني 1428 هـ

656 - معجم المؤلفين (7/ 269-270)

657 - معجم المؤلفين (3/ 158)

658 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، ص 135.

659 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

660 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

661 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

1/ ثابت بن قرة أبو الحسن الحرّاني [238-291/835-901م]: وولد في حران قرية في العراق، نبغ في عدة معارف وعلوم منها: الهندسة الرياضية، من مآثره تمهيده لحساب التكامل والتفاضل، كما وضع حلاً لبعض المعادلات التكعيبية بطرق عدة، وهو أول المشتغلين بالهندسة التحليلية، وابتكر فيها كثيراً، وله كتاب المخروط المكافئ، وكتاب في قطع أسطوانة، وكتاب في مساحة الأشكال، وكتاب في المسائل الهندسية، وكتاب في المربع وقطره<sup>662</sup>.

2/ أبو الريحان البيروني أحمد بن محمد [445هـ/1048م]: اشتهر بمعرفته الواسعة في علم الهيئة والنجوم، وساهم في وضع الجداول الرياضية للجيب والظل، وساهم أيضاً في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وبرع في علم المثلثات، وله مصنوعات في الرياضيات، توصل فيها إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة... ووضع في الهندسة حلولاً لنظريات سميت فيما بعد باسمه<sup>663</sup>.

### خامساً/علم الفلك

#### أ/تعريفه وموضوعه:

1/ تعريفه: هو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة، ويستدل بتلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك، لزمّت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية<sup>664</sup>.

2/ الفرق بين علم الفلك والتنجيم: إذا كان التنجيم صناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع الكائنات الكلية والشخصية<sup>665</sup>، وإذا كان هذا هو التنجيم عند أصحابه فقد تميز عن علم الفلك، بكون التنجيم عبارة عن أباطيل وأوهام يقصد بها معرفة مصير الإنسان، وأحوال العالم من دلالات الكواكب والنجوم<sup>666</sup>.

3/ موضوعه: موضوعه هو البحث في الأفلاك الدائرة وسرعة دورانها، والكواكب والنجوم وحركة سيرها وأبعادها، ويستعمل لهذا الغرض آلات الرصد<sup>667</sup>.

ب/ دوافع اهتمام المسلمين بعلم الفلك: لم يكن اهتمام المسلمين بعلم الفلك ترفاً ولا شغفاً، وإنما كان تلبية لدوافع علمية ودينية وحضارية

- الدوافع العلمية: منها أن أهل البدو كانوا يستدلون بالنجوم، ويهتدون بها في الصحراء، وهي رفيقهم الأمين في كل أسفارهم، ومن نشأت الحاجة إلى علم يهتم بها ويكتشف ما خفي منها، فنشأ هذا العلم وتطور من التنجيم إلى علم الفلك<sup>668</sup>.

662 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، ص 164-165

663 - مكتبة بيت الحكمة ببغداد وأثرها على الحضارة الإنسانية، الثلاثاء 01 مايو 2007م، 14 ربيع الثاني 1428 هـ

664 - ابن خلدون: المقدمة، دار الرائد بيروت، ط5، 1982، ص487

665 - أبو بكر جابر الجزائري: العلم والعلماء، دار الشروق جدة، ط1، 1983م، ص87

666 - المصدر نفسه، نفس الصفحة

667 - المصدر نفسه، ص88، وشوقي أبوخليل الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1994م، ص543

668 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص149-150

. **الدوافع الدينية:** وتتمثل في حاجتهم لهذا العلم، قصد معرفة أوقات الصلاة وإثبات الصوم والعيدين، والاستدلال بحركتها العجيبة على وجود الخالق وقدرته غير المحدودة<sup>669</sup>.

. **الدوافع الحضارية:** وتتمثل في حاجة المسلمين لهذا العلم، للإطلاع على حضارات الشعوب المجاورة وتراثها العلمي، وخصوصا الهند واليونان، فترجموا كتبهم في هذا الشأن مثل كتاب السند هند وكتاب المجسطي.

**ج/تطور علم الفلك:** هذا العلم من العلوم القديمة التي لا يعرف لها واضع على وجه التحديد، فقد عرفته الأمم القديمة، حيث عرفه أهل الصين والهند ومصر واليونان<sup>670</sup>، وتطور عند اليونان بحيث أصبح علما يبحث في موضوع، وله هدف ووضعت له مبادئ وقوانين على يد هيبارفوس في القرن 2 ق.م، وكان له فضل صناعة الاضطراب، ووضع الأزياج، ثم جاء بعده بطليموس وجمعه في كتاب المجسطي، ثم صحح علماء المسلمين أخطاء المجسطي<sup>671</sup>.

وبدأ الاهتمام الجدي بهذا العلم في عصر المنصور العباسي [180هـ] من خلال ترجمة الكتب العلمية التي تهتم بهذا العلم في عصره<sup>672</sup>، حيث قدم رجل من الهند إلى بغداد بكتب في الحساب وآخر عرف بالسند هند في الفلك عام 151هـ<sup>673</sup>، فأمر المنصور العالم الفلكي إبراهيم بن محمد الفزاري (180هـ/804م) بترجمته إلى العربية، وعمل أول أسطرلاب في الإسلام<sup>674</sup>، وهو فاضل في علم النجوم متكلم في حوادث الحدثنان خبير بتسيير الكواكب وهو أول من عني في الملة الإسلامية وفي أوائل الدولة العباسية بهذا النوع<sup>675</sup>.

ثم جاء عصر المأمون العباسي [218هـ]، وكان عصره كخليفة عام للمسلمين أزهى عصور العلم في الحضارة الإسلامية<sup>676</sup> بصفة عامة والفلك خصوصا، وصنعت في عصره الآلات للرصد، ومنها المسماة [ذات الحلق]، حيث جمع علماء عصره وأمرهم بصناعتها لقياس الكواكب ومعرفة أحوالها، وأنشئ أول مرصد فلكي سنة 214هـ في مدينة الشامية من أرض الشام<sup>677</sup>.

### د/إضافات المسلمين لعلم الفلك:

**1/وضع الأزياج<sup>678</sup>:** وأشهرها زيغ الخوارزمي، وزيغ ابن الشاطر، وزيغ الفزاري، وأزياج الخليفة المأمون، وأزياج موسى بن شاكر وغيرها، بالإضافة إلى المراصد الفلكية التي انتشرت في بلاد المسلمين، من أشهرها زيغ البتاني: ويعد عمدة كتب الأزياج عند المسلمين، ومفخرة الحضارة الإسلامية في علوم الفلك. ألفه البتاني سنة (299هـ/912م) وبناه على (57) باباً سماها في المقدمة، قال: وهو كتاب يحسب فيه سير الكواكب. وزيغ الصابي: نسبة إلى الصابئة الذين اشتهروا بالمهارة في علوم

669 - شوقي أبوخليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص543، وحسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص150

670 - أبوبكر جابر الجزائري: العلم والعلماء، ص87

671 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص149

672 - عبد الرحمن مرجبا: الموجز في تاريخ العلوم، ط1، ص136

673 - جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي (المتوفى: 646 هـ): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب

العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1426 هـ/2005 م، (ص: 205)

674 - الأعلام للزركلي (4/117)

675 - إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص: 205)

676 - مجلة آفاق التراث والثقافة، ص56

677 - صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تح: حياة بوعلون، دار الطليعة بيروت، 1985م، ص126، 131

678 - والزيغ: كلمة معربة، وأصلها بالفارسية (زه) أي: الوتر. كما في (تاج العروس) والأزياج عبارة عن جداول في علم الفلك

الفلك. قال الصفدي في (الوافي) وأول ما ابتدأ بالرصد سنة (264) إلى سنة (306) وأثبت الكواكب الثابتة في زيجته لسنة (299هـ) ولم أعلم أنه أسلم، ولكن اسمه يدل على إسلامه. وذكر صاحب الفهرست أنه ألفه للوزير ابن الفرات (ت312هـ). وقد استمر العمل بزيجته حتى ظهور (القانون المسعودي) للبيروني وهو أول من اكتشف ميل محور الأرض في دوراتها حول نفسها بالنسبة لدوراتها حول الشمس، ذلك الاكتشاف الذي نسبه لنفسه كوبرنيك بعد وفاة البتاني بخمسة قرون. قال **القنطري**: (لا يُعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها). وكمثال على ذلك انظر قوله: (ورصدنا نحن في عصرنا هذا مرارا كثيرة بالعضادة الطويلة... إلخ)

## 2/ الآلات الفلكية: في المراصد الفلكية وأشهرها

. **الإصطرلاب\***: كلمة يونانية تعني ميزان الشمس. وسيأتي تفصيله

. **ذات الحلق**: وهي أعظم الآلات هيئة ومدلولا، وهي أول آلة رصد صنعت في الإسلام من طرف ابن خلف المروزي، وهي خمس دوائر عظمى متحدة من النحاس<sup>679</sup>.

. **اللبة**: وهي جسم مربع مستوي، يستعمل في قياس زاوية الميل والأبعاد القوسية للكواكب.

## 3/ وضع النظريات:

. أثبتوا أن الأرض كروية الشكل، وتدور على محورها.

. حدد البتاني مواقع بعض النجوم تحديدا رياضيا

. تمكنوا من رصد الاعتدالين الربيعي في 21 آذار والخريفي في 22 إيلول، والاعتدال هو الذي يتساوى فيه الليل والنهار.

. وضعوا خرائط فلكية، وعينوا مواقع بعض النجوم الثابتة، وقد حدد البتاني النجوم الثابتة لسنة 299هـ<sup>680</sup>

. قاسوا مقدار ميل الشمس وخروج مركزها وموضع أوجها، كما قيّدوا ما توصلوا إليه في عصر المأمون وأطلقوا عليه الرصد المأموني<sup>681</sup>.

## ه/ المراصد الفلكية والآلات:

1/ **المراصد**: ووضع أول مرصد بمدينة الشماسية بدمشق سنة 214هـ، ثم تكاثرت المراصد، ثم أنشأ مرصد بني موسى

بيغداد، والمرصد الحاكمي في مصر ومرصد بني الأعلم، ومرصد الدينوري في أصبهان، ومرصد ابن الشاطر في الشام وغيرها كثير<sup>682</sup>.

ب/ **آلات الرصد**: وهي على عدة أنواع، منها:

1/ **الإصطرلاب**: باليونانية يسمى إصطرلابون، وإصطر هو النجم<sup>683</sup>، ويسمى عند المسلمين الآلة الشريفة، وهو جهاز يعين

به الفلكي زوايا ارتفاع الأجرام السماوية على الأفق في مكان ما، أو هي آلة فلكية تمثل قبة السماء، قسمت إلى أقسام، بها النجوم في المجموعات المختلفة، ويوضح عليها حركة الشمس والكواكب، واستعملت أساسا لمعرفة أوقات الصلاة وتحديد

679 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص154

680 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص154

681 - صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص126، 131

682 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص152-153

683 - محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1984م، ص253-254

القبلة<sup>684</sup>، وقد حضيت باهتمام خاص من بين جميع الأجهزة، لأنها تقوم بحل مئات المسائل الفلكية والرياضية في المثلثات الكروية، خاصة جيوب وجيوب التمام وظلال وقواطع، وقواطع التمام<sup>685</sup>، ويتكون من:

**الكرسي:** وهو الزيادة التي تكون في أعلى الإصطرلاب، ويعلق فيها

**الحلقة:** وتسمى العروة، شكلها دائري، تمر بها حلقة تسمى العلاقة، وفيها خطوط تسمح للإصطرلاب بالحركة اللولبية بحرية، ويعلق الكرسي بها<sup>686</sup>.

**الصفائح:** وتؤلف وجه الإصطرلاب، وهو قرص دائري محفور بصورة دائرية، توضع به عدد من الصفائح تُطبق بعضها فوق بعض، ويحيط بأبواب الصفائح طوق ضيق يكون حافة الإصطرلاب، ويقسم هذا الطوق إلى 360 جزء يمثل درجة، ويجزأ إلى أربعة أرباع كل ربع يقسم إلى 90<sup>0</sup>.

**العنكبوت:** وهي الشبكة التي عليها البروج والعظام من الكواكب الثابتة منطقة البروج في العنكبوت، وهي المقسمة بدرج البروج، وفيها دائرتان الكبرى من المركز في مدار الجدي، والصغرى مركزها مدار السرطان.

**المري:** وهي زيادة عند رأس الجدي، يماس الحجرة، ويمسى مريا لأنه يرى أجزاء الفلك.

**المقنطرات:** وهي الخطوط المقسومة المتضايقة، المرسوم فيما بينها أعداد درج الارتفاع في الصفيحة، وفوقها يجري العنكبوت.

**خطوط الساعات:** هي الخطوط المتباعدة تحت المقنطرات - خط الاستواء وهو الخط المقسوم الآخذ من الشرق إلى الغرب، المار على مركز الصفيحة<sup>687</sup>.

أما ظهر الإصطرلاب فإنه يقسم على ثلاثة مائة وستين درجة، وعلى أرباع الدائرة ويحتوي:

**العضادة:** وهي مستطيل ضيق، بقدر قطر الإصطرلاب، وهي الساق المتحركة على ظهر الإصطرلاب، ويؤخذ بها ارتفاع الشمس بالنهار والكواكب بالليل، ولضبط الرؤيا عند أخذ الأبعاد والمرتفعات الأرضية.

**المحور والفرس:** يستخدمان لجمع الصفائح والعضادة إلى جسم الإصطرلاب.

كما توجد عدة أنواع أخرى للإصطرلاب مثل الهلي من الهلال، والكروي، والزورقي، والمسطن، والمنبطح وأشباب

ذلك<sup>688</sup>

**2/ المشبهة بالناطق:** آلة متعددة الفوائد والأغراض تستخدم في معرفة الأبعاد ما بين كوكبين، وتتألف من ثلاث مساطر اثنتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين، وهي من اختراع تقي الدين الراصد.

**3/ طبق الناطق:** تستخدم للحصول على تقاويم الكواكب، وعرضها وبعدها مع الخسوف والكسوف وخلافهما، وصنعها غياث الدين المرصد سمرقند.

**4/ الأرميلاد:** وهي آلة لتحديد مواعيد الصلاة واتجاه القبلة.

684 - سمي عرابي: سلسلة علماء العرب والمسلمين، علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا، دار الكتاب القاهرة، ط2، 1403هـ، ج5، ص10

685 - الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص253

686 - الخوارزمي: المصدر السابق، ص253، مجلة آفاق الثقافة والتراث: العدد الرابع والأربعون، ص170

687 - الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص254

688 - مجلة آفاق التراث والثقافة، العدد 44، ص170



**5/الربع المجيب:** وهي آلة تتألف من ربع دائرة، يطلق عليها الربع المقطوع والربع المنقطر، وتصنع من الخشب الجيد أو البرونز أو الذهب أو الفضة، وتستخدم في معرفة البروج في حساب المثلاث، ومعرفة الأعماق وخلافها.

**6/المزولة الشمسية:** تعتبر من أهم الآلات التي قام بتطورها المسلمون، وتستخدم لقياس الوقت خلال ساعات النهار، مبنيا على ضوء الشمس<sup>689</sup>.

ز/أهم علماء الفلك عن المسلمين:

**1/ إبراهيم بن محمد الفزاري (180هـ/804م)** العالم الفلكي، أمره المنصور بترجمة كتاب السند هند في الفلك عام 151هـ<sup>690</sup> إلى العربية، وعمل أول أسطرلاب في الإسلام<sup>691</sup>، وهو فاضل في علم النجوم متكلم في حوادث الحدثنان خبير بتسيير الكواكب وهو أول من عني في الملة الإسلامية وفي أوائل الدولة العباسية بهذا النوع<sup>692</sup>.

**2/ ثابت بن قرة بن مروان الصابي الحرائي [225-289هـ/825-901م]**، الحكيم الحاسب المنجم الصابي، له مؤلفات في الفلك والطب والفلسفة<sup>693</sup> من مؤلفاته في علم الفلك: كتاب في [علة الكسوف]، وكتاب [رؤية الأهلة من الجداول]، وكتاب في [حركة الفلك]، وكتاب [فيما يظهر من القمر من آثار الكسوف وعلاماته]، وكتاب في [طبائع الكواكب وتأثيراتها].

**3/ البتاني أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرائي [317هـ/929م]**: الحاسب، المنجم المشهور، عالم فلكي ومهندس، اشتغل برصد الكوكب من سنة [264هـ إلى 306هـ]، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين [299هـ]. وكان أوحد عصره في فنه، وأعماله تدل على غزارة فضله وسع علمه وهو واضع الزيج المعروف بزيج الصابي، وقالوا بأنه أصح من زيج بطليموس، له من التصانيف "الزيج" وهو نسختان: أولى وثانية، والثانية أحوذ وكتاب "معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك" ورسالة في "مقدار الاتصالات"، وكتاب شرح فيه أربع أرباع الفلك، ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات، وشرح أربع مقالات بطليموس، وغير ذلك<sup>694</sup>، ولم يعلم أحد بلغ مبلغه في تصحيح أرساد الكواكب، وامتحان حركتها، وهو مكتشف حركة الأوج الشمسي وتقدم المدار الشمسي وانحرافه، والجيب الهندسي والأوتار، ورصد الكسوف والخسوف<sup>695</sup>

**4/ أبو الريحان البيروني أحمد بن محمد [445هـ/1048م]**: اختص بدراسة تراث الهنود وآدابهم ومعارفهم وعلومهم، وطاف بلاد الهند، وألف كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية، وهو في الفلك أكثر منه في الرياضيات، وقد أشار في كتابه

689 - سعد عبد الرحمان البازعي: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة الرياض، ط2، 1419هـ/1999م، مج:16، ص524

690 - جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي (المتوفى: 646هـ): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1426هـ/2005م، (ص: 205)

691 - الأعلام للزركلي (4/ 117)

692 - إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص: 205)

693 - شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (المتوفى: 1167هـ): ديوان الإسلام، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1411هـ/1990م، (2/ 48)

694 - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قُأبِزَازِ الذهبي (المتوفى: 748هـ): سير أعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405 هـ / 1985 م، (14/ 518)، وابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، (5/ 164)

695 - مكتبة بيت الحكمة ببغداد وأثرها على الحضارة الإنسانية، الثلاثاء 01 مايو 2007م، 14 ربيع الثاني 1428 هـ

" القانون المسعودي إلى كروية الأرض، وأثبت أن الأشياء تنجذب نحو مركزها، وقال : إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة في كل يوم، وحول الشمس مرة كل عام<sup>696</sup>.

كما وضع نظرية بسيطة لإيجاد مقدار محيط الأرض، وعارض بطليموس في عدة نظريات، ومن من مؤلفاته: [التفهم لأوائل التخميم]، وبحث في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية في الشهور واليوم والسنة، كما يبحث في التقاويم، وفيه جداول تفصيلية للأشهر الفارسية والعبرية والرومية والهندية والتركية<sup>697</sup>.

ومن علماء الفلك أيضا: أبو سهل الفضل بن نبوخت وله فيه مؤلفات، والخوازمي كذلك<sup>698</sup>.

## أولا/تعريف الجغرافيا

**1/التعريف اللغوي:** جغرافية كلمة يونانية الأصل مركبة من كلمتين وهما وصف الأرض<sup>699</sup>، فهي تعني في لغتهم [صورة الأرض أو وصف الأرض]، ويسمى عند العرب علم تقويم البلدان<sup>700</sup>.

**1/التعريف الاصطلاحي:** الجغرافيا (علم يُعرف به سطح الأرض وما عليه من أنهار وبحار وجبال ومدن وسكان وحكومات ودول وما شاكل ذلك)<sup>701</sup>، أو علم يدرس الظواهر الطبيعية لسطح الأرض، كما يدرس الظواهر البشرية لهذا السطح والتي صنعها الإنسان، ولم يستخدم هذا الاصطلاح إلا حديثا.

وقد استعملت لأول مرة بمعنى علم الجغرافيا في رسائل إخوان الصفا<sup>702</sup>، وفسرت على أنها صورة الأرض، وهو علم تعرف منه أحوال الأقاليم، وعروض البلدان وأطوالها وعدد مدنها وبراريها وبحارها وأنهارها<sup>703</sup>.

## ثانيا/نشأتها عند العرب والمسلمين وتطورها

**1/أصل نشأته عند العرب:** كانت للعرب معرفة بالجغرافيا، ويعود السبب في ذلك للأحوال الجغرافية لشبه الجزيرة العربية، وقد ووجد صدى ذلك في الشعر العربي القديم، وصاروا يحفظون أشعارهم ويستعينوا بها على تعيين الطرق والمسالك، لاستذكارهم لهذه القصائد<sup>704</sup> والمسالك التي قيلت فيها.

وكذلك لارتباط الجغرافيا بحياتهم اليومية ورحليهم في المستمر في التجارة والبوادي والصحاري عن طريق القوافل برا وبحرا، فعرفوا اتجاه هبوب الرياح وأوصافها وأنواعها، والسحب وأنواعها لمعرفة نزول الغيث الذي يعتدون عليه في السقي

696 - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم، ص155-156

697 - المصدر نفسه، ص165

698 - ابن النديم الفهرست، ص335

699 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/16)

700 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/16)

701 - محمد بن محمد بن عمر بن علي بن سالم مخلوف (1360هـ): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003 م،

(ج1/16)

702 - إخوان الصفا وخلان الوفا: رسائل إخوان الصفا، الجائر 1992م، ج1، ص213

703 - حاجي خليفة: كشف الظنون، دار الفكر، ج2، ص59

704 - دائرة المعارف الإسلامية، ج7، ص11.

**2/تطور الجغرافيا عند المسلمين:** بدأ الإقبال على مسائل الجغرافية في مرحلة استقرار الحضارة الإسلامية في حواضر ثقافية هامة: كدمشق وبغداد وقرطبة والقيروان، وقد ورد القرآن الكريم ذكر العديد من الظواهر الجغرافية والكونية، كذكر حالة سقوط الأمطار في قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**<sup>706</sup>، وعن الجبال ودورها في توازن الكتلة الأرضية قال: **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(7)**<sup>707</sup>، وغيرها من أشباه هذه الظواهر الكونية.

ومن هذا المنطلق اهتم المسلمون بعلم الجغرافيا، ويعتبر القرن 4هـ/10م كبداية لظهور أول مدرسة عند المسلمين تهتم بهذا الاختصاص، فكانت لهذه المدرسة دوافعها للاهتمام بهذا العلم بالإضافة إلى ما تقدم:

1- شدة الاهتمام بوصف أقطار العالم الإسلامي أو الممالك، وأشهر من اشتهر بذلك: الاصطخري وابن حوقل والمقديسي والإدريسي والبلخي أبو يزيد أحمد بن سهل وهو رأس هذه المدرسة، وكن تلميذا للكندي ببغداد، وصنف في بلخ كتاب باسم [صورة الأقاليم]، وهو على الأرجح مصورات جغرافية<sup>708</sup>

2- التخصص في قطر واحد، وتخصص فيه البكري (487هـ/1094م) والبيروني؟

3- وضع معاجم جغرافية لضبط أسماء المواقع وغيرها من المعلومات الجغرافية، منها [معجم استعجم للبكري] والمسالك والممالك، وكتاب الأمكنة للزحشري، وكتاب الأمكنة لأبي الفتح الإسكندراني، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، وتاج العروس.

4- الموسوعات الكبرى مثل: مؤلفات النويري، وابن فضل الله العمري والقلقشندي<sup>709</sup>.

### ثالثا/ أقسامها وأنواعها

**1/الجغرافية الطبيعية:** يبحث فيها عن وصف سطح الأرض على ما هي عليه من أصل خلقة الباري جل وعلا كالتكلم على الجبال والأنهار والبحار وغير ذلك<sup>710</sup>، فهو علم يدرس أحوال الكرة الأرضية [الجيومورفولوجيا] جوا وبراً وبحراً

**2/الجغرافية الاقتصادية:** ويبحث فيها عن محصولات البلاد من نباتات ومعادن وثروة كل أمة وتجارتها وصناعتها وما يتعلق بذلك<sup>711</sup>، فهي تبحث في المنتجات والمحاصيل، وترتكز على دراسة الموقع وكيفية توزيع الأنشطة الاقتصادية.

705 - نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب لبنان، 1987م، ص49

706 - سورة النور، الآية(43)

707 - سورة النبأ، الآية 6-7

708 - دائرة المعارف الإسلامية، ج7، ص19

709 - نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص12-13

710 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/ 16)

711 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/ 17)

3/ الجغرافية الفلكية أو الرياضية: ويبحث فيها عما يتعلق بشكل الأرض والعلائق التي بينها وبين الكواكب وسكونها وحركاتها وأطول البلاد وعروضها واختلاف الليل والنهار وتكوين الفصول وما يتعلق بذلك<sup>712</sup>، فهي علم يدرس النجوم والكواكب والأفلاك، ويعتبر العهدين الأموي والعباسي بداية لتطور هذا العلم.

4/ الجغرافية البشرية والدينية: وهي علم السكان حيث يدرس العلاقة بين البيئة والنشاط البشري ومدى تأثير البيئة على النشاط البشري، كما يبحث فيها عن اختلاف أديان أهل الأرض ومللهم ومذاهبهم وطرق عبادتهم<sup>713</sup>.

5/ الجغرافية السياسية: ويبحث فيها عن وصف ما على هذا السطح من السكان والدول والحكومات وما أشبه ذلك<sup>714</sup>، فهي تدرس علم الأجناس واللغات والدول والمؤسسات<sup>715</sup>

6/ الجغرافية التاريخية: ويبحث فيها عن تاريخ الأرض وما اعترأها من تقلبات الدول وبيان الوقائع المرتبطة بالبقاع والأمكنة<sup>716</sup>

رابعا/إضافات علماء الجغرافيا المسلمين وإبداعاتهم: تجلت جهود الجغرافيين المسلمين فيما حققوه من إنجازات علمية في هذا المجال:

1- رسم المصورات الجغرافية لأكثر الأمكنة التي قاموا بزيارتها أو تعرفوا عليها، كم قاموا برسم المصورات البحرية للبحار التي قطعوها كخريطة الإدريسي.

2- ضع المعاجم الجغرافية، والتي لا تزال معتمدة إلى يوم الناس هذا، معجم البلدان لياقوت الحموي، ومعجم ما استعجم للبكري.

3- تطوير الاسطرلاب\*، وهو علم وآلة، علم يبحث فيه كيفية استخدام آلة يتوصل بها إلى معرفة كثير من الأمور عالم النجوم على أسهل طريق، كارتفاع الشمس وهو الطالع، وتحديد القبلة، وعرض البلاد<sup>717</sup>

4- أثبتوا كروية الأرض انطلاقا من نصوص القرآن كما جاء في قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَقَّارُ<sup>718</sup> ودعموه بالنظريات العملية.

5- قاموا بتحديد خطوط الطول ودوائر العرض، واتخذوا جزر البليار مبدأ خط الطول.

6- وصلوا إلى أمريكا عبر المحيط الأطلسي، واستدل العلماء على ذلك بوجود كلمات عربية في لغة الهنود الحمر، وتشابه

712 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/ 17)

713 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/ 17)

714 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/ 16)

715 - الموسوعة العربية العالمية، مادة الجغرافيا، ج8، ص407.

716 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج1/ 17)

717 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر سوريا، ط1، 1994م، ص499، كشف الظنون، ج1، ص10

718 - سورة الزمر، الآية (5)

مدينتهم بالمدينة الإسلامية<sup>719</sup>.

خامسا/ أهم الرحالة والجغرافيون المسلمون

1/البتاني [317هـ/929م]: برز كعالم في هذا الاختصاص في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، ومن أهم أعماله أنه: قام بوضع خريطة خاصة به، حدد فيها حدود البحر المتوسط ووادي النيل، إلا أنه أحدث فيها أخطاء وبالغ فيها<sup>720</sup>.

2/ابن خرد ذابة: أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خرد ذابة ت 280هـ/893م، مؤرخ وجغرافي عاش في القرن 9م، اشتغل عاملا على البريد في إقليم الجبال، وقد استفاد من وظيفته في الحصول على قد كبير من المعلومات عن الأقاليم البعيدة، ألف في أدب السماع واللهمو والملاهي والشراب، وجمهرة أنساب الفرس وغيرها، لم يبق من كتبه إلا كتاب: المسالك والممالك، ويحتوي فوائد جغرافية كثيرة، منها تقسيمات أقاليم الخلافة العباسية، وطول المسافات بين أقطار البلاد<sup>721</sup>

3/ أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي (327 هـ).

اسم الكتاب الذي طبع به، ووصف أشهر طبعاته:

طبع باسم:

مساوي الأخلاق وطرائق مكروهاها

4/الإصطخري: أبو إسحاق الإصطخري ت 950م، عالم جغرافي من علماء القرن 10م، له كتاب تقويم البلدان تحت عنوان [المسالك والممالك] وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها والمسافات بينها، مفصلا لكل أقاليم الدولة الإسلامية من الأندلس حتى بلاد ما وراء النهر، وقد وضع ذلك كله بالخرائط ويسميتها [الصور]، وجملتها تسعة عشر [19] صورة كبيرة<sup>722</sup>

5/المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود ت 956م، من أكبر المصنفين في علم التاريخ، وله فيه كتاب [مروج الذهب ومعادن الجوهر]، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهور، وكتاب الاستذكار بما مرّ في سالف الأعمار<sup>723</sup>...

6/ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلّي [ت 397هـ/977م] أحد أعمدة المدرسة الجغرافية، رحّالة جاب العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب في مدة ثلاثين سنة، ألف كتاب [المسالك والممالك]، وهو مثل كتاب الممالك

719 - كشف الظنون، ج 1، ص 10

720 - يسرى عبد الرزاق الجوهري: الكشوفات الجغرافية، ص 15

721 - شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص 493، ويسرى عبد الرزاق: المصدر نفسه، ص 78، والزركلي خير الدين: الأعلام ج 4، ص 190.

722 - يسرى عبد الرزاق الجوهري: الكشوفات الجغرافية، ص 78-80

723 - ابن النديم: الفهرست، ص 188، يسرى عبد الرزاق: المصدر نفسه، ص 80، نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص 156

**7- البيروني:** أبو الريحان محمد بن أحمد البروني [362-442هـ/963-1050م]، وولد ببغداد ونسب إليها، من علماء القرن 11م، عاش حياته في ترحال دائم، ألف المؤلفات منها: تاريخ الهند، قانون المسعودي، التأريخ<sup>725</sup>

**8/ الإدريسي:** محمد بن محمد بن عبد الله الشرف الإدريسي [560هـ/1165م]، عالم جغرافي عاش في القرن 12م، وولد وتعلم بقرطبة، وطاف بلاد الإسلام مشرقاً ومغرباً، ونزل على روجر الثاني ملك صقلية<sup>726</sup> فعرف قدره ومكانته فأجله وأنزله أحسن منزل، وألف له كتاب [نزهة المشتاق في اختراق الآفاق] وبقي المعول عليه لمدة قرون لدى علماء الجغرافيا في أوروبا، ولذلك اعتبر أعظم جغرافي عبر العصر الإسلامي، وكتابه يزخر بالمعلومات، ويقال أنه أول من صنع كرة أرضية لروجر الثاني، رسم عليها خريطة تضم جميع بلاد العالم رسماً مشروحاً<sup>727</sup>.

**8/ ياقوت الحموي:** أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي [ت626هـ/1229م] مؤرخ ثقة من علماء الجغرافيا واللغة والأدب، أصله من بلاد الروم أسر إلى بغداد فاشترته تاجراً يلقب بعسكر الحموي، فعلمه مولاه وشغله في الأسفار التجارية، ثم أعتقه، فأخذ ياقوت يكسب رزقه بنسخ الكتب، فأفاد بالمطالعة علماً كثيراً، ثم انطلق يتجول في بلاد الإسلام، وبعد غزو جنكيز خان التتاري بلاد الإسلام توجه إلى حلب واستر بها حتى توفي، من مؤلفاته معجم البلدان، وهو معجم جغرافي وكتاب تاريخ ومصدر هام بل خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية، وله كتاب [إرشاد الأريب] المعروف باسم معجم الأدباء<sup>728</sup>

**9- ابن بطوطة:** أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ابن بطوطة، مؤرخ ورحالة من أهل طنجة وبها مولده ووفاته، طاف بلاد الإسلام مشرقاً ومغرباً، واتصل بكثير من الملوك والأمراء بمدحهم كان ينظم الشعر، له رحلة دامت 27 سنة جمع فيها مشاهداته ووصف فيها البلدان والمدن وعنونها بـ [تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار]، وهي مشهورة برحلة ابن بطوطة<sup>729</sup>

**10- ابن خلدون:** عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن خلدون [1332-1406م]، توفي بالقاهرة من أشهر علماء القرن 14م، تنقل بين البلدان المستقلة شمال إفريقيا، وأشهر كتبه المقدمة، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان

<sup>724</sup> - الزركلي خير الدين: الأعلام ج، ج6، ص111، و يسرى عبد الرزاق: المصدر السابق، ص81

<sup>725</sup> - حسن عاصي: المنهج في تاريخ العلوم عند العرب، دار المدائن، ط1، 1991م، ص109، يسرى عبد الرزاق: المصدر نفسه، ص91

<sup>726</sup> - تاريخ إفريقيا العام، ج4، ص36

<sup>727</sup> - يسرى عبد الرزاق الجوهري: الكشوفات الجغرافية، ص91، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص91

<sup>728</sup> - الزركلي: الأعلام، ج8، ص131، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص6، المنذري: التكملة، مج3، ص249-250، يسرى عبد الرزاق الجوهري: الكشوفات الجغرافية، ص95-96

<sup>729</sup> - الزركلي: المصدر نفسه، ج6، ص235، يسرى عبد الرزاق الجوهري: الكشوفات الجغرافية، ص95-96.

الأكبر، وخص الجزء الأول منه بقسط العمران من الإشارة إلى البحار والأنهار والأقاليم<sup>730</sup>.

—  
-2 -1

-4 -3

المؤسسات والمرافق الأساسية:

ويصف ليون الإفريقي بجاية فيقول " فيها جوامع كافية ومدارس يكثُر فيها الطلبة، وأساتذة الفقه، والعلوم المتنوعة بالإضافة إلى زوايا المتصوفة وحمامات وفنادق ومارستانات وكلها صروح مشيدة حسنة البناء"<sup>731</sup>

المؤسسات العلمية

المدارس: وهذه المدارس كانت عبارة عن مؤسسات حكومية كما أشار إليها برونشفيك " أن بجاية أول من أخذت عن المشرق فكرة إنشاء هذه المدارس " فأبو زكريا هو مؤسس دولة الحفصيين و أمير بجاية ، أول من أسس مدرسة في بجاية الحفصية عام 648 هـ . و ثاني مدرسة أنشأت في بجاية كانت في القرن 13 م وكذلك بالنسبة للمدرسة الثالثة ، و إلى جانب هذه المدارس كان قصر السلطان مركز علم ، فأحيانا يطلب من العلماء

---

<sup>730</sup> - ابن خلدون: العبر، ج11، ص795، ويسرى عبد الرزاق: المصدر نفسه، ص98-99

<sup>731</sup> الحسن بن محمد الوزاني الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي و آخرون ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط2 ، 1983 ، ج1 ص50

الحاضرين أن يفسروا أمامه نصا يحدده في مجال تخصص هذا العالم ، بالإضافة إلى هذا كانت جلسات العلم تتم في مناسبات أعياد إسلامية فتكون بينهما أمسيات أدبية و شعرية<sup>732</sup>...

<sup>1</sup> ألفرد بيل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط3 ، 1987 ، ص 356-360 الزوايا:

المصدر	الوظيفة	المكان	تاريخها	إسم الزاوية ( المدرسة )
733	/	خارج باب أميسون بجاية	توفي صاحبها ( 652 هـ - 1254 م )	رباطة ( الزاوية ) علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي
734	يعتمد فيها الطلبة على إعانة أنفسهم	بجاية	توفي صاحبها ( 662 هـ - 1263 م )	رباطة ( الزاوية ) أبي الفضل قاسم القرطبي
735	جمع الطلبة	بجاية	توفي صاحبها أواخر القرن السادس الهجري	رباطة ( الزاوية ) ابن الزيات
736	التعبد و الخلوة	بجاية	أنشأت في سنة 611 هـ	رباطة ( زاوية ) أبي زكرياء يحيى الزواوي

<sup>1</sup> الغبريني : عنوان الدراية ، مصدر سابق ، ص 143

<sup>1</sup> المصدر نفسه ، ص 162

<sup>1</sup> ابن الزيات : التشوف ، ص 330 ، نقلا عن أمال لدرع ، الحركة الصوفية في المغرب خلال العصر الزياني (633هـ،962م،1226م،1555م).رسالة الماجستير ، سنة 2006، ص479.

<sup>1</sup> الغبريني : عنوان الدراية ، مصدر سابق ، ص 137 - 138

<sup>11</sup> الغبريني : عنوان الدراية ، مصدر سابق ، ص 41

من الحياة الفنية فيها، وذلك حتى نبين للقارئ إنها لم تكن مدينة علمية فقط، بل اهتمت بالجانب الثقافي، إذ كانت شديدة الحرص على النقش في الجدران وزخرفة السقوف بالفسيفساء وبالكلس وبأشكال مختلفة ومصبوغة بألوان متنوعة، فكانت هذه الأشكال تمثل حلقات مذهب ومفضضة، ذلك للمعان المعدني التي كانت نادرة جدا وسرها مفقود اليوم، إذ كان بجاية صناع تقليديون للزجاج، وبها زجاجات بلنسية وزجاجات للعطور وبعض الصحن المختلفة الدقيقة في الصنع، ومن الآثار الدالة على

<sup>732</sup> ألفرد بيل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط3 ، 1987 ، ص 356-360 باختصار .

<sup>733</sup> الغبريني : عنوان الدراية ، مصدر سابق ، ص 143

<sup>734</sup> المصدر نفسه ، ص 162

<sup>735</sup> ابن الزيات : التشوف ، ص 330 ، نقلا عن أمال لدرع ، الحركة الصوفية في المغرب خلال العصر الزياني (633هـ،962م،1226م،1555م).رسالة الماجستير ، سنة 2006، ص479.

<sup>736</sup> الغبريني : عنوان الدراية ، مصدر سابق ، ص 137 - 138



ازدهارها تلك الآيات القرآنية المحفورة على الجدران والسقوف، والمنقوشة بطرق فنية مختلفة، ومن البديهي أن لا يكون الخطاطون غرباء عن الإسلام بدليل أنهم كانوا يخططون الآيات القرآنية وينقشونها على الأماكن المتعددة<sup>737</sup>.

من بجاية وصلت شطية مدهشة من قناة في الهواء الطلق على الرخام المنحوت، والقعر المسطح لهذه القناة القليل العمق، يمثل صغيرة مجدولة منتهية بفروعها الثلاث بثلاثة أسماك، وهذا لرسم يهدف إلى جعل المياه كتمع تحت أشعة الشمس عند اتجاهها نحو الحوض، وكذلك وجود تزيينات معمارية على شكل أصداف، وطاقات زهرية منظمة بصورة كاملة تشهد ببراعة وإتقان<sup>738</sup>، كما وجدت كذلك كتابات على حجارات القبور وعلى أقواس الأبواب فقد ذكر الشاعر القسنطيني ابن حمديس في القرن السادس بجاية وتحدث عن العهد الحمادي وما يليه من العصور قائلا: "أحواض بجاية على جوانبها أسود ينبثق الماء من أفواهها، قادمًا من الينابيع وهي تشبه حد السيف اللامع"<sup>739</sup>.

وكانت أيضا تتمتع بالمصاييح المختلفة وحاملات الشموع والأباريق ودلال القهوة، وأدوات الاستحمام والأثاث ومقابض الأبواب ومطارقها، فكانت هذه الأبواب مطعمة بالفضة، وحتى العملة كانت تسبك في الناصرية وهذا قبل القرن السابع هجري، وتوجد بها من الجواهرات الذهب والفضة، وحتى اليوم فإنها مشهورة بصناعاتها التقليدية في هذا المجال، لا سيما صناعة الفضة، كالمشابك والعقود والأسوار، الخللخال الثقيل، هذا دليل على أن هناك ورشات كبيرة ومختلفة تتم فيها صناعة هذه المواد التقليدية<sup>740</sup>.

لقد كانت بجاية يطلق عليها لقب لؤلؤة المغرب، وكانت ملتقى رجال الأعمال من أوروبا في

#### تجارة الجلود والشموع والصوف<sup>741</sup>

<sup>1</sup> إبراهيم حركات، مرجع سابق، ج2، ص399.

<sup>1</sup> بجاية، سلسلة الفن والثقافة، مرجع سابق، ص58،63.

<sup>11</sup> المرجع نفسه، ص63.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص63.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص64،70.

<sup>737</sup> بجاية، سلسلة الفن والثقافة، مرجع سابق، ص58،63.

<sup>738</sup> المرجع نفسه، ص63.

<sup>739</sup> المرجع نفسه، ص63.

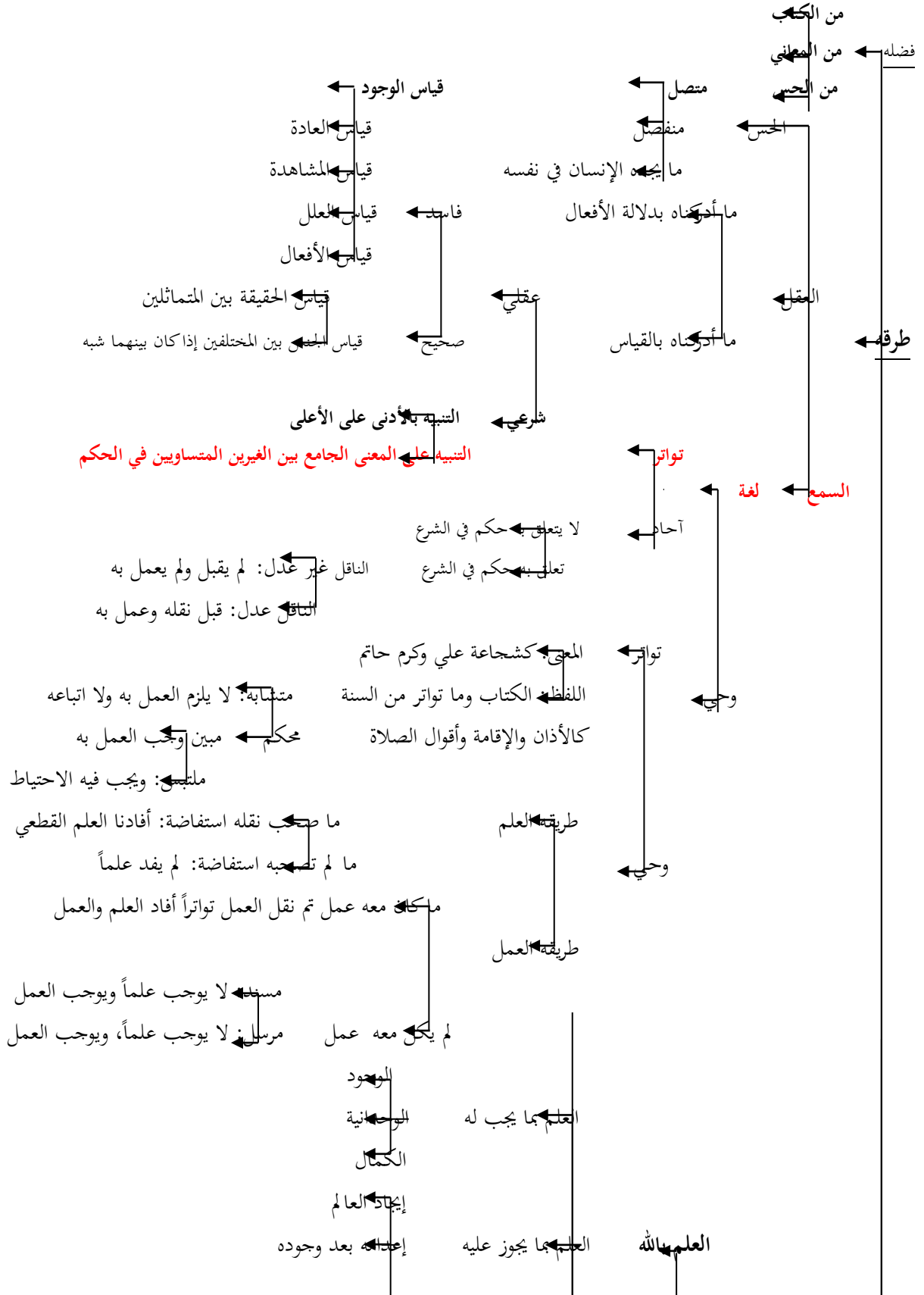
<sup>740</sup> المرجع نفسه، ص64،70.

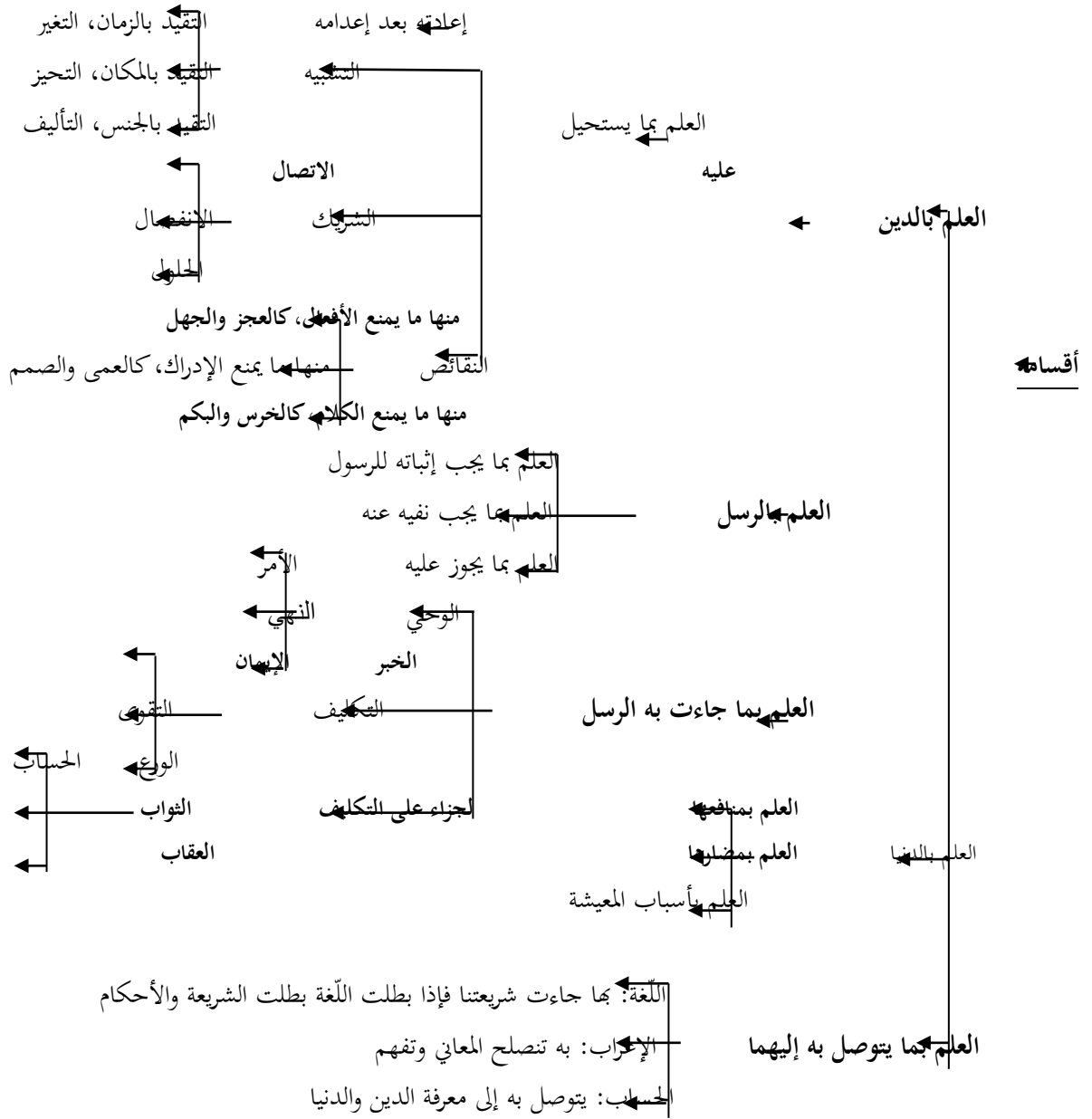
<sup>741</sup> المرجع نفسه، ص91.

## الملحق 1

منهج ابن تومرت العلمي من خلال كتاب أعز ما يطلب

الكلام في العلم ثلاثة أقسام :





## علم الحديث في الحضارة الإسلامية

أبو عقبة همام بن منبه بن كامل بن شيخ اليماني الصنعاني الأبنواوي: من أبناء **الفرس** في صنعاء، من ثقات التابعين، صاحب أقدم تأليف في الحديث النبوي، كان يغزو يشتري الكتب لأخيه «وهب»، ولازم أبا هريرة، فأخذ عنه نحو 140 حديثاً، وصنفها في رسالة «الصحيفة الصحيحة - ط» أثبتها ابن حنبل، مجموعة، في مسنده (2: 312 - 319) ومنها مخطوطتان، بينهما وبين ما في مسند ابن حنبل اختلاف يسير.

عاش طويلاً حتى سقط حاجباه على عينيه قال الشرجي: وكانت وفاته بصنعاء

بيانات المؤلفين نقلاً عن: الأعلام للزركلي

**البساتين والحقول:**

مسلم: **حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُؤْنَسَ الْحَنْفِيُّ حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو كَثِيرٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو**

هُرَيْرَةَ قَالَ كُنَّا نُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَرَعْنَا فَعُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَرَعَ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِيَبْنِيَ النَّجَارُ فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ أَبًا فَلَمْ أَجِدْ فَإِذَا رِبْعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بئرِ خَارِجَةِ وَالرَّبْعُ الْجُدُولُ فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا شَأْنُكَ قُلْتُ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَعُمْنَا فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا فَفَرَعْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَرَعَ فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ وَهَذَا النَّاسُ وَرَائِي فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَأَعْطَانِي نَعْلِيهِ قَالَ أَذْهَبَ بِنَعْلِي هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِمَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ... قوله : ( حدثني أبو كثير ) هو بالمثلثة واسمه يزيد بالزاي ابن عبد الرحمن بن أذينة . ويقال : ابن غفيلة بضم الغين المعجمة وبالفاء . ويقال : ابن عبد الله بن أذينة . قال أو عوانة الإسفراييني في مسنده : غفيلة أصح من أذينة . قوله : ( كنا قعودا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم معنا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في نفر ) قال أهل اللغة يقال قعدنا حوله وحوليه وحواليه وحواله بفتح الحاء واللام في جميعهما أي على جوانبه . قالوا : ولا يقال : حواليه بكسر اللام . وأما قوله ( ومعنا أبو بكر وعمر ) فهو من فصيح الكلام وحسن الإخبار فإنهم إذا أرادوا الإخبار عن جماعة فاستكثروا أن يذكرها جميعهم بأسمائهم , ذكروا أشرافهم أو بعض أشرافهم , ثم قالوا : وغيرهم . وأما قوله ( معنا ) بفتح العين هذه اللغة المشهورة . ويجوز تسكينها في لغة حكاها صاحب المحكم والجوهري وغيرهما وهي للمصاحبة . قال صاحب المحكم : ( مع ) اسم معناه الصحبة وكذلك ( مع ) بإسكان العين . غير أن المحركة تكون اسما وحرفا , والساكنة لا تكون إلا حرفا . قال اللحياني : قال الكسائي : ربيعة وغنم يسكنون فيقولون معكم ومعنا فإذا جاءت الألف واللام أو ألف الوصل اختلفوا فبعضهم يفتح العين وبعضهم يكسرها مع القوم ومع ابنك , وبعضهم يقول مع القوم ومع ابنك . أما من فتح فبناه على قولك كنا معا ونحن معا . فلما جعلها حرفا وأخرجها عن الاسم حذف الألف وترك العين على فتحها . وهذه لغة عامة العرب . وأما من سكن ثم كسر عند ألف الوصل فأخرجه مخرج الأدوات مثل ( هل ) و ( بل ) فقال : مع القوم , كقولك هل القوم ؟ وبل القوم . وهذه الأحرف التي ذكرتها في ( مع ) وإن لم يكن هذا موضعها فلا ضرر في التنبيه عليها لكثرة ترادفها . والله أعلم . قوله : ( فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا ) وقال بعده : ( كنت بين أظهرنا ) . هكذا هو في الموضوعين أظهرنا . وقال القاضي عياض رحمه الله : ووقع الثاني في بعض الأصول ظهرنا وكلاهما صحيح . قال أهل اللغة يقال : نحن بين أظهركم وظهركم وظهرانيكم وظهرانيكم بفتح النون أي بينكم . قوله : ( وخشينا أن يقتطع دوننا ) أي يصاب بمكروه من عدو إما بأسر وإما بغيره . قوله : ( وفرعنا وقمنا فكنت أول من فرع ) قال القاضي عياض رحمه الله الفرع يكون بمعنى الروع , وبمعنى الهبوب للشيء والاهتمام به , وبمعنى الإغاثة . قال : فتصح هذه المعاني الثلاثة أي ذعرنا لاحتباس النبي صلى الله عليه وسلم عنا . ألا تراه كيف قال : وخشينا أن يقتطع دوننا ؟ ويدل على الوجهين الآخرين قوله : فكنت أول من فرع . قوله : ( حتى أتيت حائطاً للأنصار ) أي بستانا وسمي بذلك لأنه حائط لا سقف له . قوله : ( فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة والربيع الجدول ) أما ( الربيع ) بفتح الراء على لفظ الربيع الفصل المعروف . و ( الجدول ) بفتح الجيم وهو النهر الصغير . وجمع الربيع أربعاء كنبى وأنبياء . وقوله ( بئر خارجة ) هكذا ضبطناه بالتنوين في بئر وفي خارجة على أن خارجة صفة لبئر . وكذا نقله الشيخ أبو عمرو بن الصلاح عن الأصل الذي هو بخط الحافظ أبي عامر العبدري , والأصل المأخوذ عن الجلودي . وذكر الحافظ أبو موسى الأصبهاني وغيره أنه روي على ثلاثة أوجه : أحدها هذا . والثاني من بئر خارجة بتنوين بئر وبهاء

في آخر خارجه مضمومة وهي هاء ضمير الحائض أي البئر في موضع خارج عن الحائط . والثالث من بئر خارجه بإضافة بئر إلى خارجه آخره تاء التأنيث وهو اسم رجل . والوجه الأول هو المشهور الظاهر . وخالف هذا صاحب التحرير فقال : الصحيح هو الوجه الثالث . قال : والأول تصحيف . قال : والبئر يعنون بها البستان . قال : وكثيرا ما يفعلون هذا فيسمون البساتين بالآبار التي فيها يقولون : بئر أريس , وبئر بضاعة , وبئر حاء وكلها بساتين . هذا كلام صاحب التحرير وأكثره أو كله لا يوافق عليه . والله أعلم . والبئر مؤنثة مهموزة يجوز تخفيف همزتها وهي مشتقة من بارت أي حفرت وجمعها في القلة أبور وأبار بهمزة بعد الباء فيهما . ومن العرب من يقلب الهمزة في آبار وينقل فيقول آبار . وجمعها في الكثرة بئار بكسر الباء بعدها همزة . والله أعلم . قوله : ( فاحتفرت كما يحتفز الثعلب ) هذا قد روي على وجهين روي بالزاي , وروي بالراء . قال القاضي عياض : رواه عامة شيوخنا بالراء عن العبدري وغيره . قال : وسمعنا عن الأسدي عن أبي الليث الشاشي عن عبد الغافر الفارسي عن الجلودي بالزاي . وهو الصواب . ومعناه تضاممت ليسعني المدخل . وكذا قال الشيخ أبو عمرو : إنه بالزاي في الأصل الذي بخط أبي عامر العبدري , وفي الأصل المأخوذ عن الجلودي وإنها رواية الأكثرين وإن رواية الزاي أقرب من حيث المعنى , ويدل عليه تشبيهه بفعل الثعلب وهو تضامه في المضايق . وأما صاحب التحرير فأنكر الزاي وخطأ رواها واختار الراء وليس اختياره بمختار . والله أعلم . قوله : ( فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبو هريرة فقلت : نعم ) معناه أنت أبو هريرة . قوله : ( فقال : يا أبا هريرة وأعطاني نعليه , وقال : اذهب بنعلي هاتين ) في هذا الكلام فائدة لطيفة فإنه أعاد لفظه قال , وإنما أعادها لطول الكلام وحصول الفصل بقوله يا أبا هريرة وأعطاني نعليه وهذا حسن وهو موجود في كلام العرب بل جاء أيضا في كلام الله تعالى . قال الله تبارك وتعالى : { ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به } قال الإمام أبو الحسن الواحدي : قال محمد بن يزيد : قوله تعالى : { فلما جاءهم } تكرير للأول لطول الكلام . قال ومثله قوله تعالى : { أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون } أعاد { أنكم } لطول الكلام . والله أعلم . وأما إعطاؤه النعلين فلتكون علامة ظاهرة معلومة عندهم يعرفون بها أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم ويكون أوقع في نفوسهم لما يخبرهم به عنه صلى الله عليه وسلم . ولا ينكر كون مثل هذا يفيد تأكيدا وإن كان خبره مقبولا من غير هذا . والله أعلم . قوله صلى الله عليه وسلم : ( فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بما قلبه فبشره بالجنة ) معناه أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة . وإلا فأبو هريرة لا يعلم استيقان قلوبهم . وفي هذا دلالة ظاهرة لمذهب أهل الحق أنه لا ينفع اعتقاد التوحيد دون النطق , ولا النطق دون الاعتقاد . بل لا بد من الجمع بينهما . وقد تقدم إيضاحه في أول الباب . وذكر القلب هنا للتأكيد ونفي توهم المجاز . إلا فالاستيقان لا يكون إلا بالقلب . قوله : ( فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ فقلت : هاتين نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني بهما ) هكذا هو في جميع الأصول . ( فقلت : هاتين نعلا ) بنصب هاتين ورفع نعلا وهو صحيح معناه فقلت يعني هاتين هما نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنصب هاتين بإضمار يعني وحذف هما التي هي المبتدأ للعلم به . وأما قوله : ( بعثني بهما ) فهكذا ضبطناه ( بهما ) على التشبية وهو ظاهر . ووقع في كثير من الأصول أو أكثرها ( بها ) من غير ميم . وهو صحيح أيضا . ويكون الضمير عائدا إلى العلامة ; فإن النعلين كانتا علامة . والله أعلم . قوله : ( فضرب عمر رضي الله عنه بين ثدي فخررت لاستي , فقال ارجع يا أبا هريرة ) أما قوله ( ثديي ) فثنائية ثدي بفتح الثاء وهو مذكر وقد يؤنث في لغة قليلة . واختلفوا في اختصاصه بالمرأة . فمنهم من قال : يكون للرجل والمرأة . ومنهم من قال : هو للمرأة خاصة فيكون إطلاقه في الرجل مجازا واستعارة . وقد كثر

إطلاقه في الأحاديث للرجل وسأزيده إيضاحاً إن شاء الله تعالى في باب غلط تحريم قتل الإنسان نفسه . وأما قوله : ( لاسي ) فهو اسم من أسماء الدبر والمستحب في مثل هذا الكناية عن قبيح الأسماء واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه . وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز والسنن كقوله تعالى : { أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم } { وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض } { وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن } { أو جاء أحد منكم من الغائط } { فاعتزلوا النساء في المحيض } وقد يستعملون صريح الاسم لمصلحة راجحة وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك كقوله تعالى { الزانية والزاني } وكقوله صلى الله عليه وسلم : " أنكثها " وكقوله صلى الله عليه وسلم : " أدبر الشيطان وله ضراط " وكقول أبي هريرة رضي الله عنه : " الحدث فساء أو ضراط " ونظائر ذلك كثيرة , واستعمال أبي هريرة هنا لفظ الاست من هذا القبيل . والله أعلم وأما دفع عمر رضي الله عنه له فلم يقصد به سقوطه وإيذاؤه بل قصد رده عما هو عليه , وضرب يده في صدره ليكون أبلغ في زجره . قال القاضي عياض وغيره من العلماء رحمهم الله : وليس فعل عمر رضي الله عنه ومراجعته النبي صلى الله عليه وسلم اعتراضاً عليه ورداً لأمره إذ ليس فيما بعث به أبا هريرة غير تطيب قلوب الأمة وبشراهم , فرأى عمر رضي الله عنه أن كنتم هذا أصلح لهم وأحرى أن لا يتكلموا , وأنه أعود عليهم بالخير من معجل هذه البشرية . فلما عرضه على النبي صلى الله عليه وسلم صوبه فيه . والله تعالى أعلم . وفي هذا الحديث أن الإمام والكبير مطلقاً إذا رأى شيئاً ورأى بعض أتباعه خلافه أنه ينبغي للتابع أن يعرضه على المتبوع لينظر فيه فإن ظهر له أن ما قاله التابع هو الصواب رجح إليه وإلا بين للتابع جواب الشبهة التي عرضت له . والله أعلم . قوله : ( فأجهشت بكاء وركبني عمر رضي الله عنه وإذا هو على أثري ) أما قوله : ( أجهشت ) فهو بالجحيم والشين المعجمة , والهمزة والهاء مفتوحتان . هكذا وقع في الأصول التي رأيناها . ورأيت في كتاب القاضي عياض رحمه الله : فجهشت بحذف الألف وهما صحيحان . قال أهل اللغة . يقال : جهشا وجهوشا وأجهشت إجهاشا . قال القاضي عياض رحمه الله : وهو أن يفرغ الإنسان إلى غيره وهو متغير الوجه متهيئ للبكاء , ولما يبك بعد . قال الطبري : هو الفرغ والاستغاثة . وقال أبو زيد : جهشت للبكاء والحزن والشوق . والله أعلم . وأما قوله : بكاء فهو منصوب على المفعول له . وقد جاء في رواية ( للبكاء ) . والبكاء يمد ويقصر لغتان . وأما قوله ( وركبني عمر ) فمعناه تبعني ومشى خلفي في الحال بلا مهلة . وأما قوله ( على أثري ) ففيه لغتان فصيحتان مشهورتان بكسر الهمزة وإسكان التاء وبفتحهما . والله أعلم . قوله : ( بأبي أنت وأمي ) معناه أنت مفدى أو أفديك بأبي وأمي . واعلم أن حديث أبي هريرة هذا مشتمل على فوائد كثيرة تقدم في أثناء الكلام منه جمل . ففيه جلوس العالم لأصحابه ولغيرهم من المستفتين وغيرهم يعلمهم ويفيدهم ويفتيهم . وفيه ما قدمناه أنه إذا أراد ذكر جماعة كثيرة فاقصر على ذكر بعضهم ذكر أشرافهم أو بعض أشرافهم ثم قال : وغيرهم . وفيه بيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من القيام بحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم وإكرامه والشفقة عليه والانتزاع البالغ لما يطرقه صلى الله عليه وسلم . وفيه اهتمام الأتباع بحقوق متبوعهم والاعتناء بتحصيل مصالحه ودفع المفسد عنه . وفيه جواز دخول الإنسان ملك غيره بغير إذنه إذا علم يرضى ذلك لمودة بينهما أو غير ذلك . فإن أبا هريرة رضي الله عنه دخل الحائط وأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك , ولم ينقل أنه أنكر عليه . وهذا غير مختص بدخول الأرض بل يجوز له الانتفاع بأدواته وأكل طعامه والحمل من طعامه إلى بيته وركوب دابته ونحو ذلك من التصرف الذي يعلم أنه لا يشق على صاحبه . هذا هو المذهب الصحيح الذي عليه جماهير السلف والخلف من العلماء رحمة الله عليهم , وصرح به أصحابنا . قال أبو عمر بن عبد البر : وأجمعوا على أنه لا يتجاوز الطعام وأشباهه إلى الدراهم والدنانير وأشباههما . وفي ثبوت الإجماع

في حق من يقطع بطيب قلب صاحبه بذلك نظر . ولعل هذا يكون في الدراهم الكثيرة التي يشك أو قد يشك في رضاه بها فإنهم اتفقوا على أنه إذا تشكك لا يجوز التصرف مطلقا فيما تشكك في رضاه به . ثم دليل الجواز في الباب الكتاب والسنة وفعل وقول أعيان الأمة . فالكتاب قوله تعالى : { ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم } إلى قوله تعالى : { أو صديقكم } والسنة هذا الحديث , وأحاديث كثيرة معروفة بنحوه . وأفعال السلف وأقوالهم في هذا أكثر من أن تحصى . والله تعالى أعلم . وفيه إرسال الإمام والمتبوع إلى أتباعه بعلامة يعرفونها ليزدادوا بها طمأنينة . وفيه ما قدمناه من الدلالة لمذهب أهل الحق أن الإيمان المنجي من الخلود في النار لا بد فيه من الاعتقاد والنطق . وفيه جواز إمساك بعض العلوم التي لا حاجة إليها للمصلحة أو خوف المفسدة . وفيه إشارة بعض الأتباع على المتبوع بما يراه مصلحة , وموافقة المتبوع له إذا رآه مصلحة , ورجوعه عما أمر به بسببه . وفيه جواز قول الرجل للآخر بأبي أنت وأمي . قال القاضي عياض رحمه الله : وقد كرهه بعض السلف . وقال : لا يفدى بمسلم . والأحاديث الصحيحة تدل على جوازه سواء كان المفدى به مسلما أو كافرا حيا كان أو ميتا . وفيه غير ذلك . والله أعلم . قوله : ( حدثني أبو كثير ) هو بالمثلثة واسمه يزيد بالزاي ابن عبد الرحمن بن أذينة . ويقال : ابن غفيلة بضم الغين المعجمة وبالفاء . ويقال : ابن عبد الله بن أذينة . قال أو عوانة الإسفرايني في مسنده : غفيلة أصح من أذينة . قوله : ( كنا قعودا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم معنا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في نفر ) قال أهل اللغة يقال قعدنا حوله وحوليه وحواليه وحواله بفتح الحاء واللام في جميعهما أي على جوانبه . قالوا : ولا يقال : حواليه بكسر اللام . وأما قوله ( ومعنا أبو بكر وعمر ) فهو من فصيح الكلام وحسن الإخبار فإنهم إذا أرادوا الإخبار عن جماعة فاستكثروا أن يذكرها جميعهم بأسمائهم , ذكروا أشرافهم أو بعض أشرافهم , ثم قالوا : وغيرهم . وأما قوله ( معنا ) بفتح العين هذه اللغة المشهورة . ويجوز تسكينها في لغة حكاها صاحب المحكم والجوهري وغيرهما وهي للمصاحبة . قال صاحب المحكم : ( مع ) اسم معناه الصحبة وكذلك ( مع ) بإسكان العين . غير أن الحركة تكون اسما وحرفا , والساكنة لا تكون إلا حرفا . قال اللحياني : قال الكسائي : ربيعة وغنم يسكنون فيقولون معكم ومعنا فإذا جاءت الألف واللام أو ألف الوصل اختلفوا فبعضهم يفتح العين وبعضهم يكسرها مع القوم ومع ابنك , وبعضهم يقول مع القوم ومع ابنك . أما من فتح فبناه على قولك كنا معا ونحن معا . فلما جعلها حرفا وأخرجها عن الاسم حذف الألف وترك العين على فتحها . وهذه لغة عامة العرب . وأما من سكن ثم كسر عند ألف الوصل فأخرجه مخرج الأدوات مثل ( هل ) و ( بل ) فقال : مع القوم , كقولك هل القوم ؟ وبل القوم . وهذه الأحرف التي ذكرتها في ( مع ) وإن لم يكن هذا موضعها فلا ضرر في التنبيه عليها لكثرة ترددها . والله أعلم . قوله : ( فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا ) وقال بعده : ( كنت بين أظهرنا ) . هكذا هو في الموضوعين أظهرنا . وقال القاضي عياض رحمه الله : ووقع الثاني في بعض الأصول ظهرينا وكلاهما صحيح . قال أهل اللغة يقال : نحن بين أظهركم وظهريكم وظهرانيكم بفتح النون أي بينكم . قوله : ( وخشينا أن يقتطع دوننا ) أي يصاب بمكروه من عدو إما بأسر وإما بغيره . قوله : ( وفرعنا وقمنا فكنت أول من فرغ ) قال القاضي عياض رحمه الله الفرع يكون بمعنى الروع , وبمعنى الهبوب للشيء والاهتمام به , وبمعنى الإغاثة . قال : فتصح هذه المعاني الثلاثة أي ذعرنا لاحتباس النبي صلى الله عليه وسلم عنا . ألا تراه كيف قال : وخشينا أن يقتطع دوننا ؟ ويدل على الوجهين الآخرين قوله : فكنت أول من فرغ . قوله : ( حتى أتيت حائطاً للأنصار ) أي بستانا وسمي بذلك لأنه حائط لا سقف له . قوله : ( فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة والربيع الجدول ) أما ( الربيع ) بفتح الراء على لفظ الربيع الفصل المعروف . و ( الجدول ) بفتح الجيم وهو النهر

الصغير . وجمع الربيع أربعاء كني وأنبياء . وقوله ( بئر خارجة ) هكذا ضبطناه بالتنوين في بئر وفي خارجه على أن خارجة صفة لبئر . وكذا نقله الشيخ أبو عمرو بن الصلاح عن الأصل الذي هو بخط الحافظ أبي عامر العبدري ، والأصل المأخوذ عن الجلودي . وذكر الحافظ أبو موسى الأصبهاني وغيره أنه روي على ثلاثة أوجه : أحدها هذا . والثاني من بئر خارجه بتنوين بئر وبهاء في آخر خارجه مضمومة وهي هاء ضمير الحائض أي البئر في موضع خارج عن الحائض . والثالث من بئر خارجة بإضافة بئر إلى خارجة آخره تاء التأنيث وهو اسم رجل . والوجه الأول هو المشهور الظاهر . وخالف هذا صاحب التحرير فقال : الصحيح هو الوجه الثالث . قال : والأول تصحيف . قال : والبئر يعنون بها البستان . قال : وكثيرا ما يفعلون هذا فيسمون البساتين بالآبار التي فيها يقولون : بئر أريس ، وبئر بضاعة ، وبئر حاء وكلها بساتين . هذا كلام صاحب التحرير وأكثره أو كله لا يوافق عليه . والله أعلم . والبئر مؤنثة مهموزة يجوز تخفيف همزتها وهي مشتقة من بارت أي حفرت وجمعها في القلة أبؤر وآبار بهمزة بعد الباء فيهما . ومن العرب من يقلب الهمزة في آبار وينقل فيقول آبار . وجمعها في الكثرة بئار بكسر الباء بعدها همزة . والله أعلم . قوله : ( فاحتفتز كما يحتفتز الثعلب ) هذا قد روي على وجهين روي بالزاي ، وروي بالراء . قال القاضي عياض : رواه عامة شيوخنا بالراء عن العبدري وغيره . قال : وسمعنا عن الأسدي عن أبي الليث الشاشي عن عبد الغافر الفارسي عن الجلودي بالزاي . وهو الصواب . ومعناه تضاممت ليسعني المدخل . وكذا قال الشيخ أبو عمرو : إنه بالزاي في الأصل الذي بخط أبي عامر العبدري ، وفي الأصل المأخوذ عن الجلودي وإنها رواية الأكثرين وإن رواية الزاي أقرب من حيث المعنى ، ويدل عليه تشبيهه بفعل الثعلب وهو تضامه في المضايق . وأما صاحب التحرير فأنكر الزاي وخطأ رواها واختار الراء وليس اختياره بمختار . والله أعلم . قوله : ( فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبو هريرة فقلت : نعم ) معناه أنت أبو هريرة . قوله : ( فقال : يا أبا هريرة وأعطاني نعليه ، وقال : اذهب بنعلي هاتين ) في هذا الكلام فائدة لطيفة فإنه أعاد لفظه قال ، وإنما أعادها لطول الكلام وحصول الفصل بقوله يا أبا هريرة وأعطاني نعليه وهذا حسن وهو موجود في كلام العرب بل جاء أيضا في كلام الله تعالى . قال الله تبارك وتعالى : { ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به } قال الإمام أبو الحسن الواحدي : قال محمد بن يزيد : قوله تعالى : { فلما جاءهم } تكرير للأول لطول الكلام . قال ومثله قوله تعالى : { أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون } أعاد { أنكم } لطول الكلام . والله أعلم . وأما إعطاؤه النعلين فلتكون علامة ظاهرة معلومة عندهم يعرفون بها أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم ويكون أوقع في نفوسهم لما يخبرهم به عنه صلى الله عليه وسلم . ولا ينكر كون مثل هذا يفيد تأكيدا وإن كان خبره مقبولا من غير هذا . والله أعلم . قوله صلى الله عليه وسلم : ( فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بما قلبه فبشره بالجنة ) معناه أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة . وإلا فأبو هريرة لا يعلم استيقان قلوبهم . وفي هذا دلالة ظاهرة لمذهب أهل الحق أنه لا ينفع اعتقاد التوحيد دون النطق ، ولا النطق دون الاعتقاد . بل لا بد من الجمع بينهما . وقد تقدم إيضاحه في أول الباب . وذكر القلب هنا للتأكيد ونفي توهم المجاز . إلا فالاستيقان لا يكون إلا بالقلب . قوله : ( فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ فقلت : هاتين نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني بهما ) هكذا هو في جميع الأصول . ( فقلت : هاتين نعلا ) بنصب هاتين ورفع نعلا وهو صحيح معناه فقلت يعني هاتين هما نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنصب هاتين بإضمار يعني وحذف هما التي هي المبتدأ للعلم به . وأما قوله : ( بعثني بهما ) فهكذا ضبطناه ( بهما ) على التثنية وهو ظاهر . ووقع في كثير من الأصول أو أكثرها ( بها ) من غير ميم . وهو صحيح أيضا .



ويكون الضمير عائدا إلى العلامة ; فإن النعلين كانتا علامة . والله أعلم . قوله : ( فضرب عمر رضي الله عنه بين ثديي فحررت لاستي , فقال ارجع يا أبا هريرة ) أما قوله ( ثديي ) فثنية ثدي بفتح الثاء وهو مذكر وقد يؤنث في لغة قليلة . واختلفوا في اختصاصه بالمرأة . فمنهم من قال : يكون للرجل والمرأة . ومنهم من قال : هو للمرأة خاصة فيكون إطلاقه في الرجل مجازا واستعارة . وقد كثر إطلاقه في الأحاديث للرجل وسأزيده إيضاحا إن شاء الله تعالى في باب غلط تحريم قتل الإنسان نفسه . وأما قوله : ( لاستي ) فهو اسم من أسماء الدبر والمستحب في مثل هذا الكناية عن فييح الأسماء واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه . وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز والسنن كقوله تعالى : { أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم } { وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض } { وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن { أو جاء أحد منكم من الغائط { فاعتزلوا النساء في المحيض { وقد يستعملون صريح الاسم لمصلحة راجحة وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك كقوله تعالى { الزانية والزاني } وكقوله صلى الله عليه وسلم : " أنكثها " وكقوله صلى الله عليه وسلم : " أدبر الشيطان وله ضراط " وكقول أبي هريرة رضي الله عنه : " الحدث فسأ أو ضراط " ونظائر ذلك كثيرة , واستعمال أبي هريرة هنا لفظ الاست من هذا القبيل . والله أعلم وأما دفع عمر رضي الله عنه له فلم يقصد به سقوطه وإيذاؤه بل قصد رده عما هو عليه , وضرب بيده في صدره ليكون أبلغ في زجره . قال القاضي عياض وغيره من العلماء رحمهم الله : وليس فعل عمر رضي الله عنه ومراجعته النبي صلى الله عليه وسلم اعتراضا عليه وردا لأمره إذ ليس فيما بعث به أبا هريرة غير تطيب قلوب الأمة وبشراهم , فرأى عمر رضي الله عنه أن كتم هذا أصلح لهم وأحرى أن لا يتكلوا , وأنه أعود عليهم بالخير من معجل هذه البشرى . فلما عرضه على النبي صلى الله عليه وسلم صوبه فيه . والله تعالى أعلم . وفي هذا الحديث أن الإمام والكبير مطلقا إذا رأى شيئا ورأى بعض أتباعه خلافه أنه ينبغي للتابع أن يعرضه على المتبوع لينظر فيه فإن ظهر له أن ما قاله التابع هو الصواب رجع إليه وإلا بين للتابع جواب الشبهة التي عرضت له . والله أعلم . قوله : ( فأجهشت بكاء وركبني عمر رضي الله عنه وإذا هو على أثري ) أما قوله : ( أجهشت ) فهو بالجحيم والشين المعجمة , والهمزة والهاء مفتوحتان . هكذا وقع في الأصول التي رأيناها . ورأيت في كتاب القاضي عياض رحمه الله : فجهشت بحذف الألف وهما صحيحان . قال أهل اللغة . يقال : جهشا وجهوشا وأجهشت إجهاشا . قال القاضي عياض رحمه الله : وهو أن يفزع الإنسان إلى غيره وهو متغير الوجه متهيئ للبكاء , ولما بيك بعد . قال الطبري : هو الفزع والاستغاثة . وقال أبو زيد : جهشت للبكاء والحزن والشوق . والله أعلم . وأما قوله : بكاء فهو منصوب على المفعول له . وقد جاء في رواية ( للبكاء ) . والبكاء يمد ويقصر لغتان . وأما قوله ( وركبني عمر ) فمعناه تبعني ومشى خلفي في الحال بلا مهلة . وأما قوله ( على أثري ) ففيه لغتان فصيحتان مشهورتان بكسر الهمزة وإسكان الثاء وفتحهما . والله أعلم . قوله : ( بأبي أنت وأمي ) معناه أنت مفدى أو أفديك بأبي وأمي . واعلم أن حديث أبي هريرة هذا مشتمل على فوائد كثيرة تقدم في أثناء الكلام منه جمل . ففيه جلوس العالم لأصحابه ولغيرهم من المستفتين وغيرهم يعلمهم ويفيدهم ويفتيهم . وفيه ما قدمناه أنه إذا أراد ذكر جماعة كثيرة فاقتصر على ذكر بعضهم ذكر أشرافهم أو بعض أشرافهم ثم قال : وغيرهم . وفيه بيان ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من القيام بحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم وإكرامه والشفقة عليه والانزعاج البالغ لما يطرقة صلى الله عليه وسلم . وفيه اهتمام الأتباع بحقوق متبوعهم والاعتناء بتحصيل مصالحه ودفع المفاسد عنه . وفيه جواز دخول الإنسان ملك غيره بغير إذنه إذا علم يرضى ذلك لمودة بينهما أو غير ذلك . فإن أبا هريرة رضي الله عنه دخل الحائط وأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك , ولم ينقل أنه أنكر عليه .

وهذا غير مختص بدخول الأرض بل يجوز له الانتفاع بأدواته وأكل طعامه والحمل من طعامه إلى بيته وركوب دابته ونحو ذلك من التصرف الذي يعلم أنه لا يشق على صاحبه . هذا هو المذهب الصحيح الذي عليه جماهير السلف والخلف من العلماء رحمة الله عليهم , وصرح به أصحابنا . قال أبو عمر بن عبد البر : وأجمعوا على أنه لا يتجاوز الطعام وأشباهه إلى الدراهم والدنانير وأشباههما . وفي ثبوت الإجماع في حق من يقطع بطيب قلب صاحبه بذلك نظر . ولعل هذا يكون في الدراهم الكثيرة التي يشك أو قد يشك في رضاه بما فإنهم اتفقوا على أنه إذا تشكك لا يجوز التصرف مطلقا فيما تشكك في رضاه به . ثم دليل الجواز في الباب الكتاب والسنة وفعل وقول أعيان الأمة . فالكتاب قوله تعالى : { ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم } إلى قوله تعالى : { أو صديقكم } والسنة هذا الحديث , وأحاديث كثيرة معروفة بنحوه . وأفعال السلف وأقوالهم في هذا أكثر من أن تحصى . والله تعالى أعلم . وفيه إرسال الإمام والمبتوع إلى أتباعه بعلامة يعرفونها ليزدادوا بها طمأنينة . وفيه ما قدمناه من الدلالة لمذهب أهل الحق أن الإيمان المنجي من الخلود في النار لا بد فيه من الاعتقاد والنطق . وفيه جواز إمساك بعض العلوم التي لا حاجة إليها للمصلحة أو خوف المفسدة . وفيه إشارة بعض الأتباع على المتبوع بما يراه مصلحة , وموافقة المتبوع له إذا رآه مصلحة , ورجوعه عما أمر به بسببه . وفيه جواز قول الرجل للآخر بأبي أنت وأمي . قال القاضي عياض رحمه الله : وقد كرهه بعض السلف . وقال : لا يفدى بمسلم . والأحاديث الصحيحة تدل على جوازه سواء كان المفدى به مسلما أو كافرا حيا كان أو ميتا . وفيه غير ذلك . والله أعلم .